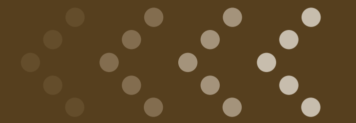
القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2010



العدد 5
المجلد 59

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

شكَّل معرض الخط العربي الذي أقامته أرامكو السعودية هذا الصيف مناسبة للإطلالة على النهضة التي يشهدها هذا الفن في القسم الثقافي من هذا العدد.

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
ناصر عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
وليد الهلال

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، **دينا الشهوان**
بيروت، **رولان قطان**
القاهرة، **ليلى أمل**
أمريكا الشمالية، **أشرف إحسان فقيه**

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2010
رمضان - شوال 1431

توزع مجاناً للمشتركين

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

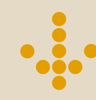
الهواتف: فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

اللوحات الإعلانية في شوارع المدن الحديثة وعلى جنبات الطرق السريعة باتت تشكّل قضية ذات أبعاد جمالية وبيئية، إضافة إلى ما يراه البعض من آثار لها على سلامة المرور بسبب تكاثرها المستمر. وفي هذا العدد، تفتح «القافلة» ملف هذه القضية التي باتت تشغل بلديات المدن والوزارات المعنية على مستوى العالم بأسره، فتسعى إلى وضع الأطر التنظيمية لهذه الصناعة التي أصبحت جزءاً أساسياً من نسيج المدينة الحديثة، ومن النشاط الاقتصادي فيها.





أما قول في مقال، فيضم صوتاً جديداً إلى الأصوات المنقسمة حيال مستقبل القراءة بين الورقي والمطبوع، هذه القضية التي اتخذت بعداً جديداً بعد تطوير أنماط جديدة من الكتاب الإلكتروني، يقال إنها تخلو من سلبيات القراءة على شاشة الكمبيوتر التقليدية.

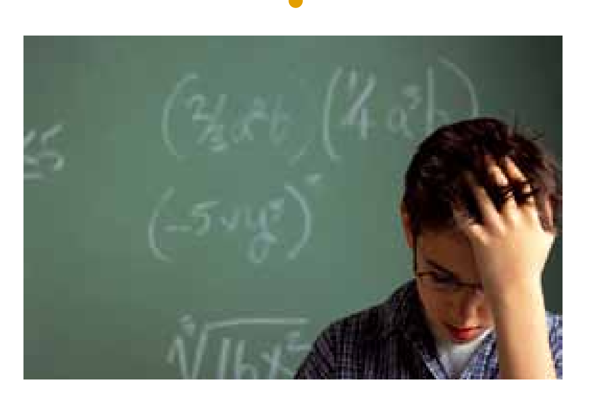


2 طاقة واقتصاد

وفي مناخ الطاقة والاقتصاد موضوعان: الأول هو حول الكيمياء الحيوية في صناعة النفط، أي الدور المتنامي الذي صارت تؤديه كائنات حية مجهرية (أنواع من البكتيريا) في صناعة النفط بدءاً بالآبار وصولاً إلى مصافي التكرير، وهو موضوع قد يبدو مفاجئاً للكثيرين.

أما الموضوع الثاني، فيتناول «الإدارة عن بُعد»، وهو اسم لمفهوم جديد في علم الإدارة، يدعو إلى تخفيف قبضة الإدارة والمدير على الموظف، وإلى إعطاء حرية أكبر لهذا الأخير في مجال التحرك واتخاذ المبادرات والتصرف. ويثبت أن تحديد الإدارات الدقيق لمهام الموظفين العاملين لديها، يبقي الإنتاج في حدوده الدنيا.





3 علوم وبيئة

أما مناخ العلوم فيتناول في هذا العدد موضوعاً كثيراً ما نسمع عنه في وسائل الإعلام والمجلات العلمية، من دون أن نعرف حقيقته وأهميته، ألا وهو «المسائل الرياضية غير القابلة للحل». فكيف يمكن أن تكون هناك مسائل من هذا النوع غير قابلة للحل في عصر الكمبيوتر القادر على إجراء ملايين العمليات الحسابية المعقدة في لحظات؟

الفاصل المصوَّر



ويستضيف الفاصل المصوَّر في هذا العدد المصوِّرة السعودية ريًّا بنجر في عيِّنة من أعمالها تتميز بطغيان الأسود والأبيض على الملوَّن الذي وإن حضر، فغالباً ما يكون قريباً من الأسود والأبيض، وبحضور قوي للحياة في المدينة بكل ما فيها من خطوط ومساحات هندسية مرتبة بدقة.





4 الحياة اليومية

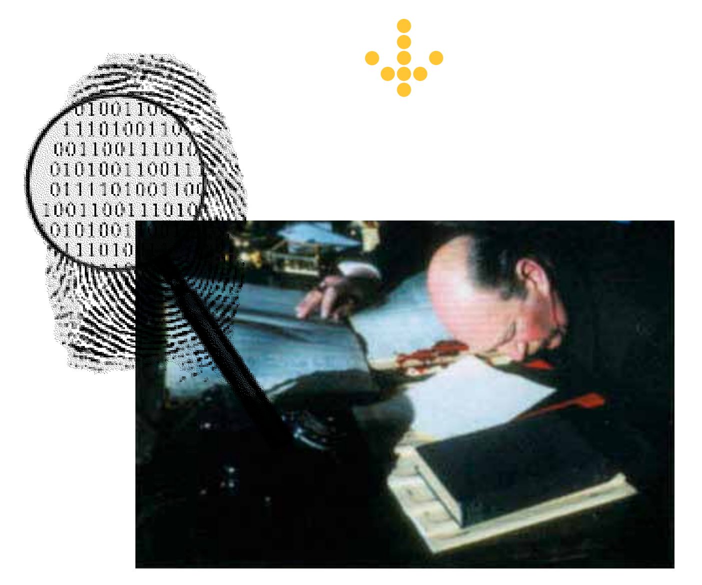
بالوصول إلى مناخ الحياة اليومية، سيطالع القارئ موضوعاً بعنوان «كيف تشتري حجراً كريماً؟». فتجارة الأحجار الكريمة تنمو بشكل متواصل، وخاصة في المملكة ودول الجوار الخليجي. ويتميز شراء هذه السلعة الثمينة جداً بسلسلة من المحاذير يلفتنا التقرير إليها وكيفية تلافيها، سواءً أكان ذلك في الأسواق التقليدية، أم من خلال التجارة الإلكترونية.

5 الثقافة والأدب

بعد ذلك، وكالعادة، يصل القارئ إلى موضوعين في مناخ الثقافة والأدب. الأول هو حول فن الخط العربي وأوجه نهضته الحالية كما تجلَّت في المعرض الذي أقامته أرامكو السعودية في إطار «مهرجان صيف 31»، ويتضمن هذا الموضوع عرضاً لما حواه المعرض، وعرضاً لوجهات نظر عدد من كبار الخطاطين الذين شاركوا فيه.



أما «بيت الرواية» فيتوقف في هذا العدد أمام العمل الأخير للروائي الأردني جمال ناجي، رواية «عندما تشيخ الذئاب» التي صدرت في طبعتها الثانية قبل أشهر معدودة، وحظيت بتقدير ملحوظ من قِبل نقاد كثيرين.



6 ملف العدد

أما مسك الختام في الملف مع لغز «الرواية البوليسية»، هذا اللون المميز من ألوان الأدب، بمقوماته ومذاهبه الداخلية المختلفة وكبار أدبائه، وأيضاً ما تم اشتقاقه منه في الفنون المعاصرة.

الرحلة معاً

تشريح الظواهر المعاصرة

ليس جديداً القول إننا نعيش في عالم معقَّد، مكتظ، ومزدحم تتنافس فيه الظواهر والموجات الحياتية والعلمية والاجتماعية يوماً بعد آخر، بل إننا، وتحت وطأة تراكمها وسرعتها، نصحو أحياناً تحت وطأة شعور حاسم، أنها في حقيقة الأمر تسيِّرنا وتقود حياتنا، وإننا -على الأرجح- لا نملك زمام السيطرة عليها وتوجيهها، أو إيقافها، فضلاً عن الإضافة الإبداعية إليها.

إذا كنا حقاً لسنا من صنَّاع العلم ومسوِّقيه في العالم. فليس أقل من أن نبسط مفاهيمه، وأن ننشر فلسفته في أوساط أجيالنا الجديدة، وبين مختلف الشرائح القارئة، وهي من كل الأعمار، والأجناس.

سؤال العلم إذن في حياتنا جارح، والإجابات عنه باهظة بالضرورة..!

اجتهدت «القافلة» في كل أزمانها لكي تكون أمينة مع روح عصرها، أي أن تتمثل أفضل ما فيه علماً وأدباً وفكراً واستكشافاً، وأن تقدِّمه لقارئ متعطش لآخر منجزات المعرفة والعلم. نجحت غالباً في إيصال هذه الرسالة، وتراجعت أحياناً، وغلَّبت أحياناً جانباً ثقافياً على آخر لكنها لم تفقد روح المبادرة، ولم تيأس من جعل طاقة العلم والتقنية جناحي حركتها واندماجها في العصر ومتطلباته.

حين أراجع، على نحو عشوائي، ثلة من أعداد نقلتها الأخيرة (التي بدأت عام 2003م)، أكتشف جانباً قليلاً ما اكترثت له الصحافة العربية، وهو قراءة وسبر آخر المستجدات التقنية والثقافية التي ترتبط بحياة كل الناس، ليس كأخبار عابرة، بل كمسائل حياتية ونفسية وسلوكية وصحية تمس حركتهم اليومية، وعلاقاتهم ببعضهم وبالآخرين، وتنتج جملة من العلاقات الإنسانية الجديدة والأفكار، والمفاهيم.

أقرأ إطلالات جميلة عن عالم الوجبات السريعة، وعن ظاهرة الشباب المصورين، وعن ماهية البورصة، وعن ظاهرة الهايبرماركت، وعن بعبع البيئة (أكياس البلاستيك)، وعن حرائق الغابات، وعن أثر الهدر والبذخ على البيئة، وعن معدل الأعمار في عصرنا، وما هو قرص (الأسبرين)؟، وما أهمية السكرتارية الإدارية، وما هي حسنات الأمراض؟ إضافة إلى غوص في



الأحجار الكريمة، واللغة الجديدة للشباب والمراهقين، ولماذا تفلس شركات الطيران؟ وما دلالات ظاهرة «هاري بوتر»؟. ولن أسرد أكثر من ذلك، وما أردت قوله هنا هو أهمية أن تكون المطبوعة قريبة من روح وتفاصيل عصرها، ووجوه ناسها.

يتذكر الكثيرون، الذين عاصروا «القافلة» أو اختلطوا بتاريخها العريق، تلك الوجوه الحنطية أو السمراء لآباء وأجداد عمَّروا بسواعدهم وطاقاتهم رمال هذه الصحراء.

لقد حلّوا على أغلفتها، وأصبحوا وشوماً لا تُنسى، أحدهم يقف على سطح شاحنته وقد لوحته الشمس، وآخر يثبِّت أبراج الحفر في عمق الصحراء، وثالث يمدّ الأنابيب عبر الكثبان مستعيناً بمعدات متواضعة، ووجه يعمل فوق إحدى ناقلات النفط، ووجوه أخرى تكتسي بالبِشر بعد أن وقَّعت اتفاقيات لتملك بيوتها، أو سواعد تؤدي عملها في إحدى الورش الصناعية، أو آخرون يتلقون جرعات التطعيم ضد أحد الأمراض المستعصية...

وجوه كثيرة لن أوفِّيها حقها هنا، لكننا نتذكرها لأنها انغرست في وجداننا عبر رواية قصصها ونشر صورها في مطبوعات الشركة المتنوعة، الأسبوعية والفصلية. وإذا كنا نتذكر تلك الوجوه الآن كسحنات شاهدة على مراحل مفصلية من تاريخ الشركة، فإن هذا لا يقلل من ضروب المعاناة والعذابات التي مرَّ بها أولئك الناس خلال ذلك الزمن الصعب، وهي ضروب من الألم لا يمكن لمطبوعة، محدودة الصفحات، أن تلمّ بها وتفصل شجونها، وإن اجتهدت بكل طاقتها لتدوين ذلك التاريخ وحفظ تلك الوجوه من النسيان.

إنني أرتاد، كما تفعلون، المكتبات ومراكز التسويق التجارية بحثاً عن كل جديد معرفي، وأتوقف أمام عشرات الصحف والمجلات التي ترتدي أغلفة برَّاقة عن الأزياء، ونجوم السينما والتلفزيون، ووجبات الأطعمة، والشؤون السياسية والاقتصادية، والآداب والثقافات، بل والصقور والخيول، والديكور الداخلي، والكمبيوتر والإنترنت ...الخ. لكننا قليلاً ما نعثر على مطبوعات تدرس ظواهر حياتنا اليومية، وتأثيراتها على سلوكياتنا وأفكارنا ومعاني وجودنا، وعلى أجيالنا القادمة.

هكذا إذن تحاول «القافلة» أن تبني علاقة جديدة مع قارئها ترتكز على قراءة تحليلية للأنماط الحياتية، والاندفاعات التقنية، والمستجدات المعاصرة التي تلقى في طريق حياتنا كل يوم.

إننا نعيش في زمن حداثي وتجديدي ومتسرع. زمن تلتقي فيه المعارف والفنون، التي كانت نخبوية، بمستقبلين شعبيين، والعكس يحدث أحياناً، فالصرعات الفنية والاجتماعية التي تنطلق من قاع المجتمعات سرعان ما تتحوَّل إلى ظواهر جماهيرية تستقطب نخب المجتمع في الإدارة والمال والتسويق، بل وتقتحم ذائقتهم ومفاهيمهم وتصوغها من جديد.

إذا كنا جميعاً مستهلكين بالضرورة لكل ما تفيض به منتجات العالم علينا شرقاً وغرباً، وهي منتجات وأدوات وأفكار تغزو وتعيد تشكيل حياتنا ولغتنا ومعارفنا، فإننا في أمس الحاجة إلى فهم وقراءة تلك الظواهر والمنتجات، وإدراك آثارها الواضحة على مجمل توجهاتنا.

في هذا السياق فإن هذه المجلة لن تتوقف عن تزويد قارئها بما يحتاجه عن المعارف والكشوفات، وإلقاء المزيد من الضوء على مخرجات العلم والآداب والفنون الجديدة، وشرح انعكاساتها على القيم وأنماط التلقي والسلوك في مجتمعاتنا وخاصة في أوساط أجيالنا الشابة.

بذلك نكون أكثر قرباً من قارئنا ...

محمد الدميني



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحِّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

حول العدد الثالث

وصلني العدد رقم 3 من المجلد 59 عن شهري مايو-يونيو 2010م. وأتقدَّم إليكم بجزيل الشكر والامتنان لما تقدِّمونه من جهد متواصل لرفع مستوى العلم والثقافة في المجتمع العربي، من خلال مجموعة من الموضوعات المتنوعة التي يشعر القارئ أنها تجذبه إلى القراءة موضوعاً تلو الآخر.
أكرر شكري إليكم وإلى أسرة تحرير المجلة على هذا الأداء الرائع.

مجيب المفتي
حلب - سوريا

حول موقع المجلة

حاولت كثيراً الاشتراك عن طريق الموقع، ولكني لم أستطع، فهناك أخطاء برمجية في الموقع، أتمنى منكم ملاحظتها.. فأيقونة (اشتراك) وأيقونة الاستفسار واتصل بنا، كلها لا تعمل، بل تحيل المستخدم إلى الصفحة مرة أخرى بعد ملء البيانات.. كما أن صفحة الاستبيان تعطي تحذيراً وبياناً بوجود أخطاء برمجية بعد ملء البيانات.
لذا آمل منكم مشكورين التفضل باعتماد اشتراكي عن طريق البيانات الموجودة هناك.. مع تقديري التام لجهودكم الجبارة، وعطائكم المتميز.

محمد عبدالله سليمان المرزوق
مستشار قانوني - المملكة العربية السعودية

القافلة: نشكركم على ملاحظتكم المحقة. فهناك مشكلة تجري معالجتها، ولكنها تقتصر فقط على التغذية المرتجعة، أي أنك بمجرد الضغط على أيقونة «اشتراك» بعد ملء البيانات، يكون الطلب قد وصلنا. وعليه، أحلنا عنوانك إلى قسم الاشتراكات، وستصلك أعداد المجلة قريباً، -إن شاء الله-.

للمتدرِّبين

أتابع «القافلة» منذ أن كنت طالباً في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن قبل 14 عاماً تقريباً. وكنت وما أزال من أشد المعجبين بها. واليوم أرأس قسماً للتدريب الإداري في الشركة السعودية للكهرباء بأبها، ويمر بنا مئات الزملاء، وبوِّدي أن أضع عدداً من أعداد القافلة على طاولات الانتظار علَّ المتدرِّبين يستفيدون منها. لذا أكون شاكراً لو زوَّدتموني بعدد من النسخ أثناء صدورها، ولو كان هنالك مخزون قديم منها (أعداد متبقية لم توزَّع) فآمل كذلك إرسالها. فهي كالذهب، أو كالذهب الأسود كلما قَدِمَتْ زادت قيمتها. ولكم خالص تحياتي.

علي عبدالله حميدان الأحمد
أبها

القافلة: أحلنا طلبك إلى قسم الاشتراكات، وسيصلك عدد إضافي -إن شاء الله-. أما الأعداد السابقة فهي متوافرة في صيغتها الإلكترونية فقط على موقع المجلة.

الحنين إلى المساهمة

كم بودي أن أعود إلى المساهمة في رفد القافلة بسلسلة من المقالات المترجمة، إذ عاد إليَّ الحنين إلى الكتابة في المجلات التي نشرت فيها مثل «قافلة الزيت» و«الخفجي» قبل تقاعدي. فهل ألقى الترحيب؟
ولا أخفيكم أن والدي المرحوم خليل هنداوي كان قد رفد بدوره مجلة «قافلة الزيت» بمجموعة جيدة من المقالات.
وللمناسبة، أود أن أسأل إن كان هناك ثمة فهرس للكتَّاب وعناوين مقالاتهم التي نُشرت في قافلة الزين سابقاً والقافلة لاحقاً، وفي حال وجوده، هل بالإمكان تزويدي به؟

كمال خليل هنداوي
حلب

القافلة: نرحب بعودتك إلى المساهمة في القافلة، ونرجو أن تنسِّقوا مسبقاً مع فريق التحرير بخصوص الموضوعات والقضايا التي تحتاج المجلة إلى الكتابة فيها دون غيرها. أما بخصوص الفهرس الذي تسأل عنه، فهو غير موجود بشكل منفصل، ولكنه ضمن محرك البحث على موقع القافلة. وبالتالي من السهل الوصول إلى الكتَّاب ومقالاتهم.

حول الصيغة الإلكترونية

أود أن أشكركم على صفحة «القافلة» على الإنترنت، فقد سهَّلت البحث والقراءة.
والرجاء الالتفات إلى الآتي:
1 - توافر إمكانية تحميل العدد كاملاً بصيغة (PDF) كما كان مسبقاً.
2 - إرفاق صورة الغلاف كاملاً وإظهار رقم المجلد والعدد، لاستخدامه في أغراض البحث والمراجع. فأعداد السنة 2003م مثلاً، من غير المعروف رقم المجلد والعدد.
ولكم جزيل الشكر.

محمد الخباز

القافلة: إن كل الأعداد موجودة في صيغة (PDF)، ما عدا الأخير الذي يحوَّل إلى هذه الصيغة عند صدور العدد التالي. أما أرقام الأعداد والتواريخ فكلها موجودة على الأغلفة، ولكنها قد تكون صغيرة، ولرؤيتها عليك أن تفتح العدد.

الغاز الطبيعي

أشكركم على مجهوداتكم الكبيرة في إثراء المجلة بالمقالات والأبحاث العلمية المفيدة التي تخدم القارئ والباحث.
وبالإشارة إلى المقال المنشور في العدد 3 المجلد 59 بعنوان «الغاز الطبيعي» لكاتبه المهندس أمجد قاسم؛ فقد ذكر خمساً من الدول العربية المنتجة والمصدِّرة للغاز الطبيعي، واصفاً إياها بأهم الدول التي تمتلك احتياطات كبيرة من هذه الثروة المهمة. وأغفل الكاتب دولاً عربية أخرى منتجة ومصدرة للغاز الطبيعي، وتمتلك أيضاً احتياطات كبيرة منه، ومن هذه الدول: مصر وليبيا واليمن. فاقتضى التنويه.

منصور سليمان
اليمن

لم يُقطع الاشتراك

أفيدكم -حفظكم الله- بأن مجلة «القافلة» كانت تصلني بانتظام شديد. ولكنها انقطعت عني بالأعداد الأخيرة، وتحديداً من شهر مايو-يونيو 2010م، ولا أعلم السبب ولكن عسى أن يكون خيراً. علماً بأنني من مشتركي خدمة واصل بالبريد السعودي، وتصلني جميع المطبوعات الأخرى ما عدا «القافلة». وحيث إن مجلة القافلة من المطبوعات المهمة بالنسبة لي في مجال الأبحاث، وسبق أن شاركت معكم بنشاط بحثي في السنوات الماضية. أتمنى منكم الاهتمام بموضوع شكواي، علماً بأنني خاطبت خدمة واصل في البريد السعودي في موضوع الشكوى.
مع تمنياتي لكم بكل التقدم والازدهار، ولا أنسى فريق التحرير.

أ. د. فؤاد بن محمد علي
مكة المكرمة

القافلة: لم يحصل أي إلغاء لاشتراكك في المجلة، نرجو أن يكون العدد قد وصلك بُعَيْد رسالتك.

لعرض العدد

وصلني العدد الثالث من مجلة «القافلة»، ووجدته حافلاً بالعديد من الموضوعات المهمة، وإنني إذ أشكر لكم اهتمامكم وتواصلكم وذوقكم يُسعدني أن أتواصل معكم بما يتوافر لدي من دراسات نقدية. كما أحرص الآن على أن أقدِّم عرضاً لمحتوى هذا العدد في الصحف الليبية وبعض المواقع العربية. راجياً أن أكون عند حسن الظن.

عذاب الركابي
ليبيا

القافلة: شكراً على اهتمامك بالقافلة، ونرحِّب بمساهماتك بعد التنسيق المسبق مع فريق التحرير من خلال موقع قافلة الأبحاث المذكور على بطن غلاف المجلة.

عزَّ المصابُ

عزَّ المصاب.. يا غازي
(وانقلب السحر على الساحر)
وما عادت حنكة المتنبي
للظمآن ترويه
ولم تعد -تعظم في عين الصغير صغارها-
وليست كذلك -تصغر في عين العظيم العظائم-
بل، عزَّ المصاب، يا غازي..
فابك.. يا قدس وانتحبي..
مات، من كنت تلتحفين بقلبه
وبعينه الأخرى: تلتمسين شفاهُ،
وتهيمين، وتهمسين أن هيا نلوذ به
وبه الكلُّ قد جلَّ ذكراه.
لا، لن تموت ولن تغيب...
أنت (مذ نبهت المصابَ إلى المصاب،
تنكرتْ لك كل الوجوه)
أنت / وإن تنكروا
لن تلغ فيَّ - من كان هنا أو كان هناك
وقفتك
وقفةَ عزٍ
وضمتكَ
ضمة فخرٍ
أشتاق لضماتك، أيها الضامُّ الجميل
فأنت الذكرى وأنت القلب المستحيلْ.

من قصيدة في رثاء غازي القصيبي

د. عماد علي الخطيب
جامعة الملك سعود

المشتركون الجدد

الإخوة: مهدي حسن خاصر، القطيف - محمد بن سعود الحمود، الرياض - أديب بن ناصر البريدي، الرياض - حامد ناصر الظالمي، البصرة - ناصر بن عبدالله النويصر، الرياض - عبدالله تقي محفوظ، البحرين - الدكتور عبدالرحمن إبراهيم الحبيب، جدة - عبدالرحمن ابن خالد الرويشد، الرياض - أحمد حسين العبدالله، الأحساء - حسين بن علي جعفر نور الدين، القطيف.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

حول الإبداع والفن والفقر

قرأت في العدد الأخير من «القافلة» مقالاً حول «المبدع الفقير والمبدع الثري والفرق بينهما» والذي جاء تعقيباً على مقال في عدد سابق حول قدرة الإبداع على توفير العيش الكريم لصاحبه. وعلى الرغم من أن معظم ما جاء في المقالتين ينتزع من القارئ الاعتراف بصحته، إلا أنني أرى كاتبي المقالتين غاصا في الكثير من التفاصيل، ولم يتطلعا إلى الصورة العامة. فماذا تقول هذه الصورة؟

ليس علينا أن نتكهن أبداً، بل يكفينا لكي تكون نظرتنا إلى هذه القضية موضوعية، أن نتطلع إلى المبدعين تاريخياً وحاضراً عند شعوب الأرض وثقافاتها المختلفة، لكي نستخلص منها جملة ملاحظات، هي لفرط تكرارها وعدم وجود ما يناقضها تكاد أن تكون قوانين.

إن المبدع هو لقب يحمل معنى مطاطاً، ويضم تحته الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانين وصولاً إلى.. الراقصين. وبالتالي يصعب التطلع إلى كل هؤلاء وكأنهم «المبدع الواحد». فإذا كان هناك مبدعون عانوا الفقر والعوز في حياتهم قديماً، فمعظمهم كان من الفلاسفة والمفكرين. ولكن المبدعين في مجالات الفنون فقد أصاب الكثيرون منهم الثراء وعاشوا حياة كريمة جداً.. وفي العصر الحديث، وخاصةً في الغرب، صارت الظروف أكثر إنصافاً لكل المبدعين، بسبب عدالة الفرص في الوصول إلى الجمهور الذي يختار من يكافئ ومن يهمل ويُسقط..

إن المبدع هو أساساً منتج «يبيع» إنتاجه لجمهور ينتمي أولاً إلى الثقافة التي ينتمي إليها هو نفسه. ولكي يؤمِّن ذلك العيش الكريم للمبدع، يجب عليه هو أن يكون مبدعاً حقاً متفرغاً تماماً لعمله كما يتفرغ الطبيب للطب أو الإسكافي لصناعة الأحذية. كما يجب على إنتاجه أن يكون جيداً، ويشبع حاجة المجتمع إليه، وأخيراً هناك المجتمع الذي يجب أن يكون قادراً على شراء المنتج.

ولو بدأنا بإسقاط هذه الشروط على حالتنا عربياً، طالما أن روحية المقالين كانت تدور في النهاية حول حال المبدع عندنا، ولو بدأنا من الشرط الثالث، للاحظنا أن قدرة الجمهور على «شراء» منتجات المبدعين بالمعنى الواسع للكلمة، هي محدودة من جهة (مقارنة بجمهور السينما الأمريكية الذي حولها إلى واحدة من أكبر الصناعات في العالم)، ولكنها تبقى كافية لتوفير العيش الكريم للمبدعين. وهذا ما هو حاصل الآن خاصة في صفوف العاملين في مجالات الفنون الشعبية من مغنين ومغنيات ومن شابههم، وبدرجة أقل للعاملين في السينما، وأقل بكثير للعاملين في الأدب والفنون التشكيلية، وصولاً إلى ما يشبه العدم بالنسبة إلى المفكرين.

فلو كان دان براون مثلاً روائياً عربياً، لأمكن لنحو المئة ألف نسخة عربية التي بيعت من كتابه «شيفرة دافنشي» أن تؤمِّن له عيشاً كريماً، وإن كانت لن تؤمن له عشرات الملايين التي كسبها عالمياً.

إن الجمهور العربي لا يتحمل أكثر من الحد الأدنى من المسؤولية عن حال المبدع العربي. فالمشكلة هي في الشرطين الآخرين، أي نوعية الإنتاج، وجدية المبدع، وهذان الجانبان مترابطان.

فعندما يشيح الجمهور بنظره عن ديوان شعري أو رواية معيَّنة، فهذا يعني أنه لا يريد مثل هذا الإنتاج. أليس من المذهل إذن أن نرى على سبيل المثال كتَّاباً وشعراء يصرِّون بعناد لا تفسير له غير الرغبة في الفشل، على الكتابة مثل ما كتب غيرهم قبل عشرين أو أربعين سنة، ولم يلقَ أي اهتمام من الجمهور، ولم يبع من كتابه أكثر من ألف نسخة؟ فبأي حق يتوقع هذا أن يؤمِّن لنفسه العيش الكريم من سلعة غير صالحة للبيع؟

وعندما يستسلم المبدع أمام القول إن الإبداع لا يكفي لعيش صاحبه، نراه ينصرف إلى مزاولة وظيفة تؤمن له معيشته، ويمارس إبداعه في أوقات فراغه، وهو بذلك لا يزيد طينته إلا بلّة.

أحمد باية
دمشق

تعقيباً على مقال «حول المبدع الفقير والمبدع الثري.. والفرق بينهما»
«القافلة» عدد مارس-أبريل 2010

موقع القافلة الإلكتروني.. 14 ألف زائر شهرياً

كثيراً ما يتضمَّن بريد القافلة أسئلة وطلبات تكون أجوبتها متوافرة على الموقع الإلكتروني للمجلة وهو www.qafilah.com، الذي تم إطلاقه في مطلع شهر نوفمبر من العام الماضي.

وعلى الرغم من حداثة عمر الموقع (الذي لا يزال بعض القرَّاء يسألون عن وجوده)، فإن البيانات الخاصة به تؤكد حُسن أدائه لما كان يُرتجى منه، إذ بات يستقبل شهرياً ما يزيد على 14 ألف زائر يتصفَّحون ما يراوح بين 77 ألفاً و127 ألف صفحة.

وجاء في تفاصيل البيانات أن عدد الزوَّار كان في حدّه الأدنى خلال الشهر الأول من عمر الموقع، والأمر طبيعي، وبلغ آنذاك 9252 زائراً، تصفحوا 71709 صفحات. ومنذ ذلك الحين والأرقام تتجه صعوداً حتى استقرت فوق 14300 زائر خلال الشهرين الماضيين (14375 زائراً خلال شهر سبتمبر تصفَّحوا 108481 صفحة).

حول

بين الورقي والإلكتروني
المواجهة المقبلة قانونية حول الحقوق الفكرية

طالعت في «القافلة» العدد 4 من المجلد 59 (يوليو-أغسطس 2010م) مقالاً بعنوان: «بين الورقي والرقمي صراع يمزِّق الكتاب أم يطوِّره؟»، أود أن أعقِّب عليه بالآتي:

رغم قصر عمر الكتابة الإلكترونية، فإنها مثل جميع فنون العصر الإلكترونية (الإنترنت، التدوين، الصحف الإلكترونية، الكتاب الإلكتروني، المجلات الإلكترونية) تتطور بسرعة كبيرة ومذهلة، وتُستولد منها أشكال متعددة ومتنوعة تنافس بشراسة الإعلام التقليدي المطبوع، بل وتنافس أيضاً بعضها البعض في ظل عالم تتقارب مسافاته، وتتداخل مكوناته وتتعزَّز وشائجه بفعل حركة نقل نشيطة في جميع الاتجاهات. لكن المواجهة الحقيقية فيما بين النوعين لم تحدث بعد.

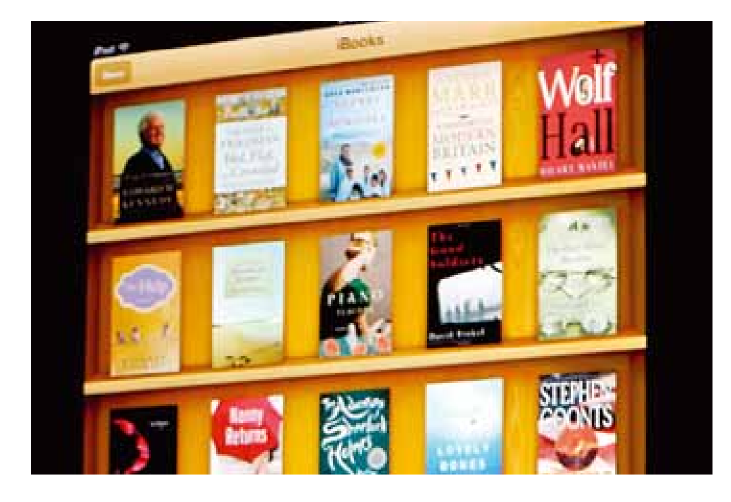
فالمواجهة الحقيقية بين الوسيلتين الإعلاميتين، أي الصحف والمجلات والكتب الورقية من جانب، والمواقع الإلكترونية من جانب آخر، باتت وشيكة. وسيكون عنوانها «حماية حقوق الملكية الفكرية»، وستتصف على الأرجح بالشراسة، وبـ «تعمد الإيذاء» بلغة كرة القدم! علماً بأن المنافسة بينهما تقتصر حالياً على التربص والاتهامات المتبادلة على استحياء، ولكن من دون الوصول إلى حد المواجهات والضربات القاضية.

فالتهم تكال من الجانبين. إذ إن مواقع الإنترنت كثيراً ما تتهم الصحف الورقية بـ «سرقة محتواها»، والصحف والمجلات تتهم مواقع الإنترنت باقتباس موادها الصحافية ونشرها من دون إذن مسبق. فمحتوى كل طرف يبدو -حتى هذه اللحظة- مستباحاً من الطرف الآخر. وقوانين حماية حقوق الملكية الفكرية حتى الآن لا تحمي حقوق أحد فيما يتعلق بالمحتوى الإخباري أو الإبداع الأدبي، فهذان المحتويان يواجهان حالياً الكثير من الإشكاليات التي لا تتوافر مثلاً في حالة الحديث عن سرقات ملفات الفيديو والأغاني والأفلام الحديثة ولقطات أهداف مباريات كرة القدم.

وقد سعت بعض الدول لتنفيذ وتفعيل قانون حماية الملكية الفكرية القديم جداً، مثل فرنسا وإنجلترا، الذي يدعو إلى قطع الإنترنت عن المستخدم الذي يكرر عمليات التحميل للمواد المحمية طبقاً للقانون لثلاث مرات. وتدخل الشرطة والقضاء لضبط المواد والأجهزة لإثبات انتهاك الملكية الفكرية. خاصة في حالات المنتهكين المحترفين أو المتكررين.

كما تسعى ألمانيا إلى إيجاد سبل لحماية الصحافة الإلكترونية من الانتهاكات، وذلك في إطار خطة تهدف إلى مساعدة الصحف والمجلات على اقتحام المستقبل الرقمي من دون خوف، خاصة أن وسائل الإعلام المكتوبة في ألمانيا وفي دول أخرى -بطبيعة الحال- اشتكت من أن مواقع الإنترنت، بما فيها المواقع الشهيرة مثل -جوجل- تستفيد من المحتوى الإخباري والعلمي والأدبي الذي تقدِّمه هذه الوسائل المكتوبة في تحقيق أرباح طائلة تحصل عليها -جوجل- بمفردها من دون أن تعطي الصحيفة أو المجلة حقها.

وتجدر الإشارة إلى أن حماية الملكية الفكرية وحقوقها بدأت منذ وقت مبكر جداً مع بداية عصر النهضة، عندما تم اختراع الحرف المطبعي



وظهرت الآلة الكاتبة (الطابعة) التي أدت إلى تنشيط حركة التأليف والنشر والتوزيع. ومن ثم ظهرت تعقيدات العملية تطفو على السطح فتنازع المتنازعون، مما حدا بالدول إلى وضع النظم والقوانين لحماية هذه الملكية، خاصة ما يتعلق منها بحق المؤلف. أما الجزء المتعلق بالملكية الصناعية فظهر مترابطاً مع الحركة الصناعية والتجارية التي عمت الدول الأوروبية في ذلك الوقت.

وفي هذا الصدد، يرى البعض أن القانون الإنجليزي الصادر عام 1623م والمعروف باسم قانون الاحتكارات، هو أول تنظيم قانوني لبراءات الاختراع والملكية الصناعية. على أن قضايا الملكية الفكرية وحماية حقوق الملكية لم تبدأ بشكل فعَّال إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، الذي شهد التوقيع على أهم اتفاقيتين في مجال الملكية الفكرية بشقيها: الملكية الصناعية والملكية الأدبية والفنية، وهما اتفاقية باريس عام 1883م واتفاقية بيرن عام 1886م. ثم تعددت الاتفاقيات الإقليمية في القرن العشرين مثل: اتفاقية مكسيكو عام 1902م، واتفاقية ريو دي جانيرو عام 1906م، واتفاقية كاراكاس عام 1911م، واتفاقية هافانا 1928م، واتفاقية واشنطن عام 1946م. ثم أبرمت الاتفاقية الدولية الكبرى لحق المؤلف في جنيف عام 1952م، وعدلت في باريس عام 1971م.

وأخيراً كانت هناك اتفاقية منظمة التجارة العالمية المعروفة باسم «تربس» (Trips) في شقِّها المتعلق بالملكية الفكرية، وذلك في أواسط تسعينيات القرن الماضي. ومعلوم أن اتفاقية إنشاء منظمة التجارة العالمية في مراكش في أبريل 1994م وملحقها رقم 1ج المسمى باتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية «التربس»، هي الاتفاقية الأهم والأشمل في مجال الملكية الفكرية، إذ تحتوي على التدابير التي تضع حداً معقولاً من المعايير الدولية للحماية في مختلف أفرع حقوق الملكية الفكرية. كما تمتاز عن سابقاتها من الاتفاقيات في هذا المجال بتضمنها لشق خاص بالإنقاذ، وبآلية للتقاضي، وفض النزاعات، ومن المرجح أن هذه الاتفاقية ستكون هي مصدر الاجتهادات في فض النزاع المرتقب بين النشر الورقي من جهة والإلكتروني من جهة أخرى.

سهير أبوبكر عبد الوهاب الشاذلي
طنطا- مصر

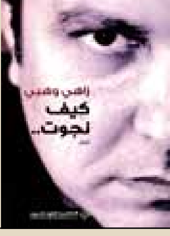
تعقيباً على مقال «بين الورقي والرقمي، صراع يمزِّق الكتاب أم يطوِّره؟»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2010

قافلة النشر

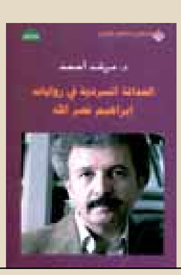


الدار العربية للعلوم ناشرون





كيف نجوت (شعر)
زاهي وهبي





الحداثة السردية في روايات إبراهيم نصر الله
د. مرشد أحمد





على دروب النجاح من الجامعة إلى سوق العمل
عبدالحسن الحسيني



الشاي في الثقافة الصينية
زيانغ يونغ

الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة
د. عبدالله إبراهيم

نادي الأحساء الأدبي

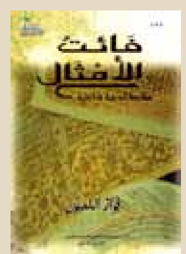


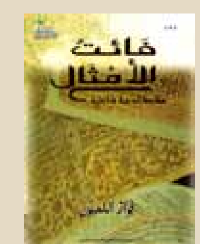
معجم شعراء الأحساء المعاصرين





شفة التوت (شعر)
ناجي بن علي حرابه





فائت الأمثال.. مقاربة أدبية ساخرة
فواز اللعبون



يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ودوره في بلاد الشرق
د. محمد ناصر الملحم



قصائد من الشعر العامي
د. سليمان البوطي

دار العلم للملايين



صرخة فراشة
ليال الغزيري



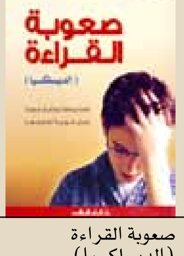


صباح (شعر)
عبدالله محمد باشراحيل



صعوبة القراءة (الديسلكسيا)
لمى بنداق بلطجي

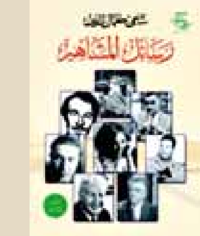




الرؤية والتشكيل في ديوان قلائد الشمس إلى مثقفي أمريكا
أ.د. محمود بن إسماعيل عمّار

شمس للنشر والإعلام





رسائل المشاهير
سامي كمال الدين



أجراس
خالد الصاوي



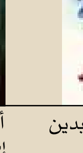








فاطمة كفر الشيخ عابدين
سهى زكي





أنا
إسلام شمس الدين









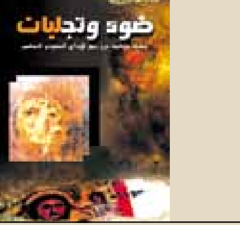




حُفاة
طاهر الزارعي

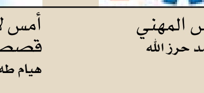
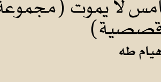
دار الشروق للنشر والتوزيع










ضوء وتجليات
تركية عواض الثبيتي

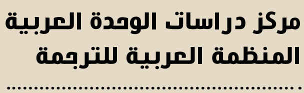
التدريب التربوي وأساليب القيادة الحديثة
د. محمد قاسم مقابلة

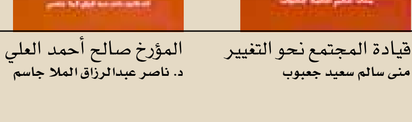
علم النفس المهني
د. أحمد أحمد حرز الله

أمس لا يموت (مجموعة قصصية)
هيام طه

الحركات الاجتماعية
أ. د. معن خليل العمر

مركز دراسات الوحدة العربية المنظمة العربية للترجمة



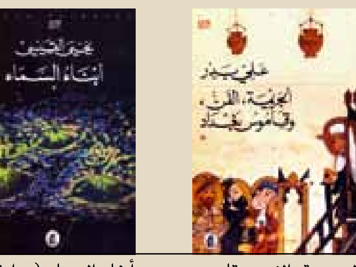
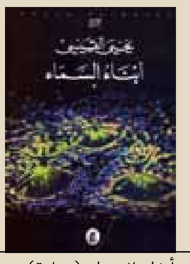
قيادة المجتمع نحو التغيير
منى سالم سعيد جعبوب

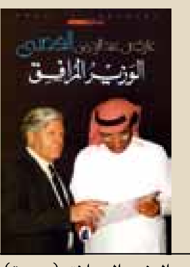
المؤرخ صالح أحمد العلي
د. ناصر عبدالرزاق الملا جاسم

إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر
د. حسام الدين علي مجيد

الترجمة والحرف أو مقام البعد
أنطوان برمان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر




الوزير المرافق (سيرة)
غازي بن عبدالرحمن القصيبي

الجريمة، الفن، وقاموس بغداد (رواية)
علي بدر

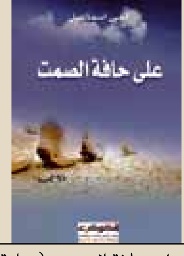
أبناء السماء (رواية)
يحيى القيسي

الخروج من ليوا يليه في ديار الشحوح
أمجد ناصر

بعثة أحمد بن النعمان إلى الولايات المتحدة
هيرمان فريدريك إيلتس

رياض الريس للنشر والكتب










على حافة الصمت (رواية)
لمى إسماعيل

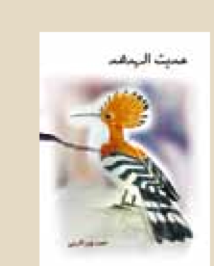
هكذا أحبه (شعر)
سعاد جروس

أسرار وأكاذيب (رواية)
غالية قباني

القدس ليست أورشليم
فاضل الربيعي

افتراءات (جماع الشعر)
بنسالم حميش

كتب متفرقة






حديث الهدهد
محمد جبر الحربي

صحافة الأفراد أم صحافة المؤسسات؟
د. حمود بن عبدالعزيز البدر

من أنت؟ دليل في تطوير الشخصية وبناء الذات
د. عبدالرحمن الصبيحي

عبق السنين (شعر)
عبدالله حمد الحقيل

شعراء قادمون من واحة الأحساء
ناجي داوود الحرز

الإعلانات في الشوارع..
مدينة ترحِّب بها وأُخرى تحظرها



تختلف الإعلانات في شوارع المدن والأماكن الخارجية عن غيرها لأسباب كثيرة تشمل توجهها إلى جمهور شبه محكوم بالاطلاع عليها ولا يستطيع تلافيها، وبالتالي تمتعها بفاعلية ترويجية قد تكون أكبر من غيرها من وسائل الإعلان. إضافة إلى أن حضورها الكبير والمتنامي في المدن الحديثة حوَّلها إلى قضية جمالية وبيئية تشغل المسؤولين عن البلديات وتنظيم المدن.

رانيا منير تعرض أوجه هذه القضية، والجهود المبذولة إلى ضبط عالم اللوحات الإعلانية الذي يبدو متجهاً باستمرار إلى مزيد من التضخم بفعل دوره الكبير في الحياة التجارية والاستهلاكية، حتى بات يشكل جزءاً أساسياً من نسيج المدينة الحديثة وشكلاً من أشكال الهوية المميزة لبعضها الآخر.



أصبح الإعلان اليوم ثقافةً وفناً وصناعة مستقلة، وتنوَّعت وسائله وأساليبه بين إعلانات الصحف والجرائد والسينما والتلفزيون والإعلانات الخارجية ومواقع الإنترنت، ولو ألقينا نظرة على تاريخ صناعة الإعلانات لوجدنا أنه فن قديم، إذ يعود تاريخ استخدام الإنسان للإعلان إلى أكثر من 4000 سنة قبل الميلاد.

فقد كان المصريون القدماء والإغريق والرومان يستخدمون ورق البردي للإعلان عن البضائع، كما وجدت رسوم جدارية تمثل دعاية تجارية في أجزاء من آسيا وإفريقيا وأمريكا. وكان بعض الصنّاع يعلّقون أدوات مصنوعة من الخشب أو الحديد فوق محلهم وترمز لطبيعة عملهم كالحداد الذي كان يعلّق حدوة حصان وصانع الأحذية الذي يعلّق حذاءً. بل إن الطبيعة نفسها من حولنا ترينا من مظاهرها ما يشير إلى وجود الإعلان فيما حولنا، إذ طالما كان الإعلان دائماً وسيلة الطبيعة للتواصل مع مخلوقاتها قبل أن يصبح وسيلة التجار للربح التجاري، فهي مثلاً تستخدم الرائحة واللون وتغير سلوك مخلوقاتها لتعلمنا بوصول الربيع، والطاووس يعلن عن نفسه ليجذب شريكه من خلال التباهي بريشه وألوانه الزاهية، وكذلك طائر الوقواق يعلن من خلال صوته تودده لشريكه.



تولور لوترك وملصقاتهاالمسرحية

كما كان الإعلان الخارجي لدى العرب قديماً يتمثل في شخصية المنادي الذي يستخدمه الأمراء والحكام للإعلان عن قراراتهم وما يودون إعلانه للشعب، ثم أصبح التجار يستخدمونه للإعلان عن وصول سفنهم وبضائعهم. وقد انتقلت هذه العادة للغرب، ولم يأخذ الإعلان شكله الحقيقي حتى بداية عصر الطباعة في القرن الخامس عشر والسادس عشر حيث أصبح على شكل منشورات توزَّع باليد. فظهر عام 1477م أول إعلان يهدف إلى زيادة مبيعات كتاب، وفي القرن السابع عشر بدأ ظهور الإعلان في الجرائد.

ظهور الإعلان الخارجي

لكن الحاجة الملحة للإعلان ظهرت مع بداية الثورة الصناعية، وتدفق كميات كبيرة من البضائع. فكان لا بد من الترويج لها وتعريف المستهلكين بها عن طريق الإعلان. فظهرت بالإضافة إلى إعلانات الجرائد والملصقات الجدارية، أشكال أخرى من الإعلان كبالونات الهيليوم، وكتابة الإعلان على القطار ووسائل النقل العامة.

ومع بداية عام 1820م زاد انتشار الدعاية في الشوارع، وبالتالي ارتفعت رسوم الضرائب المفروضة عليها، وازداد التنافس على مساحات الملصقات، مما جعل المعلنين يبحثون عن أفكار وطرق جديدة لجذب انتباه المارة. ففكروا بجعل الدعاية متنقلة، بأن يرفع شخص لوحة إعلانية ويتنقل بها في الشوارع أو أن يرتدي الشخص الذي يعمل كلوحة إعلانية ملابس غريبة تحمل الرسالة التي يعلن عنها. فقد ارتدى أحدهم قبعة أطول بثلاث مرات من القبعات المعتادة في ذلك الوقت وكتب عليها «زوج من الأحذية بـ 12 فرنكاً». كما ظهر ما سمي بـ «سندويش اللوحة الإعلانية» وكانت عبارة عن قالب من الإعلان يلف الرجل به جسمه فيبدو فيه كسندويشة ليقرأ الناس الإعلان المكتوب حوله. وما زالت هذه الطريقة موجودة حتى الآن، فنجد الكثير من رجال الإعلان بزيهم الغريب يتنقلون في شوارع ويستمنستر حيث منعت اللوحات الإعلانية الكبيرة.

وهكذا بدأ الإعلان يُعد الوجه الآخر للنمو الاقتصادي، ويشكِّل دعماً كبيراً للاقتصاد الوطني بشرط ألا يكون مضللاً للمستهلك فيفقد صدقيته. وفي عام 1841م ظهرت أولى وكالة دعاية وإعلان في بوسطن، أسسها فولني بالمير. ومن ثم، ومع انتشار المحطات الإذاعية في أعوام 1920م أصبحت الإذاعة وسيلة إعلان وسرعان ما لحق بها التلفزيون في مطلع الأربعينيات.

خصوصية اللوحة الإعلانية

ومع بداية الستينيات من القرن العشرين، بدأت صناعة الإعلان تنحو منحى جديداً، إذ لم تعد الدعاية البسيطة المباشرة تكفي لإثارة انتباه المستهلكين، لهذا بدأ البحث عن أفضل المواهب والأفكار الإبداعية الجديدة.

وأصبحت الدعاية فناً بحد ذاته، حيث تقوم شركات الإعلان بدراسة المنتج دراسة وافية وتصميم شعار له وعلامة تجارية خاصة به، وإعداد حملة إعلانية للترويج له. ففي إعلانات التلفزيون أو الراديو قد يتاح للمصمم مساحة تعبير أكبر في استخدام الصورة والصوت والحركة والألوان لجذب انتباه المستهلك، بينما في الإعلانات الخارجية فهي تُعد تحدياً حقيقياً لمصمم الإعلان حيث إن المشاهد يكون متحركاً، وغالباً مستعجلاً، لذا يجب أن تكون الفكرة مختصرة ومقدَّمة بشكل واضح يحقق التأثير المطلوب. ومن مميزات الإعلان الخارجي انخفاض تكلفته مقارنة ببقية أنواع الإعلان، وبهذا يتمكن أصحاب الشركات والأعمال المتوسطة والصغيرة من إيجاد فرص للإعلان من دون تكاليف باهظة.

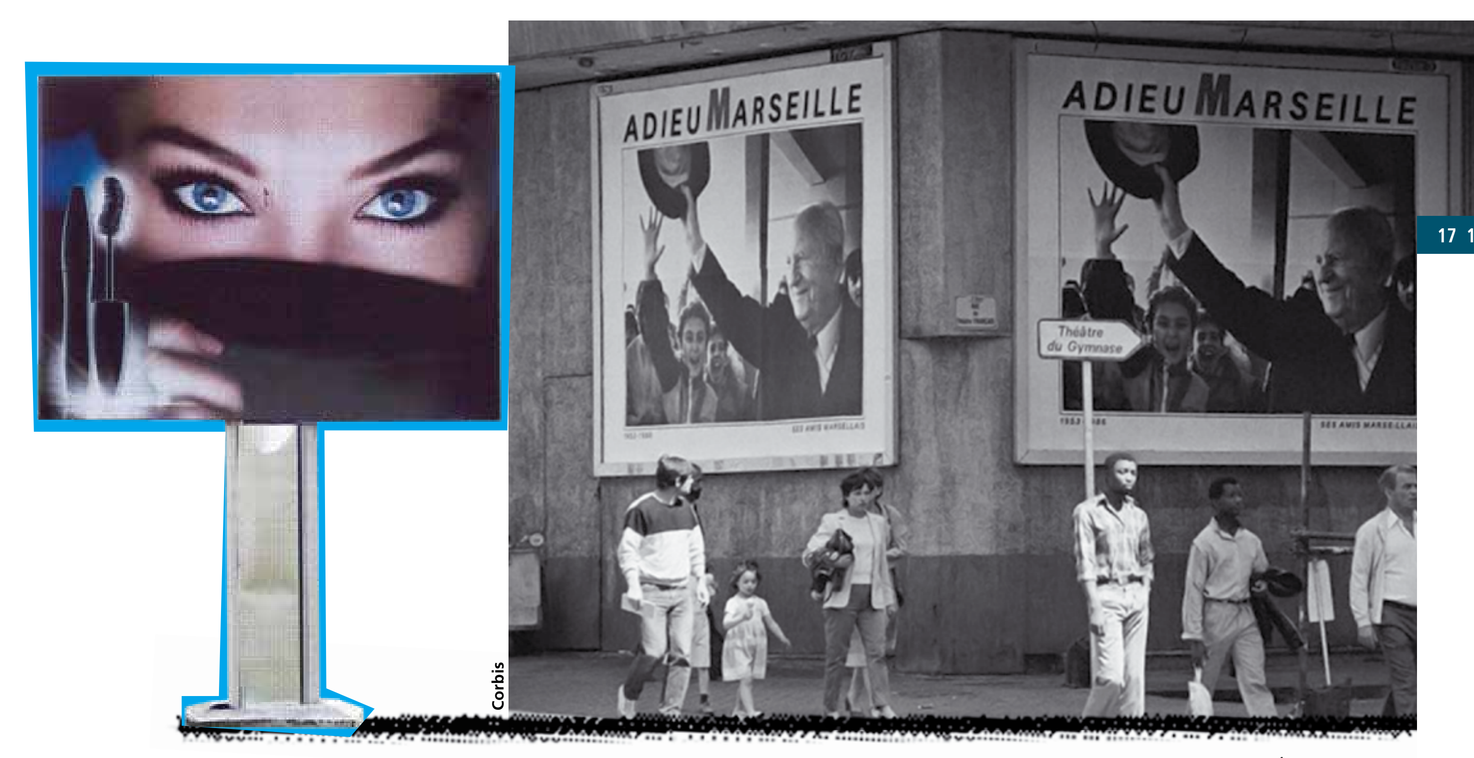
الإعلان التجاري يسيطر تماماً على المشهد البصري لمدن العالم، حتى بتنا لا نلاحظه ولا نلتفت إليه

وفضلاً عن أهمية الملصق التجارية، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفن الرسم. وكان من رواده وأساتذته في أوروبا جول دي شاريت وتولوز لوتريك اللذين كانا يرسمان الملصقات للمسرح والسيرك وأغلفة الكتب وعبوات زجاجات العطور. وكذلك قدم بابلو بيكاسو الكثير من الأعمال المميزة في فن الملصق حيث كان حوالي العام 1946م ولمدة عدة أشهر يتردد على شارع دي شابرول ويعمل يومياً كأي مصمم للطباعة الحجرية.

في الوقت الحاضر، انتشرت وكالات الإعلان المتخصصة. وراحت تتنافس في ابتكار الأفكار والوسائل الإعلانية الجديدة. فإضافة إلى الملصقات واللوحات الإعلانية تقوم بعض شركات الإعلان بتحويل شعار الشركة أو العلامة التجارية إلى تصميم ثلاثي الأبعاد على أي سطح كالأرضيات أو العشب في سهل أو حقل أو منحدر أو أرضية ملعب أو شاطئ البحر. وبعد نهاية الحملة يتم إزالة الإعلان دون أن يضر بالبيئة أو يترك أي أثر. وقد لاقى هذا النوع من الإعلانات رواجاً كبيراً لغرابة الفكرة وجاذبية التصميم، فقامت الصحف بنقل هذه الصور وانتشرت كذلك عبر الإنترنت من خلال هواتف المارة الذين كانوا يلتقطون الصور لها مما جعلها وسيلة فعالة تخلّف الدهشة والإثارة حول المنتج وتحقق له حملة إعلانية ناجحة.



بين الأمس واليوم.. مزيد من صخب الألوان



فوق رؤوس المارة أينما كان

السيطرة الكاملة على المشهد البصري للمدن

لا يتوقف الأمر على اللوحات الإعلانية ورسوم الجدران والأرضيات، بل إن تقنيات الدعاية المعاصرة جعلت من الممكن تحويل السيارات والقطارات والشاحنات والحافلات والطائرات إلى لوحات إعلانية متنقلة. وقد جاء في نشرة لإحدى شركات الإعلان تعرف بطبيعة عملها: «هل تعتقد حقاً أن الأرصفة والشوارع وجدت فقط للمشي؟ وأن النوافذ وجدت فقط للنظر من خلالها؟ والأبنية وجدت فقط للعيش والعمل فيها؟ والشاحنات لنقل الحمولات فقط؟ وأن وسائل النقل العامة وجدت لنقل الركاب من مكان لآخر فقط؟».

وهذا ما يشير إلى أن ظاهرة الإعلانات اليوم باتت تغطي كل مكان، وأصبح من الصعب إيجاد أية مساحة فارغة لا تشغلها الإعلانات. بل إن عدم استغلال هذه المساحة أصبح يُعد نوعاً من السذاجة وإضاعة فرصة لتحقيق الربح. فهذه الوسائل، إضافة لوظيفتها الأساسية في نقل البضائع والركاب، باتت تحمل رسالة وتحقق مبيعات وأرباحاً.

لقد سيطر الإعلان تماماً على المشهد البصري لمدن العالم. وأصبح ظاهرة بصرية عالمية، لدرجة أننا قد لا نلاحظها أحياناً ولا نلتفت لها. في طوكيو مثلاً من الممكن جداً أن ترى شاحنات كبيرة من دون أية حمولة تتجوَّل في المدينة بهدف عرض الإعلان الملصق على جانبيها فقط. كما تستهدف اللوحات الإعلانية والملصقات مواقف الحافلات ومحطات القطار باعتبارها الأماكن الوحيدة التي يقف الناس فيها من دون فعل شيء، سوى الانتظار. وبهذا يكون لديهم متسع من الوقت لقراءة الإعلان. لهذا تكون هذه الأماكن مغطاة تماماً بالإعلانات، بل أصبح الإعلان يمثل شخصية بصرية لهذه الأماكن.

شروط اللوحة الإعلانية

يجب أن يتوافر في اللوحة الإعلانية عدة شروط لتتمكن من إيصال رسالتها للمتلقي. فهي موجهة إلى المستهلك المار في الشارع، وعليها أن تلفت انتباهه خلال بضع دقائق أو أثناء مروره على طريق عام أو شارع مزدحم، وتخلِّف لديه انطباعاً قوياً يجعله يفكر بها. لهذا يجب أن تكون الكلمات واضحة وموجزة وألوانها متناسقة وأحياناً قد تغني الصورة المعبرة عن الكلمات، حتى إن «الحكمة» الغالية على قلوب كثيرين وتقول «إن الصورة تُغني عن ألف كلمة» ظهرت أساساً من تقييم نوعية الإعلان على السيارات في أمريكا خلال النصف الأول من القرن العشرين.

كما يجب أن يراعى اختيار مكان اللوحة على الطريق، فلا توضع في اتجاه معاكس للمرور، وعلى التركيز على انتشارها في الطرق العامة الخالية أن يكون مفيداً للسائقين بحيث تدلهم على مراكز الطعام والوقود.

محاذير موضع خلاف

في أوروبا تُعد اللوحات الإعلانية عنصراً أساسياً يشكل المظهر العام للمدن ومصدر دخل مهم للبلديات والحكومات. وقد قدر الإنفاق على الإعلان عام 2007م بحوالي 150 مليار دولار في الولايات المتحدة الأمريكية، و385 مليار دولار في بقية أنحاء العالم. ففي أمريكا كان

هنـاك ما يقارب 450000 لوحة إعلانية على الطرق العامة فقط في سنة 1991م. وقد اشتكت بعض الجماعات من تلك اللوحات لما تسببه من إزالة مفرطة للأشجار وتتطفل على المناظر الطبيعية المحيطـة، إضافة إلى ألوانها الصاخبة وإنارتهـا التـي قـد تشتت انتبـاه السائق مما يشـكل خطراً علـى السلامـة العامـة. ولكن فـي المقابل، كان هنـاك جماعة أخرى تـرى أن اللوحات الإعلانيـة تسهـم بشـكل كبير فـي تشكيل الثقافـة الجمالية وتوفير شعـور بالاكتمال والرضـا لدى المستهلك من خلال ما توفره من بضائع وخدمات.



مدن العالم تتجه إلى اعتماد مزيد من الضوابط والمعايير، وساوباولو البرازيلية تتخلص من الإعلانات تماماً

وقـد بدأت منـذ عـام 1909م المحاولات في عدد من الولايات لوضع قوانين حظر وضبط لعمليـة انتشـار اللوحات الإعلانيـة. وفي عـام 1971م وضع قانون لحظر الإعلانات التي يمكن أن تهدِّد السلامة المرورية وتشوِّش انتبـاه السائق ولكن سرعان ما ألغي في عام 1981م لأنه يحظر اللوحات التجارية وغير التجارية على حد سواء.

ورغـم الاتهامات الموجَّهـة إلى اللوحـات الإعلانية، أثبتت دراسـة قام بها باحثون فـي جامعة كارولينا عام 2001م أن بعض العناصر فـي السيارة كالإذاعـة واللوحات الإعلانية والتحكم في درجـة الحرارة لا تُعد من الأمور المشتِّتة. كما قـام خبراء السلامـة المرورية بدراسـة العلاقة بين وجود الإعلانـات الخارجية والحوادث المروريـة التي وقعت منذ عـام 1950م فلم يجدوا أي دليل علمي موثوق يثبت أن لهذه اللوحات أية علاقة بالحوادث المرورية. إلا أنه تم التشكيك بمصداقيـة نتائج هذه الدراسـات، واتهامها بالتحيز كونها ممولة من قبل وكالة الدعاية الخارجية الأمريكية.

ومـن جهة ثانيـة تؤكـد إحصـاءات وزارة النقـل وشركات التأميـن في الولايـات المتحدة التي تقـوم بدراسة مفصلة لحـوادث المـرور عـدم وجـود أية علاقـة بيـن الإعلانات والحوادث المرورية. بل على العكس، تُعد اللوحات الإعلانية في المناطق النائية مصدر إنارة وأمان لسائقي الدرَّاجات، وتساعد على تبديد الملل لدى السائق. وبهذا تكون مساهمة في توفير المزيد من السلامة المرورية على الطرق العامة. ولهـذا أعلنـت وزارة الطرق العامة الفيدراليـة أن اللوحات النظاميـة لا تشـكِّل أي خطـر علـى السلامـة المروريـة، شـرط أن تحدد معايير متفق عليهـا بين حكومات الولايات حول حجـم وإضاءة ومساحة اللوحـات الإعلانية المسموح بهـا، وتعيّن مناطـق محددة لها. وتمنـع الحكومة عن إزالة اللوحات المخالفة دون دفع تعويض للمالك.

ورغـم وجود هذه المعاييـر والأنظمة التـي تحد اللوحات الإعلانيـة النظامية إلا أن وجودهـا ما زال موضوع نقاش

إعلانات تطمس المعالم الهندسية للمباني

Corbis

حاد من قبل خبراء سلامة الطرق حول العالم. وكمحاولة من بعض المدن للحد من التلوث البصري الذي يمكن أن يسببه الانتشار الكبير للإعلانات، قامت مدينة أثينا في عام 2000م بحملة استمرت سنوات أربع لإزالة اللوحات الإعلانية التي كانت تغطي تماماً سطوح المنازل والأبنية وتشوه المعالم الهندسية المميزة فيها، وكانت تُعد مخالفة للقوانين ولكن تم تجاهلها، إلى أن بدأ التحضير لأولمبياد صيف 2004م. فكانت هذه الحملة الناجحة من ضمن التحضيرات لتجميل المدينة وتحسين مظهرها أمام السياح القادمين لحضور الألعاب الأولمبية رغم اعتراض المعلنين ومالكي الأبنية.

«رغم معرفتنا أن اللوحات الإعلانية تسهم في التلوث البصري وتشوِّه جمال المدينة، إلا أننا لا نزيلها لأنها حاجة اقتصادية»

أما في مدينة سان باولو في البرازيل، فقد فرض عام 2007م حظر للوحات الإعلانية لعدم وجود نظام قابل للتطبيق يخص صناعة اللوحات الإعلانية. ويتم العمل حالياً مع شركات خارجية لإعادة بناء الهيكل العام الخارجي للمدينة، ووضع القيود والضوابط التي تنظم هذه اللوحات، وتحد من نموها العشوائي.

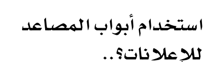
وفي بريطانيا يتم ضبط انتشار اللوحات الإعلانية كجزء من نظام التخطيط. ويُعد وجود أي إعلان مخالف لم يحصل على موافقة من سلطة التخطيط مخالفة للقانون يدفع مرتكبها غرامة تقدر بـ 2500 جنيه لكل ملصق. وكذلك الحال في مدينة تورنتو في كندا حيث فرضت ضريبة محلية على لوحات الإعلان في أبريل 2010م يذهب جزء منها لتمويل برامج الفنون الجميلة.

فوضى الإعلانات في المدن العربية

بينما ما زالت المدن العربية تعاني من فوضى الإعلانات التجارية وعشوائية اللوحات الإعلانية والملصقات، التي تسبِّب تلوثاً بصرياً شديداً يتمثل في غياب التوحيد والانسجام للافتات أسماء الشوارع والعناوين بالمدينة، وتداخل الإعلانات التجارية والاحتفالية والإرشادية، وفقدان الرسالة الإعلامية الخبرية، مع حجب الرؤية البصرية للمعالم التاريخية أو المعمارية أو الجمالية، وإهمال تجديدها والعناية بنظافتها وسلامتها، وتجاهل إزالة بعض اللوحات والبانرات والإعلانات عن أوجه نشاط واحتفاليات قامت بها مدينة ما وقد تمر شهور على نهاية هذه الاحتفاليات دون أن تزال هذه الإعلانات المنتهية الصلاحية، مما يسبب فوضى وتلوثاً بصرياً وتشويهاً للوجه الجمالي للمدينة.

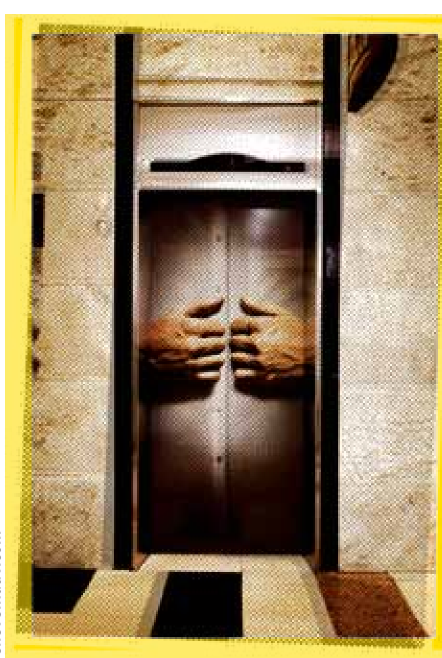
ففي سوريا مثلاً ولمناسبة احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية أزيلت 100000 لوحة إعلانية من شوارع دمشق القديمة. إلا أنه لا يزال هناك الكثير من المخالفات والتشويه لوجه المدينة ومعالمها الأثرية.

وقد حاول مدير الإعلانات بالمؤسسة العربية للإعلان تبرير ذلك قائلاً: «رغم معرفتنا بأن اللوحات الإعلانية الموجودة في دمشق تسهم في التلوث البصري وبالتالي عدم إظهار جمالية المدينة وتشويه معالمها، إلا أننا لا نستطيع منعها. فالإعلان حاجة اقتصادية لا أحد يستطيع الاستغناء عنها، لا المستهلك ولا المنتج. ولمعالجة هذه الظاهرة سمحنا فقط بوضع لوحات ذات خصائص فنية عالية، وذلك على أساس معايير حددتها اللجان الإعلانية


استخدام أبواب المصاعد للإعلانات؟..





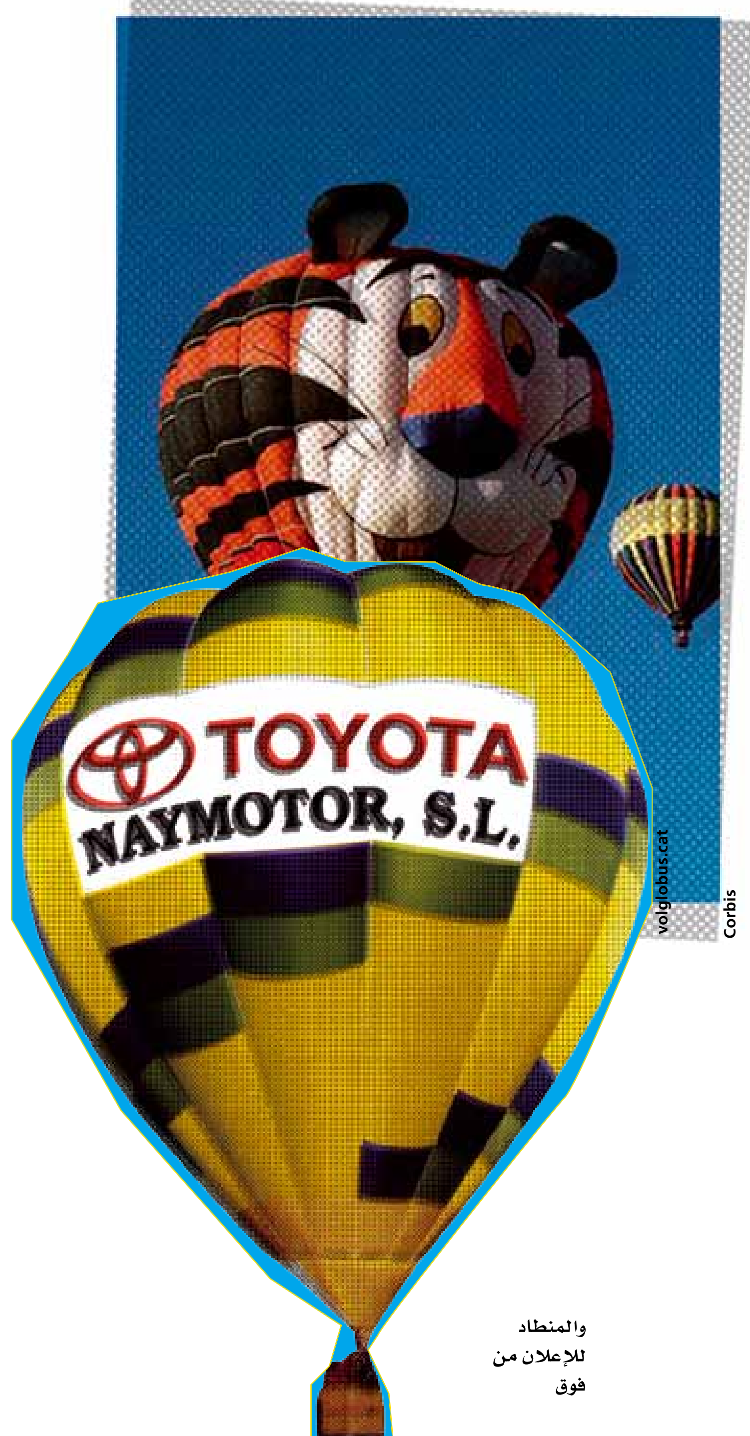


ibelieveinadv.com

المشكَّلة من فنانين تشكيليين وأعضاء من محافظة دمشق والمتمثلة في وضع معيار جمالي يحقق السلامة العامة. فمثلاً يجب ألاَّ تعوق اللوحات السير أو المشاة أو تؤدي إلى حوادث. ولذلك قمنا بإزالة أعداد كبيرة منها على الطرقات العامة، وأبقينا تلك التي تتمتع بالمظهر الجمالي والقيمة الفنية العالية. أما في مراكز المدينة مثل الصالحية وشارع العابد، فقد عوضنا عن اللوحات بأخرى وضعت على الأرصفة للدلالة. وقمنا بحملات إعلانية في التلفزيون والجرائد والإذاعات لتوعية الناس من مضار هذا التلوث، وفرضنا غرامات على أصحاب اللوحات الإعلانية المبعثرة عشوائياً. ولم يكن القصد من الغرامة هو العقوبة، بل تنبيه الناس إلى أن ما يفعلونه هو من المحرمات القانونية لما له من أضرار على البلاد».

وفي الأردن، ورغم المطالبة بإزالة اللافتات الإعلانية التي تغطي البنايات والجدران وتشوه جمال عمّان، فإن الشركات الإعلانية رفضت إزالتها بحجة أن ذلك يسبب خسائر فادحة لها، وأن التطورات الاقتصادية التي تشهدها المملكة تفرض وجود هذه الإعلانات.

أما في المملكة، فيُعد الوضع أفضل حالاً مما هو عليه في معظم البلدان العربية. ففي الرياض مثلاً تمت إزالة اللوحات الإعلانية التي تسبب تلوثاً بصرياً وتُعد مخالفة أو غير مطابقة للمواصفات التي أعدتها وزارة الشؤون البلدية والقروية. كما تُعد مدينة الخبر حالة نموذجية لواحد من أكثر أشكال توزيع اللوحات الإعلانية تنظيماً. إذ إن معظمها يحتل مساحات مؤطرة وموحدة على أعمدة الإنارة في الشوارع الكبرى ذات مساحة معقولة، تسمح بفعل تكرارها بإيصال رسالتها إلى المارة في الشوارع وذات مقاييس معتدلة لا تعوق أنظار السائقين ولا مشاهدة معالم الشوارع. في حين أن اللوحات الإعلانية العملاقة تأخذ شكل أسوار تحيط بالأراضي غير المبنية فلا تحجب رؤية أي شيء يستحق الرؤية. أما المشكلة الوحيدة التي يواجهها بعض هذه اللوحات، وخاصة تلك المتعلِّقة بمناسبات محددة، فهي



volglobus.cat
Corbis

والمنطاد للإعلان من فوق



speedpronj.com

.. والحافلات أصبحت صناديق إعلانية جوالة



سويسرا.. الطريق الخالي من الإعلانات

بقاؤها طويلاً في الشوارع بعد المناسبة وكأنها منسية، أو كأن من علّقها غير مسؤول عن نزعها بعد انتهاء المناسبة.

وحال اللوحات الإعلانية في مدن المملكة هو نفسه بتنظيمه وإيجابياته وسلبياته المحدودة ينطبق على حالها في معظم دول الجوار الخليجي، حيث بلغ التنظيم المدني مكانة مهمة، ويحظى باهتمام كبير من المسؤولين عن البلديات.

عاملان لا بد من أخذهما بعين الاعتبار.. الجانب الجمالي والذوق العام من جهة، والمحاذير على مستوى سلامة حركة المرور

وفي مصر، تحوَّلت القاهرة إلى معرض دائم للوحات الإعلان والملصقات. لهذا عمل المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية على وضع أسس ومعايير التنسيق الحضاري للإعلانات واللافتات لعام 2008م بما يحقق المتطلبات المرورية والعمرانية والبصرية. وتشمل الأهداف العامة للدليل الأسس التالية: «تصحيح الصورة البصرية والمحافظة على جماليات المدينة، وضع أسس وقواعد تقنن علاقة الإعلانات واللافتات بحرم الطريق والمجال العمرانى المباشر له، تحديد المسافات البينية للإعلانات واللافتات باختلاف أنواعها ورسالتها الإعلانية أو الإرشادية أو التوجيهية، تحديد مواضع الإعلانات واللافتات فى حرم الطريق ومجاله والبيئة المحيطة، وضع القواعد المعيارية لمقاسات وأحجام وأشكال كافة الإعلانات واللافتات، وزوايا الرؤية واتجاهات الحركة الآلية والمشاة، تحقيق السلامة منعاً للحوادث والمخاطر الممكنة، ضمان توافق تصميم الإعلانات واللافتات مع البيئة العمرانية، وضع الاشتراطات المنظمة لنوعية ومستويات الإعلانات واللافتات، وضع ضوابط لعدم نمو عشوائيات الإعلانات واللافتات في المدن، وما ينتج عنها من تلوث بصري وجمالي وعمراني للبيئة». ولكن رغم هذا، وربما لتراخٍ في تطبيق هذا الدليل، ما زالت القاهرة تعج باللوحات الإعلانية، وبشكل لا يختلف كثيراً عما كان عليه الحال قبله.

حالة قصوى

وتتجلى مظاهر قضية اللوحات الإعلانية بأوضح صورها، وبكل سلبياتها وإيجابياتها في أماكن محددة أكثر من غيرها، ومنها لبنان مثلاً. ففي بيروت وعلى طول الطريق السريع الواصل ما بين العاصمة والمدن الرئيسة، تبدو جنبات الطريق وكأنها غابة من الصور العملاقة التي يختلط فيها كل شيء بدءاً من الترويج للملابس والعطور والجواهر وصولاً إلى الدعاية السياسية للانتخابات وتكريم الشهداء.

وعلى الرغم من الجهود الموسمية التي تبذلها الحكومة والبلديات لضبط هذه الصناعة الضخمة، والتي تسفر عن إزالة بعض هذه اللوحات من حين إلى آخر، فإن أضعافها يقوم لاحقاً مستفيداً إما من لي ذراع القانون وتفسيراته، وإما من طغيان اهتمام عام بقضية أخرى غير قضية الإعلانات في الشوارع. بحيث استباح المعلنون كل أعمدة الإنارة على طولها، وجدران الأبنية المجاورة وكل مساحة غير مبنية يمكنهم أن ينصبوا فوقها لوحة معدنية تؤجّر للمعلنين المختلفين تباعاً.

وعلى الرغم من عدم توافر أرقام دقيقة عن حجم صناعة الإعلان في لبنان، فمن المرجح أنها ضخمة جداً، وعلى الأرجح هي الأكبر عربياً مقارنة بعدد السكان، وبإجمالي الناتج الوطني. ومن ثمار ازدهار هذه الصناعة التي يعمل فيها الألوف من المصممين والعمال والموزعين (غير المنتج والمستهلك) هو بلوغ فن التصميم فيها مستوىً رفيعاً، بات ينتزع اعتراف الجميع بجدواه. حتى أن العقد الأخير شهد تحول الإعلان السياسي من عهدة الأحزاب إلى عهدة وكالات التصميم التي صارت تنتج الملصقات الانتخابية وشعارات الأحزاب وملصقات المناسبات.

ختاماً، أصبح مظهر المدن اليوم محكوماً بالطريقة التي تسوق من خلالها لنفسها الثقافة التجارية السائدة. وعلى المسؤولين عن المدن أن يتمكنوا من ضبط عملية انتشار هذه الإعلانات وتنظيمها والنهوض بها إلى مستوى جمالي يرتفع بذائقة المشاهد ويحسن من مظهر المدينة بدل تشويهها. فالإعلان الخارجي أخطر من إعلان التلفاز أو الصحف، إذ يمكنك ألاَّ تشاهد الأول أو أن لا تقرأ الثاني. بينما لا يمكنك تجاهل الإعلان الخارجي الذي يفرض وجوده شئت أم أبيت.

أهمية محتوى اللوحة وحصيلة مجموعة اللوحات

هل هناك قاعدة عامة يمكن لفرض تطبيقها أن يؤسس إلى تقييم دقيق للإعلانات في الشوارع، فيساعد على التخلص من سلبياتها ويبقي على إيجابياتها؟ لو أخذنا حالة العاصمة اليونانية أثينا التي ورد ذكرها في متن هذا المقال، وحيث توجب إزالة مئة ألف لوحة إعلانية لتحسين مظهر المدينة عشية الألعاب الأولمبية، لوجدنا أن كثرة هذه الإعلانات كانت سلبية، وتشوِّه منظر المدينة ومعالمها الأثرية والتاريخية. ولكن ماذا لو أزلنا مئة ألف لوحة إعلانية من مدينة لاس فيغاس الأمريكية؟ هل سيبقى منها ما يميزها كثيراً عن صحراء نيفادا المحيطة بها؟ ونحن نعرف أن صخب هذه اللوحات بأضوائها التي لا تعد ولا تحصى بات يشكِّل البطاقة البريدية السياحية لهذه المدينة. تماماً كما تشكِّل صور الإعلانات الضخمة هوية «تايمز سكوير» في نيويورك ورمزاً للمدينة بأسرها.

مما لا شك فيه أن الإعلانات في الشوارع سواءً أكانت ملصقات ورقية أم مضيئة أم رقمية على شاشات عملاقة باتت جزءاً من نسيج المدينة الحديثة. ولو قارناها بالحدائق العامة (التي هي من نسيج المدن نفسها) لوجدنا أن هذه الأخيرة تقام بجهد كبير كواجب وكضرورة، في حين أن الإعلانات تفرض نفسها فرضاً لدواعٍ اقتصادية وتجارية وأيضاً ثقافية واجتماعية. وتميل إلى إعادة الظهور والنمو حتى ولو تم اقتلاعها من مكان ما، وأحياناً لبعض الوقت فقط.. فالمسألة إذن لا تخضع لقاعدة عامة، وتبقى مرتبطة بحالة كل مدينة على حدة، بخصوصيتها العمرانية وتخطيطها واهتمامات سكانها وغير ذلك.. وفي الحالة اللبنانية التي أشير إليها في متن المقال، يمكن القول إن كثرة الإعلانات في الشوارع، رغم سلبياتها الكثيرة التي تواجه بالنقد، باتت تشكِّل جزءاً من معالم المدن والمساحات والطرق الواصلة ما بينها. ولهذا يمكن للبعض، وخاصة السياح أن يتطلعوا إليها باهتمام، وربما بشيء من الإعجاب أيضاً.

أما النقطة الثانية التي تستدعي التوقف أمامها فتتعلق بمحتوى اللوحة. فهذا المحتوى موجه إلى الجمهور العام، أي إلى كل شرائح المجتمع. ومثل هذا التوجه يفرض مستوى عالياً من الجدية في التعامل مع اللوحة عند إنتاجها.

صحيح أن الكل يعلم أهمية العناصر التصميمية. ولكن قلة تنتبه إلى أن خطأ بسيطاً في التعبير النصي أو التصويري يمكنه أن يؤدي إلى نتائج عكسية تماماً، فيثير النقد والسخرية والنفور مما يفترض للإعلان أن يروج له. أما سباق الفنانين إلى التميز عن نظرائهم، واعتبارهم أن كل الوسائل مقبولة طالما أن الغاية هي لفت النظر، فيمكنها أن تؤدي إلى الوقوع في فخ الفشل نفسه. ففي أمريكا تعرَّض معلنون للمقاضاة لأن إعلاناتهم كانت تتضمن تلميحات ذات طابع عنصري مثلاً. وفي لبنان أيضاً، تصدَّى رجال الدين والمسؤولون أكثر من مرة لإعلانات مسيئة إلى الآداب العامة.

وكما هو الحال بالنسبة إلى كل إعلان ووجوب تقييمه على حدة، فإن حال مجموعة الإعلانات في مدينة ما، لا تقيَّم إلا وفق شخصية هذه المدينة وهويتها.



قول في مقال

القراءة الرقمية..
لماذا تُبقينا على السطح؟

تصاعد الحديث في الآونة الأخيرة عن تأثير الإنترنت والتقنية الحديثة على أنماط الحياة اليومية، وعلى تشكيل الثقافة والمعرفة، بل وحتي على طريقة تفكيرنا، ويجد المتابع لهذا الموضوع قلقاً من التأثيرات السلبية للإنترنت موجوداً عند قطاع عريض من متابعي ومستخدمي الإنترنت. **فهد الحازمي** يرى أن القضية تتجاوز في أبعادها العميقة، الآثار السلبية المباشرة التي تستوقف معظم المراقبين.

اعتبرت الإنترنت في السابق مجرد وسيلة، سواء للتعليم أو الترفيه أو ما سوى ذلك. وفي الواقع، إن ما نريد أن نثبته خلال هذه المقالة هو أن الإنترنت لم تعد وسيلة نستخدمها -فحسب- بل إنها أصبحت تمارس تأثيراً بالغاً على تفكيرنا، وتعيد برمجة عقولنا بحيث تصبح متلائمة مع سلوكياتنا الجديدة. إذ اتخذ هذا التأثير، الذي سنتطرق إليه في هذه المقالة، مسارين: التأثير على أسلوب تلقينا ومعالجتنا للمعلومات، والتأثير على أسلوب إنتاج هذه المعلومات والتفاعل معها.

الأعراض

الإنترنت يؤثر حتماً على عقولنا، أو بدقة أكثر، فإن سلوكياتنا اليومية على الإنترنت هي التي تمارس هذا التأثير. وهي تمارسه عبر تعزيز نماذج ذهنية محددة، من خلالها نتعامل مع العالم الخارجي. وقبل أن نوضح كيف تمارس هذه السلوكيات هذا التأثير، لنتحدث قليلاً عن هذه السلوكيات. إذ يمكن أن نقول إن هناك مَلمحين رئيسين يشكلان أساس سلوكنا اليومي على الإنترنت، هما: ضعف التركيز، والبقاء على السطح.

بالنسبة إلى ضعف التركيز، نذكر أنه بالكاد يستطيع القارئ إكمال قراءة مقالة طويلة دفعة واحدة من دون أدنى أي تشتيت، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث من قبل حينما كنا نقرأ الكتب الورقية. بل إن تركيز القارئ سريعاً ما ينفد بعد صفحات أو حتى فقرات قليلة، ليعود إلى عالمه الخاص. فإما أن يطالع تحديثات «الفيس بوك»، أو تحديثات «تويتر» أو موقع اليوتيوب -أو أي نشاط آخر- ويقضي معها قليلاً من الوقت قبل أن يعود إلى مواصلة القراءة. إنها المقدرة على الصبر في القراءة، حيث -وبشكل حاد- تقلصت المدة التي نستطيع التركيز فيها. ولذا، ويوماً بعد يوم، تزداد صعوبة هضم المواد الطويلة والثقيلة. ونتيجة لكل هذا، تحول أغلب الاستهلاك المعلوماتي إلى معلومات صغيرة، خفيفة، سريعة، ملونة، بما يتناسب مع طبيعة القدرات الذهنية في تلقي المعلومات ومعالجتها، والتي تحولت بفعل الإنترنت.

وأما بالنسبة للمشكلة الأخرى، والتي قد ترتبط بضعف التركيز، فهي فقدان المقدرة على الدخول في العمق، حيث تشعر بأنك تبقى دائماً وأبداً على السطح. سطح كل شيء من معلومات أو أخبار أو مقالات. فالمتعة والإثارة والفائدة موجودة في كل مكان على الشبكة، لكنها -كما يصف المدون علاء المكتوم- في كل اتجاه أيضاً، فإن كنت تلاحق كل شيء فإنك لن تمسك بشيء أبداً.

ما وراء الأعراض

السؤال المطروح الآن هو حول طبيعة تأثير تلك النماذج الذهنية على علاقتنا بالعالم الخارجي؟ بصيغة أخرى، ماهو أثر السلوكيات اليومية على الإنترنت على عقولنا وتفكيرنا؟ سأقوم باستعراض هذا التأثير مجيباً عن سؤالين رئيسين: ما أثر الإنترنت على عقولنا كأدوات لاستقبال المعلومات ومعالجتها؟ ما أثرها على طريقة إنتاج هذه المعلومات؟

ولنبدأ بالسؤال الأول وهو عن أثر الإنترنت على سلوكنا في استقبال المعلومات ومعالجتها. نحن هنا أمام إشكالين سنتعرَّض لهما على التوالي: الأول هو في تحليل عمل أذهاننا أثناء القراءة على الإنترنت وأثرها في

تفكيرنا، والثاني هو في علاقة هذه القراءة بأسلوب تلقينا للمعلومات.

بالنسبة لتحليل عمل أذهاننا أثناء القراءة على الإنترنت، فقد ذكرنا في موضع سابق بأن التركيز الطويل على القراءة يزداد صعوبة مع زيادة الاستخدام اليومي للإنترنت. واحدة من ضمن التفسيرات لهذه الظاهرة، هو أن هذا عائد إلى انشغال ذهن متصفح الإنترنت بصناعة قرارات كثيرة بشكل سريع وعشوائي. النقر على هذا الرابط، الاستماع إلى ذاك المقطع، الرد على فلان، زيارة الموقع الفلاني.. وهكذا. واتخاذ القرارات هذه يتم تحت ضغط عاملي السرعة والعشوائية، بحيث تتهاوى في نفس الوقت القدرة على تقييم أغلب المعلومات والمواد التي نستقبلها من الإنترنت، لنصبح مستهلكين سطحيين مهووسين بالأشكال، غير مبالين بقيمة تلك المعلومات. وهذا خلاف الأمر الذي يحصل مع قارئ الكتاب والذي يبقى صافي الذهن منهمكاً في استخلاص المهم أثناء قراءته (ولا يوجد ما يشغله غير ذلك).

في ظل هذا التفسير، هل نحن قادرون على القراءة العميقة، وبالتالي قادرون على التفكير ومعالجة المعلومات بشكل عميق؟ هذا ما تحاول الإجابة عنه السيدة ماريانا وولف، والتي تعتقد أننا حين نقرأ على الإنترنت، فإننا نميل إلى أن نترجم ما نقرأه لأذهاننا فحسب، بما يعني أن قدرتنا على تحويل ما نقرأه إلى مادة ثرية مندمجة في روابطنا العقلية تظل محدودة جداً. خلاف الأمر الذي يحصل حينما نقرأ كتاباً بعمق ومن دون تشتيت. وتضيف وولف «القراءة العميقة لا يمكن أن تنفصل عن التفكير العميق».. وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى قدرتنا على استقبال ومعالجة المعلومات.

بالنسبة لعلاقة هذا اللون من القراءة بأسلوب تلقينا للمعلومات ومعالجتها، فهذا التأثير على عقولنا جعلنا نتوق لأن نستقبل كل المعلومات كما تعطينا إياها الإنترنت، أو كما نستقبلها منها. معلومات سريعة تأتينا بطريقة سريعة، وتتدفق باستمرار.. وهكذا نصبح مثل متزلج يتزلج على سطح بحر المعرفة بشكل «يبدو مثيراً».. بعد أن اعتاد على الغوص في نفس البحر!

ونحن -كمستخدمين عاديين- لسنا الوحيدين الذين تغيرت طريقة تلقيهم للمعلومات، بل حتى الباحثين في أروقة الجامعات تغيرت أساليبهم في التعامل مع المعلومات متأثرة بالإنترنت!. ففي دراسة لجامعة كلية لندن عن عادات البحث على الإنترنت، استغرقت سنوات خمس، قام العلماء باختبار عادات الباحثين الذين يزورون موقعي بحوث مشهورين. في النهاية، كتب القائمون على هذه الدراسة ما معناه: «إنه من الواضح أن المستخدمين لا يقرأون في الإنترنت كما يقرأون قراءة تقليدية، وبكل تأكيد هناك إشارات على أشكال جديدة من القراءة تنشأ مع ظاهرة التصفح السطحي للعناوين وفهرس المحتويات وملخصات البحوث لتحقيق إنجازات وهمية عاجلة. إنهم في الغالب كما يبدو، يلجأون للإنترنت لكي يتجنبوا القراءة بالشكل التقليدي».

السؤال الآخر كان عن طريقة إنتاج المعلومات والتفاعل معها، وأثر الإنترنت فيها. فللإنترنت أثر في تعزيز التفكير الجمعي والاستجابة له. وسنشير إلى دراستين إشارة سريعة فحسب. فقد أجريت دراسة من قبَل المعهد الأمريكي الوطني للاضطرابات العصبية والسكتات الدماغية تقول إن تعددية المهام في الإنترنت تجعل الناس أكثر اعتماداً على الأفكار والحلول المتاحة على الطاولة للنقاش، بدلاً من أن يخوضوا التحدي ويبتكروا طرق تفكير جديدة. كما أجرت جامعة شيكاغو دراسة أظهرت أن الأوراق والبحوث الأكاديمية بدأت تشير إلى مصادر ورقية أقل، بعد أن توافرت المنشورات على الإنترنت.

نظرة أخرى

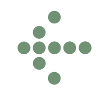
هناك دلائل حديثة جداً تشير إلى تحول في التعاطي مع المعلومات على الوجه الذي ذكرناه سابقاً. وقد تبشر هذه الدلائل بلون جديد في هذا المجال.

ففي ظل زيادة تدفق المحتوى الرقمي من تطبيقات الحاسب إلى الأجهزة اليدوية (آي باد، كندل،...)، وفي ظل احتلال تطبيق الكتب في «الآي باد» أعلى التطبيقات تحميلاً في متجر آبل، وفي ظل الزيادة المطردة لمبيعات الكتب الإلكترونية، يبدو أننا مقبلين على تحول في علاقتنا بالمعلومات وبطريقة تلقيها. حيث تشير الدلائل الأولية إلى وجود مقدار هائل من المعلومات، ومقدار كبير من التقنيات والوسائل، بما يعني أننا ربما سنكون أمام أسلوب حديث يدمج بين المعلومات والوسائل لكي نصبح أمام طريقة غير تقليدية لعرض المعلومات، و(قد) نكون حينئذ قادرين على التعمق في المعلومات بشكل أفضل مما نفعله حالياً في الإنترنت. على كل حال، ليس السؤال عن مدى طرق هذه التقنيات هو الأهم، بل السؤال الأهم هو هل ستتجاوز هذه التقنيات الجديدة مشكلات الإنترنت لتجعلنا أكثر تركيزاً؟ أم أنها مجرد تقنيات سطحية لا يمكن أن تتجاوز عمق المشكلة فتقدم جميع وسائل التشتيت تحت مسمى دعم الشبكات الاجتماعية؟

سننتظر، ونرى. 

التكنولوجيا الحيوية

توظِّف البكتيريا في صناعة البترول..



في إطار التطورات الكثيرة التي شهدتها صناعة البترول خلال العقود الأخيرة، قد يكون ضمن أبرزها ما هو أبعدها عن البصر وأقلها إثارة للضجيج الإعلامي، ألا وهو استخدام البكتيريا الحية في هذه الصناعة التي تبدو في ظاهرها كيميائية ومعدنية بحتة. إذ باتت البكتيريا تلعب أدواراً أساسية في مختلف مراحل هذه الصناعة بدءاً بالآبار ومروراً بالمصافي وصولاً إلى أنابيب النقل. راكان حسن* يتناول موضوع «التكنولوجيا الحيوية» مما نقله وترجمه بتصرف من عدد من المصادر، ويحدِّثنا عن هذا العلم الجديد الذي خطا خطوات واسعة خلال العقد الحالي، وتطبيقاته المتزايدة في مجال صناعة البترول وتطويرها.

* طالب كيمياء حيوية في جامعة الملك عبدالعزيز

أسهم التقدم الذي طرأ في علمي الوراثة والكيمياء الحيوية خلال العقود الأخيرة في ظهور ما يعرف «بالتكنولوجيا الحيوية»، التي قدَّمت تطبيقات واسعة ومبتكرة في عدد من المجالات العلمية المختلفة.

وتعرّف «التكنولوجيا الحيوية» بأنها علم تطبيقي يقوم على دراسة العمليات الكيميائية والبيولوجية التي تجري داخل خلايا الكائنات الحية، ثم الاستفادة من تلك العمليات في مجالات متعددة، كالطب والزراعة والصناعة والبيئة. وتتم تلك الاستفادة بواسطة تقنيات هندسية حديثة ترتبط بالهندسة الوراثية التي فتحت آفاقاً جديدة وتطبيقات أوسع.

يعتمد علم التكنولوجيا الحيوية بشكل أساسي على علوم الأحياء المجهرية، وبيولوجيا الخلايا، والكيمياء الحيوية، إلى جانب توظيف علوم أخرى مثل الكيمياء التحليلية والهندسة الكيميائية والحيوية وتقنية المعلومات والروبوت.

ماذا عن صناعة البترول؟

تعززت أهمية التكنولوجيا الحيوية وتطبيقاتها خلال السنوات الأخيرة، وخاصة فيما يتعلق بالصناعات القائمة على إنتاج السلع والخدمات بواسطة النظم البيولوجية. ولذلك، كان للتكنولوجيا الحيوية أثرها الكبير على المستوى الصناعي ليشمل على سبيل المثال الأغذية والأدوية والمواد الزراعية والمواد الكيميائية والتقنيات البيئية، حتى وصل اليوم إلى عمليات تكرير البترول. فقد قدَّمت التكنولوجيا حلولاً جذرية في هذا الجانب، لترفع من جودة تلك العمليات ومخرجاتها الجانبية، وهو ما جعل هذا العلم محط اهتمام عالمي ودراسات مكثفة تتناول إمكانية توظيف التكنولوجيا الحيوية بشكل أوسع في تلك العمليات.

ولعل أبرز إسهامات التكنولوجيا الحيوية في مجال صناعة البترول قدرتها على استخدام المواد الحيوية أو الميكروبية لتعزيز الانتاج، وهذا ما يسمى بالتكنولوجيا الحيوية النفطية، وهذا العلم بات اليوم معتمداً في صناعة النفط على اختلاف مراحلها، خاصة بعدما أثبتت خدمات التقنية الحيوية إمكانية تقديم ميكروبات معدّلة، ومواد حيوية مطوَّرة قادرة على تحمل الظروف الصعبة في آبار النفط وخطوط الأنابيب.

فعلى سبيل المثال، كشفت الدراسات عن كائنات دقيقة قادرة على تطوير وإنتاج موادها الحيوية، تحسّن إنتاج النفط في الآبار وخطوط الأنابيب، ومصافي التكرير، وتقوم بعمليات كيميائية ضرورية كإزالة كل من الكبريت والنيتروجين والمعادن من النفط، إضافة الى تقليل اللزوجة. فقد بات من الممكن استخلاص الإنزيمات والمواد الحيوية من خلايا تلك الكائنات، وإنتاجها بكميات كبيرة من خلال زراعة جيناتها في ميكروبات تتكاثر بسرعة عالية، لتنتج هذه المواد بوفرة تجعل توظيفها في مصافي التكرير وخطوط إنتاج البترول أمراً ممكناً.

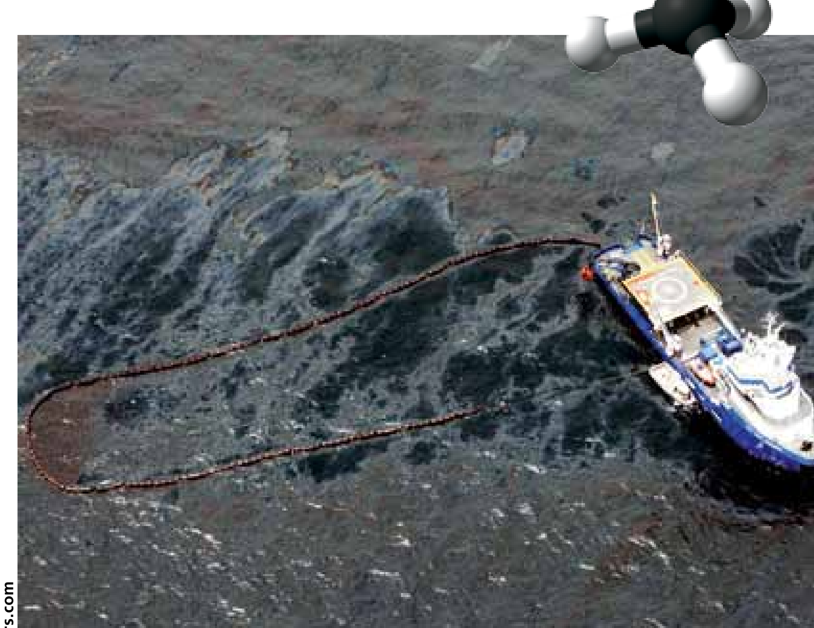
وكما هو معروف، فإن النفط هو خليط معقَّد من الهيدروكربونات، كما أن الغاز الطبيعي أيضاً هو خليط من غاز الميثان وغازات أخرى، وكلاهما يشّكلان مواد قيمة لعدد من الكائنات الحية الدقيقة. وهذه الحقيقة كانت بوابة لآفاق واسعة من التطبيقات المتعلقة بالصناعة النفطية.

ففي البداية تم تطويع هذه الكائنات الدقيقة للمعالجة البيولوجية وإزالة التلوث عن المواقع الملوّثة بالنفط، وبعد دراسة الدورات والمسارات الكيموحيوية (الأيض) لعدد من الميكروبات في أنظمة بيئية مختلفة، ظهر للباحثين أن هناك فرصاً ممكنة لاستخدام قدرة تلك الكائنات الدقيقة في التحويل الحيوي للمركبات التي تتغذى عليها، وتوظيف هذه التفاعلات - في خدمة العمليات البترولية، ومن ثم، فإن تنفيذ العمليات البيولوجية في صناعة النفط كما أشرنا سابقاً تمثل أساس التقنية الحيوية النفطية.

إن الأبحاث وعمليات التطوير في مجال التكنولوجيا الحيوية النفطية تزداد اليوم زخماً بحكم عدة عوامل، مثل كثافة الطلب على الوقود، والحاجة إلى تعزيز إنتاج النفط، والمخزونات المتزايدة من الخام الثقيل، والسعي إلى هوامش ربح كافية، وتطبيق الأنظمة البيئية التي أصبحت أكثر صرامة للحفاظ على البيئة.

ويمكن للتقنية الحيوية أن توفر حلولاً لمتطلبات تحسين مستوى الوقود الواسعة في جميع أنحاء العالم، لأن العمليات الحيوية لتطوير الوقود لا تتطلب الهيدروجين، كما أنها تنتج غاز ثاني أكسيد الكربون أقل بكثير من العمليات الحرارية، بالإضافة إلى براعة التمثيل الغذائي الميكروبي وجوهريتها في أن تكون وسيطاً في تحويل المواد الخام المعقدة إلى المنتجات المطلوبة في مجموعة واسعة من ظروف التفاعل، مثل ارتفاع درجة الحرارة والضغط، والملوحة، والحموضة الشديدة أو القلوية.

ولذلك، شهدت صناعة البترول مؤخراً توجهاً حقيقياً لدراسة الخيارات المتاحة لاستخدام التكنولوجيا

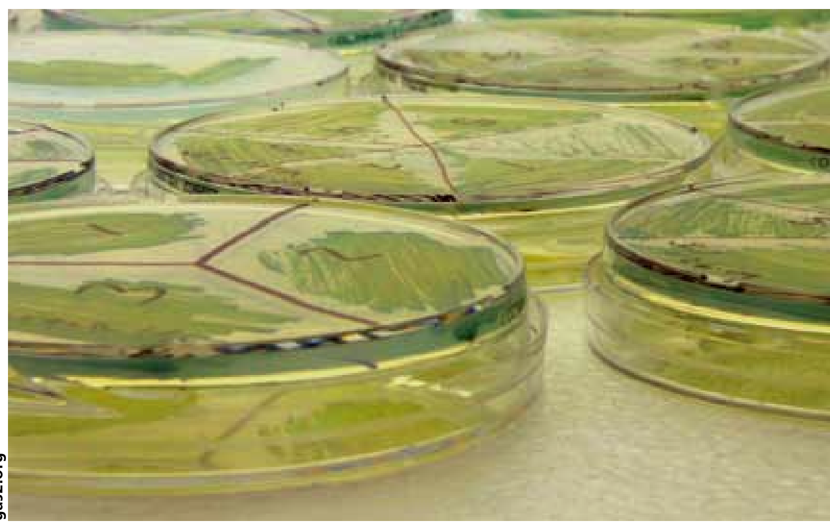


rtgrs.com

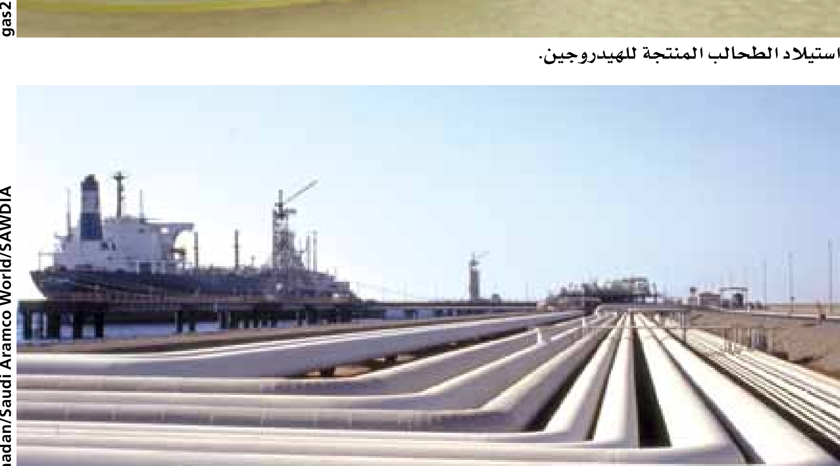
البكتيريا لمعالجة حوادث الانسكاب

التقنيات الحيوية المتعلقة بالصناعة النفطية

التطور الصناعي	نوع التقنية
الاكتشاف	التنقيب بواسطة الميكروبات الجيولوجية
الإنتاج	الميكروبات/الأنزيمات لتعزيز إنتاج النفط (MEOR)
التكرير	الحفز الحيوي والأنزيمات في التكرير الحيوي لنزع النيتروجين والكبريت والمعادن إضافة إلى تكسير المركبات عالية الكثافة
النقل	معالجة الصدأ الحيوي في الأنابيب
الكيمياء البترولية	بلمرة الفينولات، أكسدة المركبات العطرية والكبريت والألكينات والإنتاج الحيوي للشحوم والزيوت من الكيروسين والغاز
معالجة النفايات السائلة والمواقع الملوثة	المعالجة الحيوية الهوائية واللاهوائية بواسطة الكائنات الدقيقة أو المعالجة الحيوضوئية أو الأنزيمات في مواقع خاصة أو في مواقع التلوث بتصاميم هندسية مخصصة



استيلاد الطحالب المنتجة للهيدروجين.



داخل هذه الأنابيب: نفط وكائنات حية

الحيوية. فأجرت أبحاثاً عن العمليات الحيوية وطبقتها كتقنيات تكميلية في المراحل المختلفة لهذه الصناعة للحد من تكاليف الاستثمار والصيانة، وكذلك كنشاط واعد للتغلب على الحواجز التكنولوجية بشأن تطوير البترول.

ومع ذلك، فإن جهود تلك الأبحاث لم تكن ناجحة في كل المرات، وذلك بسبب قلة المتخصصين، والافتقار إلى التمويل، وضعف القدرة التنافسية، ونسبة الكفاءة إلى التكاليف. إلا أنه ومن ناحية أخرى نجح العديد من الأبحاث في مجال التقنية الحيوية النفطية وأثبت جدواه في تعزيز الإنتاج والتكرير الحيوي على وجه التحديد.

وفي بعض البلدان مثل الولايات المتحدة، ممثلة في وزارة الطاقة، أعدت في عام 2000م خارطة طريق تكنولوجية للصناعة النفطية، بما في ذلك النزع الحيوي للكبريت (biodesulfurization) من البنزين والديزل كتطبيقات تقنية لها الاهتمام الأكبر حيث تتضافر الجهود الأكاديمية والقطاع الخاص في البحث بشكل متزايد من أجل تحقيق الجوانب المرجوة.

خط زمني يشير إلى تطور التقنية الحيوية النفطية

الفترة	التقدم التكنولوجي
1940 - 1950	اكتشاف الطحالب المنتجة للهيدروجين
1950 - 1960	اكتشاف كائنات دقيقة تؤيض الفينولات، وهي تمثل قياساً لمعدل نزع الكبريت بميكروبات هوائية
1960 - 1970	• أول قياس لمعدل نزع الكبريت بميكروبات لا هوائية. • إنتاج بروتينات بواسطة خلايا بكتيرية تنمو على البارافينات النفطية (السلاسل الهيدروكربونية النفطية)
1970 - 1980	• إتمام تفاعلات إنزيمية على المذيبات العضوية • إنتاج أكسيد الإثيلين بواسطة بكتيريا
1980 - 1990	استخدام البكتيريا في المعالجة الحيوية لبقعة إكسون فالديز
1990 - 2000	اكتشاف المسارات الكيموحيوية للنزع الحيوي للكبريت بواسطة الكائنات الدقيقة، إنتاج سلالات بكتيرية مقاومة للمذيبات العضوية أثناء النزع الحيوي للكبريت، استخدام النزع الحيوي للنيتروجين والمعادن بواسطة الإنزيمات، إنشاء أول مصنع للنزع الحيوي للكبريت من البنزين.
2000 - حتى اليوم	استخدام الإنزيمات في معالجة الآبار وفي صناعة البتروكيماويات، استخدام المعالجة الحيوية بشكل واسع.

الإدارة عن بعد..

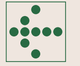
مذهب جديد في مؤسسات الأعمال



Corbis



إلـى أي حد يجب أن يُحكم مدير مؤسسـة ما قَبْضَـتَه وبشـكل مباشـر على الموظفيـن؟ وإلى أي حـد يجـب أن يغوص فـيَ تفاصيـل أداء الموظف وتوجيهـه؟ وما حجـم هامش حرية التصـرف الـذي يتمتـع به الموظف ضـمن توجيهـات الإدارة. المؤسسـات التقليدية التي قامت منذ عصـر الثـورة الصـناعية تعطـي أجوبة واضـحة وحاسـمة عن هذه الأسـئلة. ولكن تطـور طبيعة العمل المؤسسـاتي واعتمـاده أكثـر فأكثر علـى الابتكار والمبـادرات الفردية بدأ يعطي أجوبة مناقضـة لأجوبـة المؤسسـات التقليديـة. ليلـى أمـل تحدثنـا عـن التحولات التي بـدأت تطرأ علـى العمل الإداري في المؤسسـات الحديثة، اسـتناداً إلى أمثلة أثبتت نجاحها وجدوى هذه التحولات التي صارت تعرف اليوم باسم «الإدارة عن بُعد».



حين نشأت مؤسسات الأعمال بصورتها الحديثة، استعارت من المؤسسات العسكرية الكثير من فلسفتها، فاعتمدت في إدارتها الأسلوب الذي يطلق عليه خبراء الأعمال «الأمر والتحكم».

فأعلـى الأشخاص منصبـاً فـي المؤسسـة هو مـن يرسم خططها، ويحدد أدوار الموظفين المختلفة، والطريقة التي عليهـم أن يؤدوها بها. ويقوم الموظـف بتنفيذ هذه الأوامر الموضوعة مسبقاً، ويكون أساس الحكم على عمله هو دقته وانضباطه في عملية التنفيذ، والتزامه الحرفي بما كُلِّف به جملة وتفصيلاً.

وقـد سـار الأمـر بهـذه الطريقـة طـوال الفترة التـي ساد فيهـا الاقتصـاد الصناعي، وكلمـا زادت قـوة المؤسسات الصناعيـة، زاد اقتنـاع مديريهـا بفاعلية أسـلوب الإدارة الـذي يتبعونـه. وسـواء أكان هـذا الأسلوب بالفعـل واحداً مـن عوامل النجاح في تلك المؤسسـات، أو أنه كان ملائماً لطبيعتهـا وظروفهـا فقط، ففـي الحالتيـن كان هو النظام السائـد الـذي لم يفكر أحـد بالحاجة إلى تغييـره، أو حتى إمكانية هذا التغيير.

ومـع التغير فـي طبيعـة المؤسسـات الذي صاحـب التحول التدريجـي مـن الاقتصـاد الصناعـي، إلـى ما بـات يعرف باقتصـاد المعرفـة، أصبح الحـال مختلفاً تمامـاً. فالمهام المطلوبـة في هذه المؤسسـات لا تعتمد علـى العمل اليدوي والبدنـي، وإنمـا تتعلـق بالتفكيـر والتحليـل والابتـكار وحل المشكلات، وهي مهام تحتاج لبيئة مختلفة عن البيئة الأولى، ولأسلوب إدارة مختلف عن الأسلوب الذي ساد قبلها.

فأسلـوب الأمر والتحكـم، لم يعد ملائمـاً ولا فعالاً في ظل الاقتصـاد الجديـد. وبـدأت الإدارات تعترف بـأن التحكم


عبدالرحمن الفنتوخ

موظفون في بيئة العمل: هل التقيد بالنظام الصارم يكفي؟

المباشر في سير أمور العمل من يوم إلى يوم، ليس في يدها هي، بقدر ما هو في أيدي موظفيها. فالمؤسسات الآن أصبحت كيانات متعددة الأجزاء، وقد تمتد أيضاً لتشغل عدة مواقع جغرافية بدلاً من موقع واحد، في البلد نفسه، أو عبر الحدود. ولن يستطيع المدير أن يكون موجوداً في كل الأماكن في الوقت نفسه! وحتى مع المؤسسات الأبسط في تركيبها، فإن طبيعة العمل «المعرفية»، وطبيعة المهام التي ازداد تركيبها وتعقيدها، تجعل من التدخل الدائم من قبل المدير بطريقة «افعل ولا تفعل» شيئاً يحد من فاعلية العمل، ويبطئ معدلات الإنجاز العام فيه.

يقول خبراء الأعمال إن اقتصاد اليوم لا تناسبه الإدارة المتحكمة، وإنما الإدارة عن بُعد.. بحيث يخلق المدير بيئة عمل مناسبة، تسمح بأن يحدد الناتج الصحيح والمطلوب، ثم يترك كل واحد من موظفيه يشق طريقه الخاص نحو هذا الناتج. فأقصر طريق بين نقطتين، كما تقول الطبيعة في كل مظاهرها ومشاهدتها، ليس هو الخط المستقيم، ولكنه الطريق ذو المقاومة الأقل. ولذلك، فإن أكثر الطرق كفاءة وفاعلية لتحويل معارف الموظف وخبراته ومواهبه إلى أداء يخدم المؤسسة، هو أن يجد طريقه الأقل مقاومة الذي يمكن أن يسير فيه للوصول إلى النتائج المطلوبة. وهو الطريق الذي تدعمه كفاءاته، ومواهبه الخاصة، ونقاط تميزه، وأيضاً شخصيته، وطريقة تعامله مع المعرفة، ومع المهام، وأيضاً مع البشر. وحين يتبع كل موظف طريقه الخاص الأقل مقاومة، سيكون قد وصل لصيغته الأكثر تأثيراً وفاعلية من أية قوالب محددة يتبعها بصعوبة، وبكثير من التعثر والمقاومة.

والإدارة عن بُعد مهمة مركَّبة وطويلة المدى، وتتطلب من القدرات الإدارية أكثر بكثير مما يتطلبه الأسلوب القديم. إذ تقع على كاهل المدير مهمة خلق بيئة عمل جديدة، تتميز بتحقيق توازن دقيق بين تحديد الأطر والمعايير بدقة لا تقبل التهاون، وترك المساحات داخل هذه الأطر حرة للتصرف والقرار، ومفتوحة للمشاركة والرأي والمبادرة. ولهذا أصبح من المهم أن نتعرف إلى الأدوات اللازمة لإحداث مثل هذا التغيير، والوصول مع تطبيقه، إلى مستويات جديدة من الفاعلية والكفاءة في أداء الموظفين، وأداء المؤسسة ككل.

اختيار الأشخاص المناسبين ووضع كل منهم في المكان المناسب

في كتابه الشهير «من جيد إلى عظيم»، يقول جيم كولينز الأستاذ بكلية إدارة الأعمال بجامعة ستانفورد الأمريكية، إن الحافز الحقيقي للأداء الجيد عند الموظف هو الأداء الجيد نفسه. بشرط أن يكون الموظف المناسب، ويقوم بالعمل المناسب.

وغالباً ما تتبع الشركات أسلوباً خاطئاً في تصورها لمسألة الانضباط في بيئة العمل. فهي تفترض أن الموظف يحتاج دائماً إلى اتباع سياسات معقدة كي يظل منضبطاً في عمله، ويقوم بالمهام التي عليه أن يقوم بها. وفي كثير من الأحيان فإن المدير يرى موظفيه وكأنهم «مراهقون» كسالى ومشاغبون، ويحتاجون إلى نظام صارم من الضبط والربط. فتلجأ الإدارة لمزيد من القواعد، ومزيد من القوانين. وتتعامل مع موظفيها بمزيد من الحذر وكثير من الشكوك.

وأساس المشكلة أن المدير قد قام بتعيين الأشخاص غير المناسبين.. في كفاءاتهم العملية من جهة، وفي مدى قدرتهم على تنسيق هذه الكفاءات، مع ثقافة الشركة ورؤيتها لأسلوب عملها وأهدافها ورسالتها. والحقيقة أن الأسلوب الصارم في الإدارة يضاعف الضرر الذي يقع على المؤسسة في هذه الحالة، وليس العكس. إذ إنه كلما ضاقت حلقات التحكم من قِبَل المدير لزيادة الانضباط، دفع ذلك الموظفين المناسبين لمغادرة المؤسسة لأنهم أكثر المتضررين. ونتيجة لذلك، تزداد نسبة الموظفين غير المناسبين، الأمر الذي يدفع إلى ممارسة مزيد من الضغوط لتحقيق الانضباط، فقط لتغادر مجموعة أخرى من الموظفين المناسبين، وهكذا.

وبدلاً من أن يضع المدير جهده في عمليات لا نهاية لها من الضبط والربط، عليه أن يصرف هذا الجهد في عملية اختيار الموظف المناسب من الأساس. ليس الجهد المطلوب من قِبَل المدير هو فقط قراءة السيرة المهنية، والتدقيق في سنوات العمل وحجم المهام التي تولاها الموظف سابقاً. فالسيرة المهنية هي ملخص عام لما فعله هذا الموظف من قبل، لكن المعرفة الحقيقية التي يحتاجها المدير عن الموظف المتقدم هي من يكون، وليس فقط ماذا فعل. ولأية درجة تتوافق نقاط قوته مع احتياجات المؤسسة، ولأية درجة تتماشى قواعده الأخلاقية ونظرته للحياة، مع ثقافة المؤسسة ورؤيتها وأهدافها.

مـن المهـم أن يعـرف المديـرون أن إحـكام قبضتهـم الحديديـة، لا يزيـد إلا شكوكهـم، ولا يقوي سـوى جو عدم الثقة فـي المؤسسـة. وفي المقابـل فإنه يسلبهـا المرونة، وسرعـة الاستجابـة، ويؤثـر سلبـاً علـى سمعتها فـي عالم الأعمـال كمؤسسة بنـاءة للكفاءات، ومكان جيد للعمل والحياة.

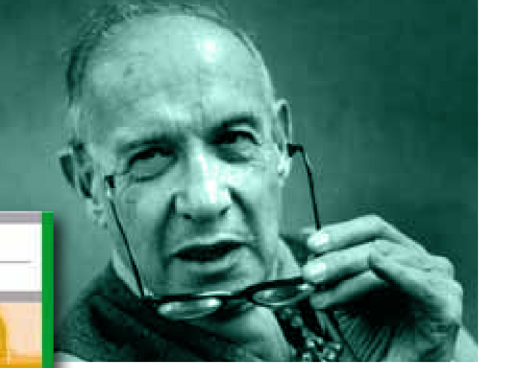
> تشير الإحصاءات إلى أن أكثر من ثلثي الموظفين يرون أنهم لا يتلقون التقدير على عملهم الجيد

من التعقيد إلى الوضوح

مـن حكم موقعـه على رأس المؤسسـة، فإن المديـر يتعامل مـع كل المعطيات والمتغيرات علـى ساحـة العمـل، ومتطلبـات السـوق، والمعـادلات المعقدة التي تشـرح ذلك، والتي يبنى علـى أساسها هيكل المؤسسة وأطرهـا. لكن كيف يمكن أن ينقـل الصـورة المعقدة المتشعبـة التي يراهـا، إلى عيون موظفيه، بحيث تتوجه جهودهم في الاتجاهات اللازمة لخدمة المؤسسة، وتمكنها من تحقيق نتائج إيجابية طويلة المدى؟

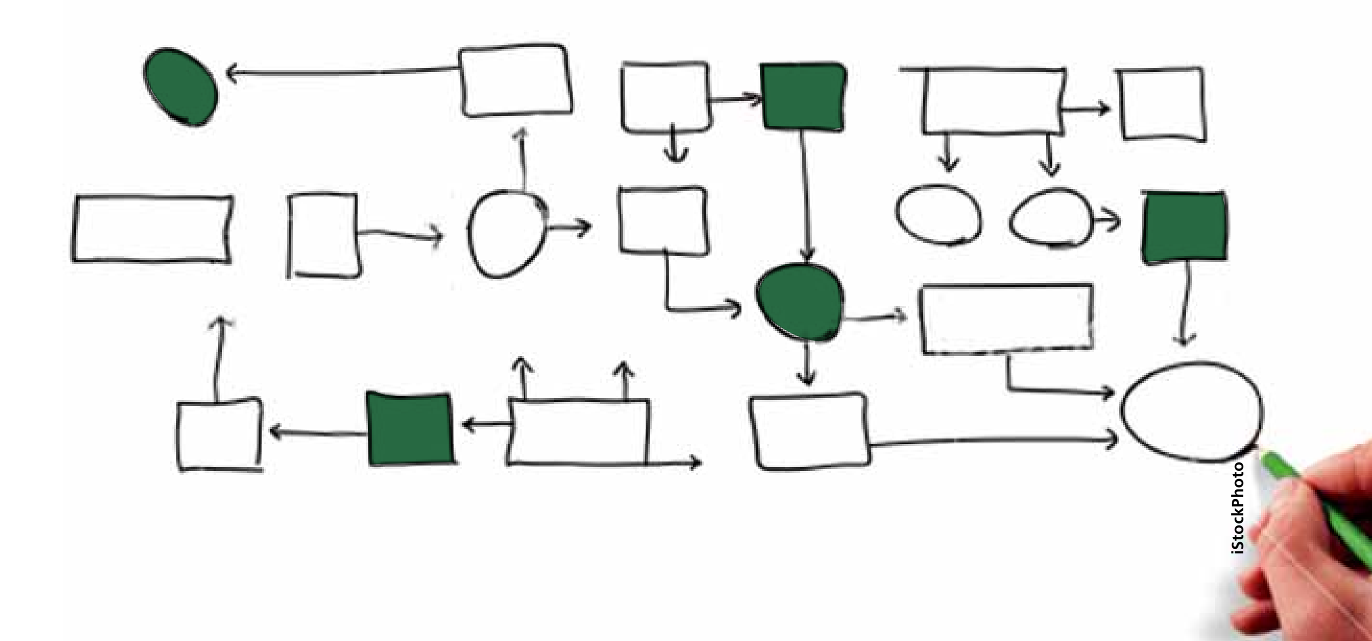
إن دور المديـر هـو أن يصـل بـكل التعقيـد الـذي يتعامل معـه، إلـى رؤية واضحة جـداً ومباشـرة جـداً، ينقلها إلى كل الموظفيـن بالمؤسسـة، تكون دليلاً يلجـأ إليه كل منهم ليعـرف ماذا يفعل هنا بالضبط، ومـا أولويات عمله، وعلى أي أسـاس يقرر ما يفعله فـي كل صباح يأتي فيه إلى عمله، ويجلس إلى مكتبه.

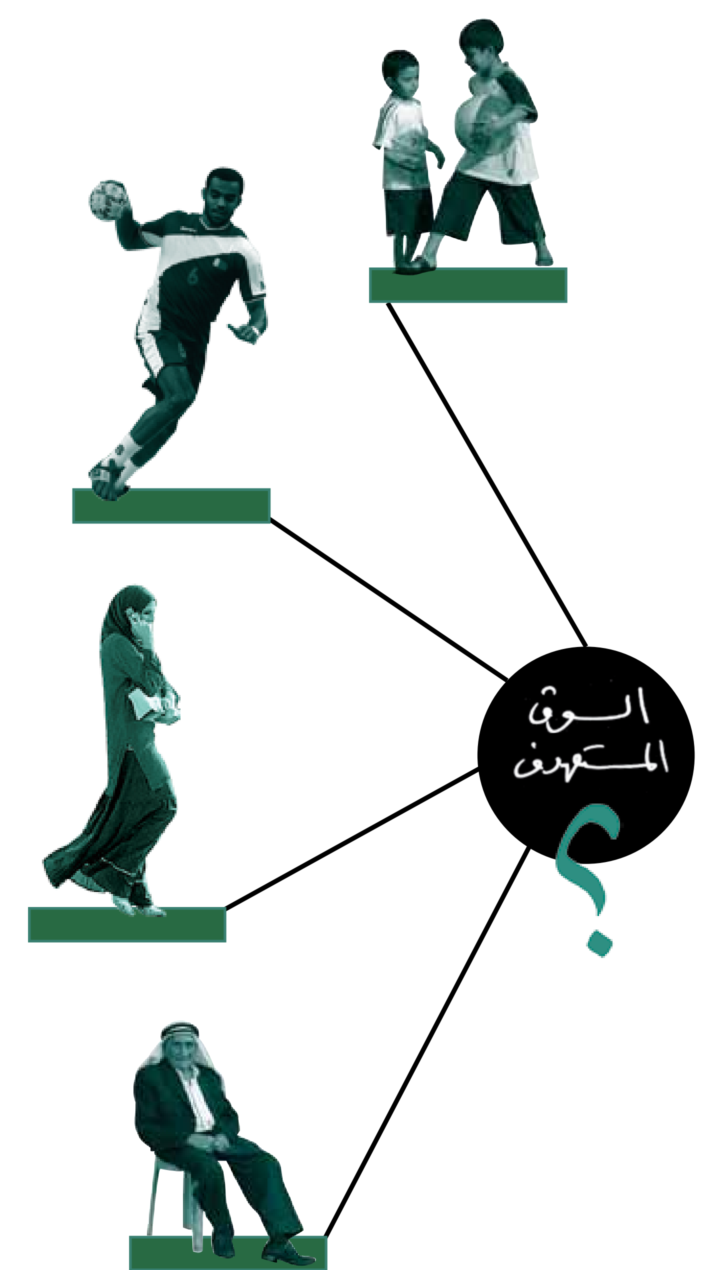
تُعـد خطـوط طيـران «ساوثويسـت» الأمريكيـة مـن أنجح شـركات الطيـران وأكثرها ربحيـة. ويقول هيـرب كيليهر (المديـر التنفيذي للشركـة): «أستطيـع أن أعلمكم السر فـي إدارة هذه الشركة في ثلاثيـن ثانية. وهي كالتالي: إننا أقل خطوط الطيـران تكلفة. وحالما تفهمون هذه الحقيقة، فبإمكانكـم اتخـاذ أي قـرار يخص مستقبـل الشركة، كما أفعل أنا».



ويستكمـل كيليهـر توضيـح فكرتـه بسؤال: لـو فكـر أحـد موظفـي قسـم التسويق في تقديم وجبـة خفيفة إضافيـة خلال إحدى الرحـلات، بعـد أن عـرف مـن استطـلاع للرأي أجـراه بين الركاب أنـه سيروق لهم لـو قدمت الشركـة وجبة خفيفة خلال هـذه الرحلة.. ومع معرفـة أن تنفيذ ذلك سيكون شيئاً لطيفـاً للزبائن، وأداة ترويـج جديـدة للشركة.. فهل يُعـد هذا الاقتـراح ناجحاً ومناسبـاً وقابـلاً للتنفيذ؟ الأمر بسيـط. ما على الموظف إلا أن يسـأل نفسـه: هل سيجعلنا تقديم هـذه الوجبة أقل خطـوط الطيران تكلفة؟ لأنه إذا لم يكن كذلك، فليس من صالح الشركة أن تفعل.

بهـذه الطريقة تكون الصـورة الواضحـة البسيطة والقوية للمؤسسـة أمام عيون موظفيها، أداة فعالة في أيديهم توجه تفكيرهم وعملهم وقراراتهم ومبادراتهم من يوم إلى آخر. وتختلف المؤسسات في طريقة رسم هذه الصورة، وطريقة نقلهـا إلى موظفيها، لكن هناك عنصريـن أساسيين يجب أن تعتنـي بهما، لكي تضمن نجاحها في هذه المهمة. وهما: ما هي نقطة تميز المؤسسة؟ و لمن تقدِّم خدماتها؟





ما هي نقطة تميز المؤسسة؟

في كتابه «المدير الفعَّال» يقول بيتر دراكر الأب الروحي لعلوم الإدارة الحديثة: «المؤسسة الفعالة هي التي تجمع نقاط قوتها معاً، وتجعل نقاط ضعفها غير مؤثرة». فالمؤسسة القوية هي ليست المؤسسة التي تحقق الأهداف في جميع الشباك الممكنة، ولكنها تلك التي تختار الشبكة المناسبة وتحقق فيها أكبر قدر من الأهداف. لقد أصبحت تويوتا أكبر شركات السيارات نجاحاً في العالم، لأنها قررت أن تنتج أكثر السيارات التي يمكن الاعتماد عليها، وليس بالضرورة أكثر السيارات جمالاً أو رفاهية، ولا أعلاها أداءً. ولو كانت فرقت جهودها لمطاردة كل هذه الصفات، لما كانت قد حققت ما وصلت إليه من نجاح.

ولا تكمن أهمية تحديد نقاط ومجالات تميز الشركة، في تأثيره على توجيه مواردها ووقتها فحسب، لكن وضوح هذا الأمر أمام كل موظفيها يخدمها على مدى أبعد. إذ إنه يمثل نقطة الارتكاز التي تضمن للشركة تفوقها على منافسيها، وأيضاً السبب الذي تشرح الشركة لموظفيها به أحقيتهم بهذا التفوق. فأمام المنافسة العالية والتغير الدائم اللذين يسودان عالم الأعمال اليوم، يتساءل الموظفون عن مدى صدقية ما تدعيه الشركة من مكانة ونجاح، سواء في الوقت الحالي، أو في المستقبل. هناك منافسون أقوياء.. لماذا سوف نهزمهم؟ هناك صعوبات كثيرة على الطريق.. لماذا سوف نتغلب عليها؟ ما هي ميزتنا، وما الذي سيجعلنا نسبق الآخرين؟ وكلما وجد الموظفون إجابات واضحة عن هذه الأسئلة، ارتفعت ثقتهم في النجاح، وزادت درجة اهتمامهم وجديتهم، وزادت قدرتهم على حل المشكلات وتخطي العقبات.

لمن تقدِّم المؤسسة خدماتها؟

تأسست شركة «بيست باي» الأمريكية في العام 1966م، كمتجر عادي للإلكترونيات، لكنها منذ أواخر السبعينيات، استطاعت أن تتحوَّل إلى مؤسسة عالية النجاح والربحية، ويرجع باحثو الإدارة والأعمال هذا التحول، إلى الاستراتيجية التي وضعها مديرها التنفيذي الجديد في ذلك الوقت، براد أندرسون، والتي كان محورها هو السؤال: إلى من تقدم مؤسستنا خدماتها بالضبط.

بعد دراسة الأمر، توصل مسؤلو «بيست باي» إلى الإجابة عن السؤال. وهو أن المؤسسة تقدِّم خدماتها لهؤلاء الذين يرغبون في استخدام التكنولوجيا في مجالات حياتهم وعملهم، لكنهم لا يعرفون بالضبط كيف، ويحتاجون من يساعدهم على اتخاذ قرارات الشراء.

قام براد أندرسون بإعلان الاستراتيجية الجديدة التي ستتبناها المؤسسة، بناءً على ما وصلت إليه، لكل موظفيه، ليرسم لهم بوضوح طريق المؤسسة في الأعوام القادمة. فبدلاً من أن يكون دور موظفي المبيعات هو ببساطة البيع، سيكون دورهم تعليم العملاء. وغيَّرت الشركة طريقة عملها في كل شيء، كي تخدم هذه الصورة. فركَّزت أكثر على اختيار المنتجات المعروضة، ثم قامت بتدريب موظفي المبيعات تدريباً مكثفاً، بحيث يكون كل منهم قادراً على شرح وتوضيح الفروق بين المنتجات المختلفة من كل نوع، ومطابقة مواصفات الأجهزة لحاجات المشتري وطبيعة استخدامه. وألغت نظام «العمولات»، بحيث توجه هؤلاء الموظفين نحو عملية المساعدة، بأكثر من عملية البيع. ووضعت الشركة ثقتها في موظفي القمصان الزرقاء كما سمتهم، وهم موظفو البيع، أو موظفو الخطوط الأمامية في متاجر الشركة، ثم تركت لهم مساحة العمل مع العملاء، وانتظرت تراقب تأثير الخطة الجديدة على مبيعات الشركة وربحيتها.



عبدالعزيز عياش

السيرة الذاتية للموظف قد تكون أهم من الضبط الإداري القسري

وقد أثمر الأمر كثيراً، وتصاعد نمو الشركة بصورة هائلة حتى أصبح عدد متاجرها 600 متجر في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتصدرت تجارة الإلكترونيات متفوقة على منافسيها. وفي المقابلة الصحفية التي أجرتها معه مجلة «فوربز» المختصة بالأعمال، حول شركته ونجاحها الكبير بعد أن منحتها المجلة لقب «شركة العام»، أوضح براد أندرسون كيف أن طريقة العمل الجديدة، جعلت من موظفي القمصان الزرقاء آلة للإنجاز والإبداع. وكيف أنهم أخذوا الخطة الأساسية، وزادوا عليها عشرات الابتكارات والتحسينات والمبادرات، التي قدَّموها هم للإدارة بحكم قربهم المباشر من العملاء. فقد أمدتهم هذه الصورة الواضحة عن هؤلاء الذين يقدِّمون لهم خدماتهم، بأداة فعالة لاتخاذ القرارات في الاتجاه الصحيح الذي تطلبه الشركة. ونتيجة للثقة التي تولدها هذه القرارات الصحيحة، ازداد لديهم حس الإبداع والمبادرة. وارتفعت فعالية قراراتهم وحكمهم، بعد أن أزاحت الإدارة عوائق التردد والتخبط من أمامهم، وأعطتهم وسيلة فورية ليحددوا بأنفسهم ما إذا كانوا قد نجحوا في أداء المهام المطلوبة منهم، أم لا.

> المدير الناجح هو من يرسم ملامح الطريق فقط للموظفين المناسبين في الأماكن المناسبة

دعم التعلم والنظرة الإيجابية للأخطاء

وهناك ارتباط وثيق بين منحنى التعلم الخاص بالموظفين، وبين تطور العمل والأداء العام الخاص بالمؤسسة. وإذا كان لكل موظف قائمة رئيسة ثابتة من المهام، فإن المدير الناجح هو من ينظر إلى هذه القائمة، ويعيد تشكيلها مع الوقت، بحيث يظل منحنى التعلم الخاص بالموظف في صعود، من خلال إعطائه مهام جديدة، تنمِّي من قدرة الموظف على العمل، وتكسبه المزيد من الخبرات مع مرور الوقت. مهام تخاطب الموظف وقدراته بمستوى أعلى، مع توفير المعرفة اللازمة للنجاح فيها. هذا القدر المعقول من «التحدي»، يصل بقدرات الموظف إلى أعلى حد لها، ويعزز قدرته وثقته في القيام بمهام عمله، الأمر الذي يرفع من كفاءة أدائه.

ولكي تكون بيئة العمل مرحبة بالتعلم، يجب أن تتخذ موقفاً إيجابياً من الأخطاء. فالثقافة السائدة في مؤسسات الأعمال، تقول إن الأخطاء لا يجب أبداً أن تحدث. ولذلك تقابل عند حدوثها باللوم والعقاب، وعادة ما يتعمد المدير إشاعة جو من الحرج لصاحب هذا الخطأ، ليذكره دائماً بألا يكرره مرة أخرى.

لكن الواقع يقول إنه من دون حد معيَّن من أخذ المجازفات المعقولة في بيئة العمل، لا يمكن أن نكتشف أفكاراً جديدة وحلولاً أفضل للمشكلات. وحين نحذف الخوف من الوقوع في الخطأ من المعادلة، يستطيع الموظف أن يتقدَّم لأخذ مجازفات محسوبة، يكون فيها مسؤولاً عن حكمه وفعله، بغير أن يكون خائفاً من نتائج سلبية تقع على حياته المهنية.

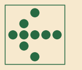
المدير الناجح هو من يحرص على إنشاء ثقافة تعتبر الأخطاء غير المقصودة أو المتعمدة فرصاً للتعلم. ويساعد من خلالها موظفيه على تقييم الأخطاء عند حدوثها، وتقييم تبعاتها، ثم الوصول إلى تصور جديد عن الحل الأفضل ليتم تطبيقه في المرات القادمة. فحين يسأل المدير موظفه: ماذا تعلَّمت من هذا الموقف؟ فإنه يعطي له الفرصة والمساحة اللازمة للنمو والتقدم.

في مؤسسات اليوم التي أصبحت قيمة العمل فيها مرتبطة بالتفكير والابتكار وحل المشكلات، فإن المدير الناجح هو من يلتزم بواجبه الحقيقي نحو مؤسسته وموظفيه، ليخلق بيئة عمل مساندة لما يريده من نتائج وإنجازات. فيختار موظفيه بعناية، وبكثير من النظر، ويجتهد كي يضع كلاً منهم في مكانه المناسب بالضبط. ثم يوضح لهم بقوة ملامح الطريق، وعلاماته الرئيسة، ويُفسح المجال أمامهم للتعلم والتقدم، والمشاركة الإيجابية. ففي ظل الأطر التي ضبطها بوضوح وجدية، تستطيع التفاصيل أن تعتني بنفسها بصورة أفضل، ويستطيع هو أن «يأمن» إلى أن كل موظف سيقدم أفضل ما لديه من جهد وقدرة على الإنجاز.

وإن كان هذا الطريق هو الأصعب، إلا أنه الأكثر فاعلية.. والأكثر واقعية كذلك.

من الرف الآخر.. اقرأ

عندما ينتهي صبر القاضية



فـي مطلع شهر يوليو أعلنت وزيرة العدل بولاية برليـن، انتحـار القاضية كيرستـن هايسينج، المعروفـة باسم «القاضية لا رأفـة». فتناولتها وسائـل الإعلام بتقاريـر مفصلـة، وأصبـح الجميع ينتظر نزول كتابها، الذي يحمل عنوان «نهاية الصبـر- الحزم مع الأحـداث مرتكبي العنف»، الذي يتناول تجربتها كقاضية أحداث، في حي «نويكولن» الذي تسكنه الجالية العربية والتركيـة، والـذي تسـود فيه معـدلات جريمة عالية للغايـة، ومـازال الكتاب يحتـل المرتبة الأولى بين أكثر الكتب مبيعاً منذ شهرين.

من هي هايسينج؟

هـي سيـدة قانـون، لـم تبلـغ الخمسين من عمرهـا، قـررت ألا تكتفـي بإصـدار أحكام قاسيـة على الأحداث الذيـن يرتكب بعضهم فظائـع تفـوق الخيـال، بـل أرادت أن تفهـم سبب قيامهم بذلك، والخلفيات التي تجعلهم قادرين على القيام بتلـك الجرائم الشنيعة. وحاولـت أن تسهـم فـي الأخـذ بيـد الحدث ليخـرج مـن دوامة الجريمـة، ويعيـش حياة بـدون مخالفات، وتعترف فـي مقدمة كتابها بأنها غير قادرة على الوفاء بهذين المبدأين في عملها، بالشكل الذي يرضي ضميرها.

اعتبـر الكثيرون أنهـا معادية للأجانب عامة، وللمسلميـن والعرب بصورة خاصـة، واتهموها بالعنصرية، لأنها كانت ترفض اللغة الدبلوماسية التـي ينتهجهـا السياسيـون فـي الحديث عن المشـكلات التي تتسبب فيهـا الأقليات العرقية أو الدينيـة، وقال آخرون إنهـا قاسية ولا تعرف الرحمـة، لأنهـا تصـدر أحكامـاً صارمـة، إذا لمست من الجاني الاستهانـة بالمحكمة، وعدم احتـرام القوانين. قالت إنه مـن الخطأ الفادح أن تستغـرق القضايـا البسيطة فتـرات طويلة، تفصـل بين الجريمة وبيـن المحاكمة، بحيث لا يلمس الحـدث العاقبة المباشرة لسوء تصرفه، ووضعت خطة عمل تكفل تنفيذ هذا الهدف، وقد جـرى تعميم هذه الخطة، بعـد أن لمس الجميع فائدتهـا. وكما عاشت حياة مثيـرة للجدل، بين مـن يقول إنها تعطي بلا حـدود، وبين من يقول إنها لا قلـب لهـا، فإنهـا انتحرت يـوم 3 يوليو، في الغابة القريبة مـن بيتها، وبقيت معلقة على الشجـرة التي شنقت نفسها عليهـا، لمدة أربعة أيام، حتى عُثر عليها.

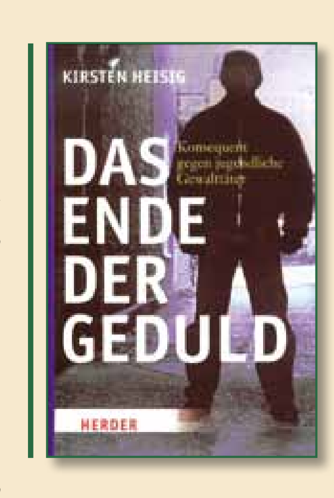
محتوى الكتاب

يقع الكتاب في 204 صفحات، ويتكون من سبعة فصـول، إضافـة إلـى مقدمـة وخاتمـة، وتبدأ القاضيـة كتابها باستعراض حـالات كثيرة من القضايـا التي مـرَّت عليها، وتقـدِّم إحصاءات مثيـرة للقلق عن تنامـي الجريمة كمـاً وكيفاً. وفي الفصل الثاني تسمح للقارئ بمعرفة الكثير مـن التفاصيل عـن عمل قاضيـة الأحداث، ولا تتـورع عن النقـد الذاتي، لأخطاء فـي قرارات اتخذتهـا، أو لقصـور في أحد أطـراف العمل، وللحيـل القانونية التـي يلجأ إليهـا المحامون، وفـي الفصل الثالث تركز على الاعتداءات التي يقوم بهـا المتطرفـون اليمينيـون، المعروفون باسم النازيين الجـدد، واليساريون المعروفون باسم المستقلين أو الفوضويين.

في الفصـل الرابع تتنـاول بالتفصيـل نماذج مـن الأحـداث من عتـاة الإجـرام، أو من هم فـي الطريق إلى أن يصبحـوا كذلك، وترى أن غالبيتهـم العظمـى هم من العـرب والأتراك، وقلـة مـن الألمـان والروس والفيتناميين، وغيرهـم، وهـو الفصل الـذي سيأتـي تناوله بالتفصيـل. أما الفصـل الخامس فتتناول فيه هايسينـج الوضع فـي المدارس وفـي الدوائر الحكوميـة المسؤولـة عـن متابعـة الأطفـال والأحداث، ودوائر الشرطة، وتضع الاقتراحات لتطوير إسهام المدارس في التقليل من جرائم الأحداث. وفي الفصل السادس تتناول تطبيق التوجيهـات الصـادرة مـن قضـاة الأحداث، والإجـراءات المتبعـة لمساعـدة الأحـداث للتخلص من ممارسة العنف، من خلال دورات متخصصة، وتستعرض الخبرات المكتسبة في دول أخرى، مثل النرويج، وبريطانيا، وهولندا. وفي الفصـل السابع تستعرض تصوراتها لشق طرق جديـدة في التعامـل مع أوضـاع جرائم الأحـداث، وهو مـا أطلقت عليـه اسم «نموذج نويكولن»، ثم تقدِّم توصياتها، وكلمة ختام.

إحصاءات مثيرة للقلق

في العـام الماضي قامت شرطـة العاصمة الألمانية برلين بإجراء تحريات عن 31861 مشتبهاً، أعمارهم أقل من 21 سنة، وشملت الاتهامات الموجهة إليهم السرقة والابتزاز والاعتـداء البدنـي والتهديـد والإضـرار بالممتلـكات، وكان غالبيـة المشتبـه فيهم مـن الذكـور، مـع ملاحظة تزايـد معدلات الجريمـة بين الفتيـات، والتي بلغـت نسبة حصتهـن فيهـا 27 فـي المئة مـن مجموع الجرائم، خاصة السرقة والاعتداء البدني، مصحوبـاً بالسـب بألفـاظ قبيحـة. وتبيِّن



تحقيقات الشرطة، أن تناول الخمر أو المخدرات يجعل من هؤلاء الكائنات الرقيقة وحوشاً كاسرة، لا تتورع عن استخدام العنف بفظاعة، إلا أن الفتيات يكن أمام المحكمة أسرع استعداداً للاعتراف بخطئهن، والالتزام بالإجراءات العقابية المفروضة عليهن.

أما بالنسبة للأحداث من أصل أجنبي، فتدل الإحصاءات على أنهم متخصصون في أعمال العنف، ورغم أن نسبتهم في الشعب الألماني منخفضة نسبياً فإنهم يرتكبون الاعتداءات البدنية بمعدلات تفوق الضعفين مقارنة مع نظرائهم الألمان، وبمعدل 170 في المئة في جرائم الشوارع، وبنسبة 230 في المئة في الاعتداءات البدنية الخطرة، وبنسبة 240 في المئة في السرقة في الشوارع، وثلاثة أضعاف نسبة الألمان في استخدام المواصلات بدون شراء تذكرة. وتوصلت القاضية بناءً على بيانات الشرطة إلى أن هناك 550 شخصاً من المجرمين الخطرين في الحي الخاضع لمحكمتها، تراوح أعمار ثلاثة أرباعهم بين 14 و21 سنة، كان مجموع الجرائم التي ارتكبوها وحدهم 7000 جريمة.

وتقول هايسنج إن 71 في المائة من المجرمين الخطرين، أي الذين يرتكبون عشر جرائم أو أكثر في السنة، هم من الأجانب، وفي حي نويكولن، ترتفع هذه النسبة إلى 90 في المائة. وتوصل خبراء الجريمة إلى قاعدة هي: «كلما زادت خطورة الجريمة، زادت نسبة الأجانب وأبنائهم».

الجالية العربية تحت المجهر

تعيد القاضية إلى الأذهان ما كتبته الصحافية التركية جونر بالشي في كتابها «أراب بوي» الذي نشرته في العام الماضي، والذي يحكي قصة شاب من أصل لبناني، يرتكب مع رفاقه العرب أفظع الجرائم. فتقول القاضية إن القضايا التي حكمت فيها في محكمة الأحداث تفوق ذلك بمراحل! وتلفت القاضية الألمانية إلى أن الكثير من الأسر التي تزعم أنها عربية ليست كذلك على الإطلاق، إذ إن معظمها ينتمي إلى أقليات عرقية كانت تعيش في لبنان أو في بعض البلدان الأخرى، وجاءت إلى ألمانيا، حيث زعمت أنها عائلات فلسطينية لا وطن لها، وبالتالي لا يمكن ترحيلها. فتضطر الحكومة الألمانية إلى منحها حق الإقامة المؤقتة، لكن دون حق العمل.

وليست الإحصاءات المخيفة التي توردها القاضية حول نسبة المخالفات والجرائم التي ترتكبها الجالية «العربية» في برلين مقارنة بنسب ما يرتكبه غيرها كالجالية التركية مثلاً، هو ما يثير القلق. بل أيضاً غوص القاضية في نقد صارم للأسباب الاجتماعية وتداعي القيم الأسرية والتربوية التي تُعد من وجهة نظرها مسؤولة عن جرائم الأحداث. وصرامتها في هذا النقد هي التي دفعت الكثيرين، حتى من كبار السياسيين الألمان إلى وصف موقفها وآرائها بالعنصرية وتصنيفها كشخص معادٍ للعرب والمسلمين.

انطباعات شخصية

صحيح أن الكتاب يرسم صورة قاتمة، وأن من سيقرأه من الألمان سيزداد عداءً للعرب والمسلمين في ألمانيا، خاصة وأن القضاة يحظون بمصداقية عالية، لأنه معروف عنهم النزاهة والموضوعية، علاوة على أن المؤلفة تعتمد في كتابها على إحصاءات وأرقام من السلطات المعنية، والتي لا مصلحة لها في الإساءة للعرب والمسلمين، فما العمل؟

إن الكتاب لا يدق ناقوس الخطر للمجتمع الألماني فحسب، بل ينبغي على الجالية المسلمة والعربية أن تدقق النظر فيما ورد فيه، فإما أن يكون خطأ، وعندها لا بد من الرد عليه، من دون انفعالات واتهامات، بل بموضوعية، وبإحصاءات تدلل على ذلك، أو يكون ما ورد فيه صواباً، وهذه ستكون كارثة، لأنها تعني أننا ارتضينا أن تقوم جماعة منا بتشويه الصورة، ونحن لا نضرب على أيديهم.

عموماً الكتاب الجديد الذي نزل هذه الأيام، والذي من المتوقع أن يزيح كتاب هايسنج عن قمة الكتب الأكثر مبيعاً، هو كتاب وزير المالية الأسبق في ولاية برلين، وعضو مجلس إدارة البنك المركزي الألماني، تيلو زاراتسين، بعنوان: «ألمانيا تقضي على نفسها»، والذي يتصف بعداء شديد للعرب والمسلمين المهاجرين إلى ألمانيا.

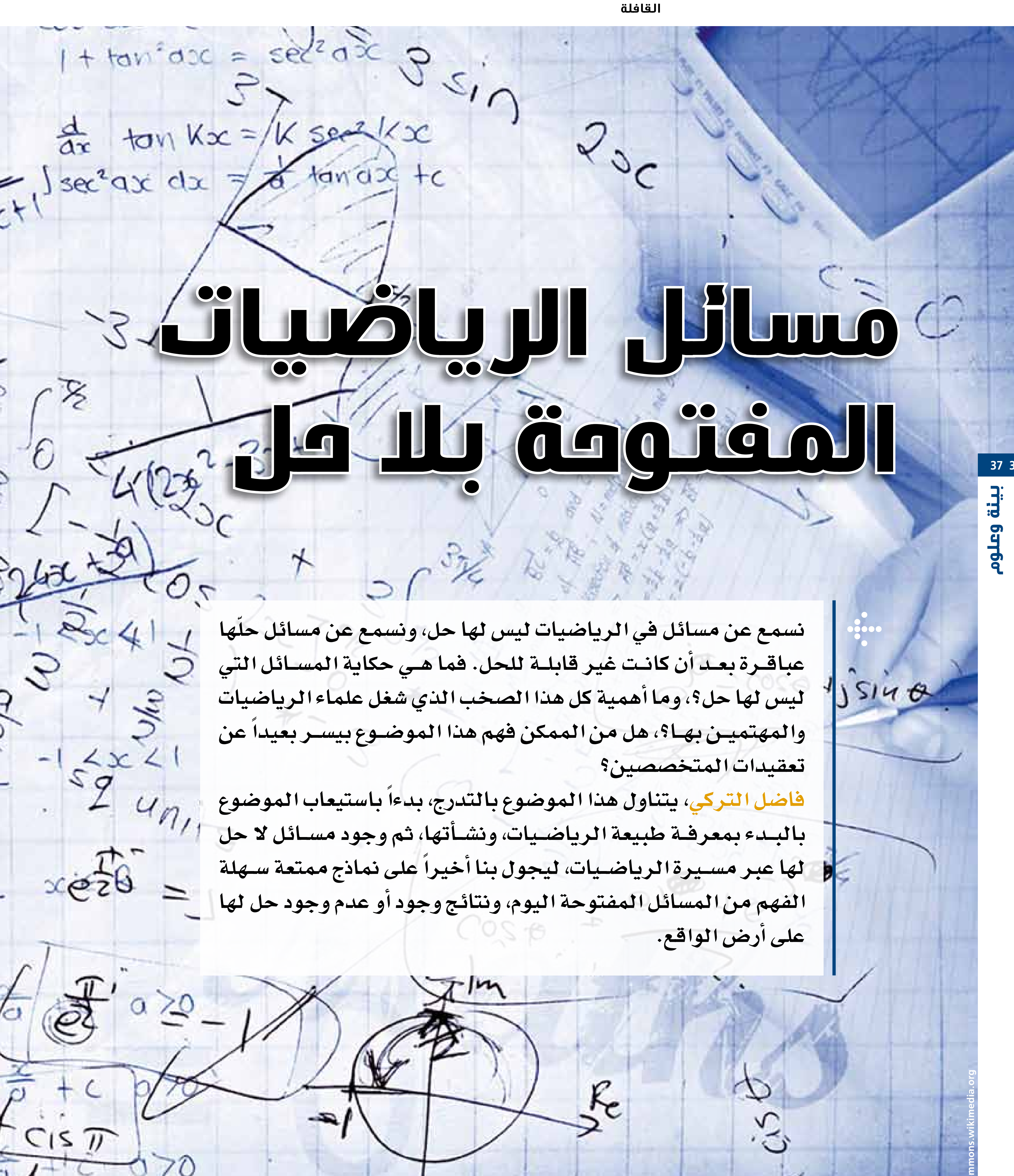
نقد الكتب لا يكفي

إن الانتقادات من قمة الدولة الألمانية وكافة الأحزاب لهذه المقولات الاستفزازية في مثل هذه الكتب، لن تفيد كثيراً، إذا كان الرأي العام الألماني يقبل على قراءتها، لأنها تزيد مخاوفه من المسلمين، خاصة عندما يكون واقع الجالية العربية المسلمة، يدور في غالبية الأحيان في دوائر المساعدات الاجتماعية، بدلاً من قاعات البحث، والمؤسسات الاقتصادية والصناعية.

فإذا لم يفكِّر المسلمون في ألمانيا في كيفية إعادة صياغة علاقتهم مع المجتمع الذي يستضيفهم أو يحملون جنسيته، فإن عزلتهم ستزداد، وستتزايد حملات اليمينيين المتطرفين ضدهم، وسيختار الناخبون سياسيين يتبنون هذه المخاوف من أقلية ترفض مشاركة المجتمع في احتفالاته، وتعيش في أحياء مستقلة، في مجتمعات موازية، لا تتذكر القوانين إلا عندما تكفل لها تحقيق مصالحها، وشيئاً فشيئاً يقف الغرب أمام أحد خيارين، إما أن يقبل بدولة داخل دولة، أو يطالب هؤلاء الضيوف بأن يرحلوا من حيث جاءوا.

مهما كانت مرارة هذه الكلمات، فإنها ضرورية لأن نبدأ أخيراً في نقد الذات، بدلاً من الإشارة بأصابع الاتهام دوماً للآخرين، الذين أصبح بعضهم يصرح بأنه قد حان وقت «نهاية الصبر»، كما فعلت هايسنج قبل انتحارها، الذي قد يكون له دلالات أكثر من مجرد مشكلات عائلية.

أسامة أمين
بون – ألمانيا

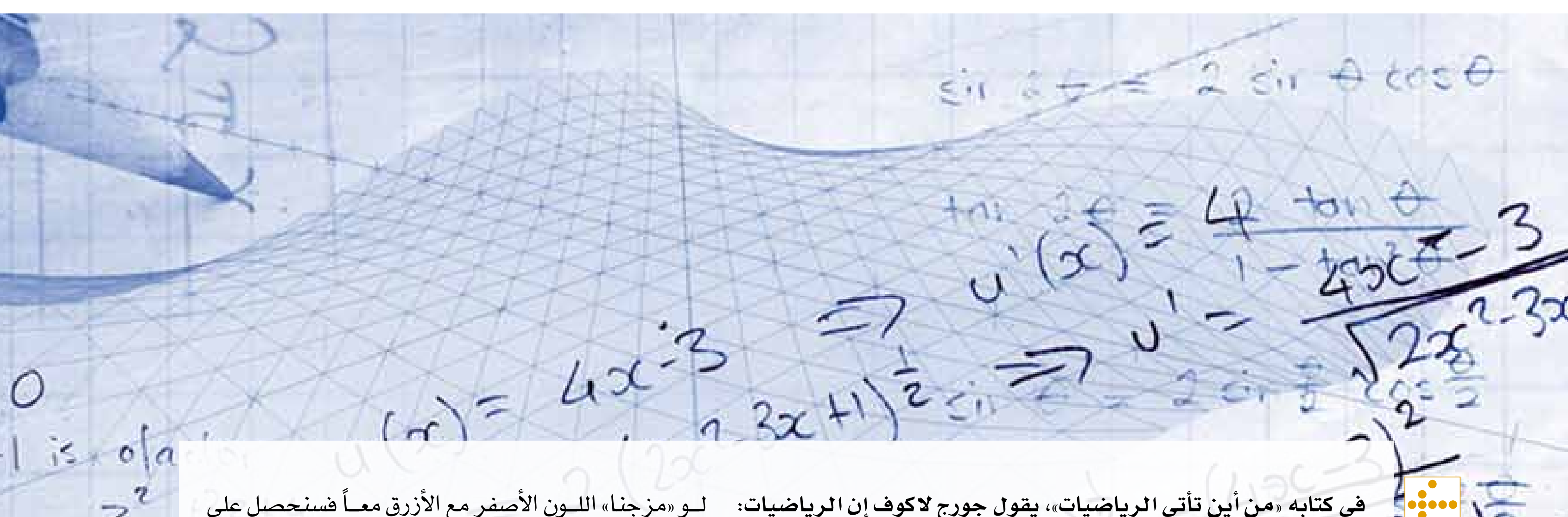


مسائل الرياضيات المفتوحة بلا حل

نسمع عن مسائل في الرياضيات ليس لها حل، ونسمع عن مسائل حلّها عباقرة بعد أن كانت غير قابلة للحل. فما هي حكاية المسائل التي ليس لها حل؟، وما أهمية كل هذا الصخب الذي شغل علماء الرياضيات والمهتمين بها؟، هل من الممكن فهم هذا الموضوع بيسر بعيداً عن تعقيدات المتخصصين؟

فاضل التركي، يتناول هذا الموضوع بالتدرج، بدءاً باستيعاب الموضوع بالبدء بمعرفة طبيعة الرياضيات، ونشأتها، ثم وجود مسائل لا حل لها عبر مسيرة الرياضيات، ليجول بنا أخيراً على نماذج ممتعة سهلة الفهم من المسائل المفتوحة اليوم، ونتائج وجود أو عدم وجود حل لها على أرض الواقع.

commons.wikimedia.org



في كتابه «من أين تأتي الرياضيات»، يقول جورج لاكوف إن الرياضيات: «دقيقة، متسقة، ثابتة عبر الزمن وعبر المجتمعات الإنسانية، يمكن أن نجعلها مرمّزة، قابلة للحساب ويمكن أن نستخرج منها التعميمات، وهي متوافرة للجميع، موضوعاتها منسجمة مع بعضها، وهي وسيلة فعالة للتوصيف والتوضيح والتنبؤ بكثير من جوانب حياتنا اليومية التي تشمل الحساب والمباني والأعمال والعلوم والتقنية».

الرياضيات هي حقل واسع من الاهتمامات ندرس فيه خصائص الأمور وكيف تتفاعل مع بعضها. لقد بدأت الرياضيات عندما اهتم الإنسان بالعدّ والحساب وتطورت إلى مجموعات من الأدوات والتصنيفات والمصطلحات التي تراوح بين تلك التي هي في غاية التجريد وتلك التي هي في غاية الواقعية. فمن العدّ تدرَّج الإنسان إلى الحساب إلى القياس ثم اهتم بالأشكال وتشابهها ومساحاتها وملاحظة حركة الأجسام في الطبيعة. حتى وصل اليوم إلى علم يندرج تحته الكثير من المجالات الواسعة التي تجعل من متخصص في أحدها لا يعرف شيئاً ذا بال عن مجال آخر من دون أدنى شعور بخجل. وتتنوع مجالات الرياضيات بين الجبر والهندسة التحليلية والتكامل والتفاضل والقياس ونظرية الأشكال والشبكات. وتتنوع الرياضيات بين نظرية الأعداد ونظرية المجموعات والمنطق ونظرية الإحصاء والاحتمالات. وتتوزع هذه المجالات على ما هو تجريدي تماماً، وآخر تطبيقي.

يستل الرياضيون أفكارهم من الطبيعة والواقع. وقد تتطوَّر هذه الأفكار لتتعالى في طبقات من التجريد، فيخترعون أنظمة تُبنى على مسلَّمات أولية، وعمليات وخصائص ثم يضعون القوانين والنظريات ويستخرجون منها خصائص واستنتاجات واكتشافات قد لا تكون خطرت لهم ببال أول الأمر. ولكي نذوق شيئاً من ذلك، لنأخذ مثلاً مجموعة من الألوان، ولنفترض أننا عندما «نمزج» أي لونين معاً، سيظهر لنا لون هو أحد الألوان التي كانت في المجموعة الأساسية.

لو «مزجنا» اللون الأصفر مع الأزرق معاً فسنحصل على اللون الأخضر، الذي هو لون من ألوان المجموعة. فهل إذا غيّرنا ترتيب المزج سيغير ذلك من النتيجة؟ لو مزجنا الأزرق والأصفر، فسنحصل على اللون نفسه في حالة المزج الأولى، أي الأخضر دائماً.

عندما يدرس عالِم الرياضيات مثل هذا المثال، فإنه يحاول أن يلاحظ مجموعة من الخصائص لعملية المزج هذه، وللألوان والنتائج، ليخرج بتعميمات وتجريد يخلص به إلى فكرة مجردة يمكن أن تفيد في مجالات أخرى كثيرة. يستطيع الرياضي الذي يدرس مثل هذا المثال أن يلاحظ مثلاً، أنه مهما مزج من ألوان، فإنه لا يخرج عن مجموعة الألوان الأولى التي عنده. هذه اسمها «خاصية الإغلاق». هناك خاصية التبادل التي لاحظناها عندما بادلنا بين البدء بالأزرق ثم الأصفر أو العكس. لم يغيِّر ذلك شيئاً من النتيجة. يستطيع الرياضي أن يجرب، أن يقوم بعملية بين لونين ثم يأخذ النتيجة ويمزجها بلون آخر. وسيلاحظ أن ذلك يحافظ على خاصية الإغلاق.

إن ملاحظات كهذه في مثال الألوان والأرقام وكل ما حولنا من أشياء وأمور، فتحت مجالاً واسعاً في مجال الجبر، وسَّعَ الجبر من عمليات تجرى على الأرقام إلى عمليات تجرى على موضوعات كثيرة وجديدة وتؤدي إلى اكتشافات مدهشة، ويطلق عليه اسم «مجال البنى الجبرية» الذي يضم كثيراً من البنى المفيدة مثل الزمر والمجموعات والحقول والحلقات ولها تطبيقاتها في العلم والتكنولوجيا وجوانب الحياة اليومية.

حكاية المسائل التي لا تُحل؟

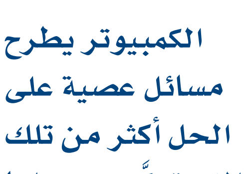
كيف يمكن أن توجد مسألة بلا حل؟ للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن ندرك أن العلماء حين يطرحون مسألة ما للنقاش فإنهم مطالبون بحلها وفق التصورات المثبتة لشكل







إقليدس، مؤسس الهندسة التي تحمل اسمه



الكمبيوتر يطرح مسائل عصية على الحل أكثر من تلك التي تمكَّن من حلها

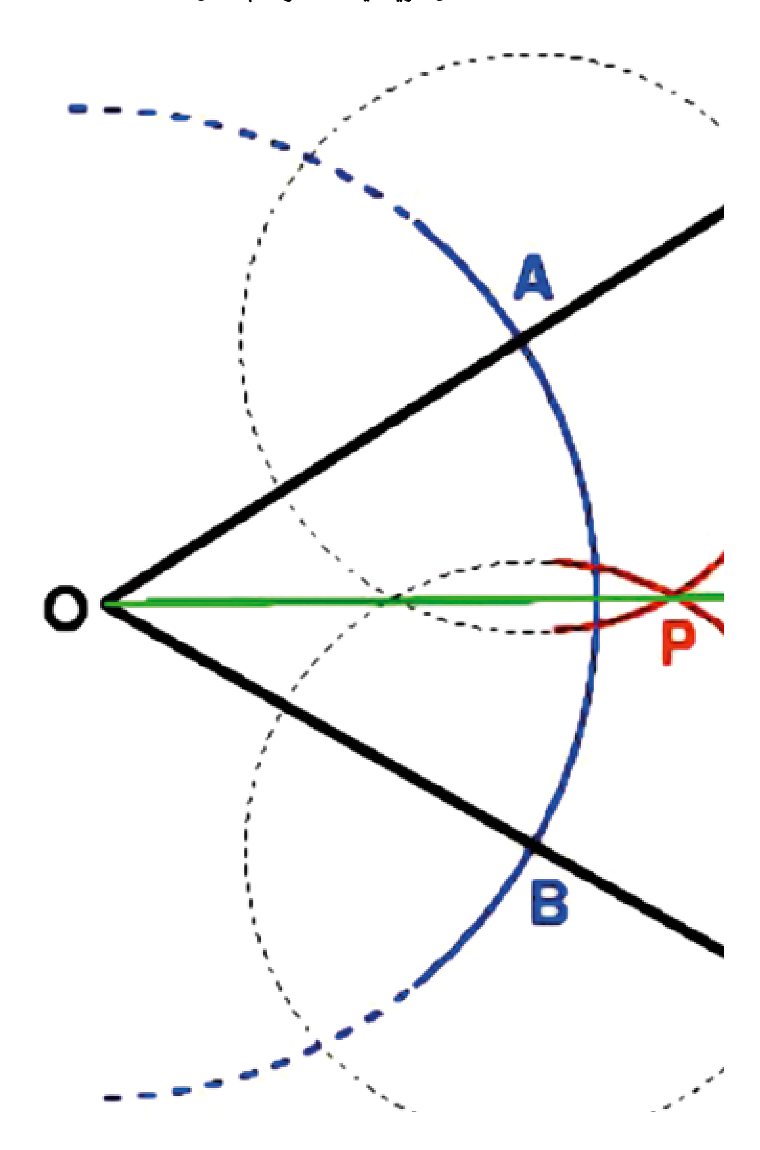
العالم والكون من حولهم. وهذه التصورات خاضعة للتغير بدورها. فعلى سبيل المثال، كانت البشرية مُلزَمة بالتصور الذي وضعه أرسطو وفلاسفة الإغريق بأن الأرض هي مركز الكون. ولم يتغير هذا التصور في العقل الأوروبي حتى القرن السابع عشر الميلادي حين دافع جاليليو عن نظريات كوبرنيكوس القائلة بدوران الأرض حول الشمس. الإثبات العلمي لهذه الفكرة قاد إلى فتوحات علمية عدة بخصوص الكثير من المستغلقات! هناك أيضاً إقليدس وكتابه «العناصر» الذي وضعه في حدود الثلاثمائة سنة قبل الميلاد. ويُعد من الأعمال المبكرة في الرياضيات التي بنيت بصرامة علمية. كان إقليدس قد وضع مجموعة من الفرضيات أسست لكل ما في هندسة الإقليدية بالبرهان، وظلت تدرس حتى بدايات القرن العشرين دون أن يتمكن أحد من الإتيان ببديل. لقد أسست كتب إقليدس الثلاثة عشر أصول الرياضيات التي بنت كثيراً من النظريات وأسست للكثير من المعارف. لم يكن يطلق على الهندسة الرياضية غير اسم «الهندسة» طيلة ألفي عام. لقد احتجنا ألفي عام لكي نتوصل إلى هندسة «لا إقليدية»!

تقول الفرضية الخامسة في الهندسة الإقليدية إنه لو وجد خط مستقيم في سطح ثنائي الأبعاد، ووجدت نقطة خارج المستقيم، فليس هناك إلا خط مستقيم واحد آخر يمكن أن يمر في النقطة هذه ولا يقطع المستقيم الأول. لقد كانت هذه الفرضية ثابتة طيلة ألفي عام. لقد خطر ببال ريمان، أن يجرب سطحاً مثل سطح الكرة الأرضية. إن هذا النموذج من الأسطح، لا يسمح في فرضية إقليدس بأي خط مستقيم مواز للأول. أما إذا تصورنا سطحاً مشابهاً لشرائح بطاطا (برينجلز) مثلاً فإنه بالإمكان رسم عدد لا نهائي من الخطوط المستقيمة الموازية للأول، تمر في تلك النقطة ولا تتقاطع معه. لقد احتجنا ألفي عام كي نخرج من أسر هندسة إقليدس الى عالم جديد من الهندسة اللاإقليدية.

عام 1900م وقف في باريس ديفيد هلبرت، عالم الرياضيات الألماني وطرح ثلاثاً وعشرين مسألة غير محلولة. لقد طلب هلبرت من العلماء أن يتقدَّموا بحلول لهذه المسائل من أجل الانتقال بالرياضيات إلى عوالم جديدة. وتنوَّعت هذه المسائل في المجالات. حظيت هذه المسائل باهتمام بالغ ولقي بعضها حلاً، بينما لم يحالف الحظ الرياضيين في مسائل أخرى. وفي عام 1912م، قدَّم لاندو أربع مسائل تتطلب حلاً. وبعد مئة عام مرت على مسائل هلبرت، تقدم سميل بثماني عشرة مسألة أخرى. وخصص معهد (كليه – Clay) للرياضيات جائزة مليون دولار أمريكي لمجموعة من سبعة مسائل رياضية مستحيلة تنتظر حلاً .. حلت واحدة منها فقط في عام 2006م!

لكن، كيف تظهر هذه المشكلات في الرياضيات؟

من طبيعة علماء الرياضيات أنهم يتتبعون ويرصدون





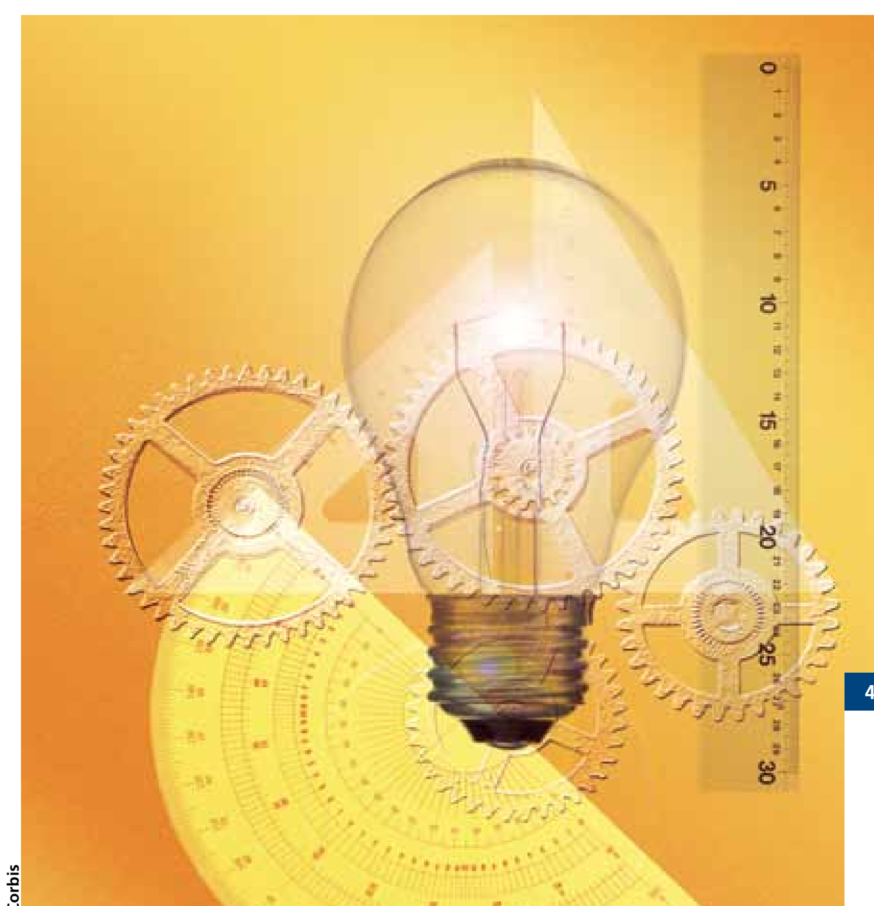
majdah.maktoob.com

الخصائص والميزات، يقارنون ويلاحظون ويستكشفون الأنماط وأوجه الشبه والاختلاف، ويركبون ما يستطيعون من موضوعات مع موضوعات أخرى. ومن طبيعة الرياضيات أيضاً، ترابط موضوعاتها وتنقل الاهتمام بين التجريد العالي إلى العمليات التطبيقية. وزيادة على هذا، فإن علماء الرياضيات لا يفضلون الحساب الميكانيكي المكرر ولا أية عملية تجلب الملل. إنهم إذا أرادوا القيام بحساب مثلاً، يتفادون ما استطاعوا الحساب بطريقة تقليدية، ويستخدمون أساليب وتقنيات جديدة، ويخترعون نظريات وطرقاً لعمل ذلك بشكل أسرع وأكثر فعالية. إنهم بطبيعتهم كعلماء لا يرضيهم ما بين أيديهم. وعملهم الدؤوب يولد الكثير من الملاحظات والاستكشافات والمزيد من الشك في بنى الرياضيات التي أسسوها على البرهان، ويبحثون عن أسئلة جديدة. هكذا تتولد أسئلة ومشكلات تكون شغلهم الشاغل حتى تحل وتستكشف بعدها أراضٍ لم يكونوا وصلوا لها من قبل. وأكثر من ذلك، إنهم قد يفنون حياتهم ويدفعون كل ما لديهم من أجل أن يأتي يوم يرون فيه حلاً لمسألة ظلت عصية عليهم عقوداً من الزمن. ومن نافلة الذكر أن تطور التقنيات الحاسوبية منذ منتصف القرن العشرين قدّم لعلماء الرياضيات أساليب ثورية في حل المعضلات، وتحداهم في الوقت نفسه بأسلوب أحدث في اختلاق أسئلة وتصورات عصية على الحل!

لنتابع ونقترب من بعض هذه المسائل المفتوحة غير المحلولة ونحاول أن نستوعبها ببساطة، ونرى ماذا يمكن أن يحدث لو تم أو لم يتم حلها. سنتناول مسألتين: الأولى رياضية تتعلق بعلم الحاسوب وإيجاد الحلول، وتعرف باسم P مقابل NP. أما الأخرى فهي مسألة إثبات فرضية ريمان. سنناقش الأولى ثم الثانية ونتعرف إلى طبيعتهما وتبعاتهما.

مسألة P مقابل NP

في العلم الحاسوبي يوجد شيء اسمه (الزمن الخطّي – Polynomial Time) أو P-Time اختصاراً، وهو مبدأ معقد يمكن تبسيطه بتصور الزمن الذي يلزمنا لنمُر على الأعداد من 1 إلى عشرة.. نحن سنمر عليها بالتسلسل. والآن لنتصور زمناً هو مضاعف لهذا الزمن الخطي: مربع


Corbis

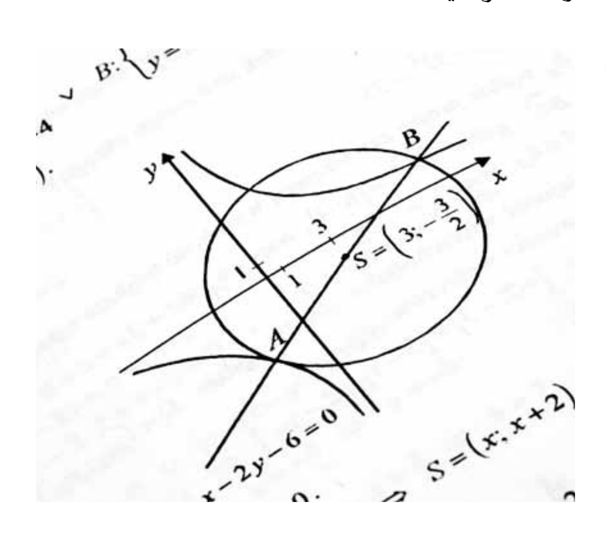
الرياضيات.. أمّ معظم العلوم..

الزمــن الخطــي، أو الجــذر التكعيبي للزمــن الخطي. هذا الزمــن المفترض فــي علم الرياضيات هــو زمن لا-خطي: Non-Polynomial أو NP اختصاراً.

المسألــة المعلَّقــة، حديثــة العهــد نسبيــاً، قدَّمهــا عالــم الحاســوب ستيفن كوك عــام 1971م، وتتعلق بإيجاد حلول برمجيــة -خوارزميات- لحل المعضلات الرياضية. فنحن نكتــب للحاسوب برامج على هيئة خطــوات متسلسلة تصل فــي النهاية إلى ناتج هــو حل للمسألة. لكــن هناك مسائل أعقــد من غيرها. بعض هــذه المسائل قد لا يكون لها حل، وبعضهــا قــد يكون لها حــل، لكن ليســ في وقــت خطّي أو معقول. هذا يعنــي أننا نكتب للمشــكلات البسيطة برامج تنتهــي في وقت معقــول وتصل بنا إلــى النتيجة الحسابية. فــي الرياضيات فإن الوقــت المستغرق لحــل مسألة بشكل «معقول» لا يتجاوز حل معادلــة كثيرة الحدود ذات مجهول واحد س.

أما في عالم الحاسوب فهناك مسائل يصعب حلها في وقت خطــي. فمثــلاً، إذا كان لدينا مجموعة مكونــة من الأعداد 10 و5 و2- و7- و3 و6، فهــل هناك مجموعة من هذه الأعداد يكون مجموعها يساوي صفراً؟ الجواب نعم. يمكن أن نختار مجموعة جزئية منها مكونة من 2- و7- و3 و6. إن جمع هذه الأعــداد المختــارة يساوي صفراً. لكن إيجــاد برنامج لحل مثــل هــذه المسألة لــن يعمل علــى الأقرب لحلهــا في وقت معقــول، خصوصاً إذا كان حجم مجموعة الأعداد المعطاة ضخماً.

مــا هــي المسألة P مقابل NP إذن؟ القســم P من المسألة يقــول إننــا قــد نستطيــع أن نجد حــلاً للمسألــة في وقت معقول. أما القســم NP فيقول إن حل المسألة يتطلب وقتاً غير معقــول. بمعنى آخر، هــل أن المسائــل التي يستغرق التحقق من وجود حل لها وقتاً معقولاً، يستغرق تنفيذ حلها وقتاً معقولاً أيضاً؟



لـم يستطـع الرياضيـون ولا علمـاء الحاسـوب أن يوجدوا برهانـاً يؤكد ذلك. وهـي مسألة من مسائـل معهد (كليه) للرياضيـات. لقد تقدَّم فايني دولاليكار من معهد «اتش بي» للأبحاث ببرهـان في بداية شهر أغسطـس 2010م. وكان خبراً مدوياً في الأوسـاط العلمية بالإضافة إلـى أن فاينـي كان سيحظى بعد شرف هذا البرهـان المرتجى، بمليـون دولار أمريكي. لكـن الفرحـة لـم تكتمـل، إذ مـا إن خـرج البرهـان مفصلاً على الإنترنـت ووصل إلى أيـدي المهتميـن، حتـى تبيَّـن لهـم أن فيه أخطاءً وزلات فتم رفضه.

مئة وخمسون عاماً مرَّت على فرضية ريمان، ولم يتمكن أحد من حلها حتى اليوم

إن التوصـل إلى برهان يثبت أو ينفي علاقة P بـ NP، سيغيِّر كثيراً من القناعات في مجال الحاسوب. وإذا أمكن البرهنة علـى توافر حلول ذات وقت معقـول للمشكلات من فئة NP، لحصل تقدم فـي حل مشكلات شبيهـة بمشكلة المجموعة الجزئية المذكورة أعلاه، مثل مشكلات فك تشفير الحماية السريـة فـي الإنترنت ومشكلـة التنبؤ ببنيـة البروتين التي قـد تحدث تقدماً كبيراً في علـم البيولوجيا. أما إذا لم يتم ذلك، فسوف يذهب بالأمل في وجود حلول ذات وقت معقول لتلك المشـكلات وسيكون خبراً محبطـاً لعلماء الحاسوب، وسيكـون مخرجهم الوحيد هو تطوير حواسيب ذات قدرات معالجة متقدمة جداً، لتقليل الوقت الذي يحتاجه الحاسوب لتنفيذ برامج معقدة الخوارزميات من أجل اختصار الوقت والوصول للنتائج.

يقول صاحب المسألة غير المحلولة، ستيفن كوك: «ستكون نقلة للرياضيات إذ إنها ستجعل الحاسوب قادراً على إيجاد برهـان لكل نظرية ذات برهان معقول الطول، وذلك لأن كل برهان دقيق يمكن إيجاده في وقت معقول».

مسألة فرضية ريمان

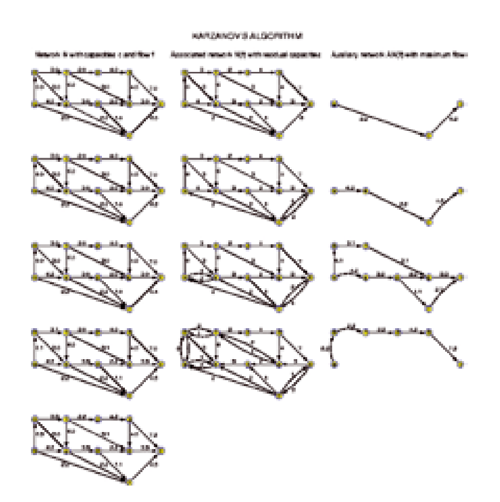
تُعـد هـذه المسألة مـن أعظم المسائـل وأقدمهـا، ويقدِّم

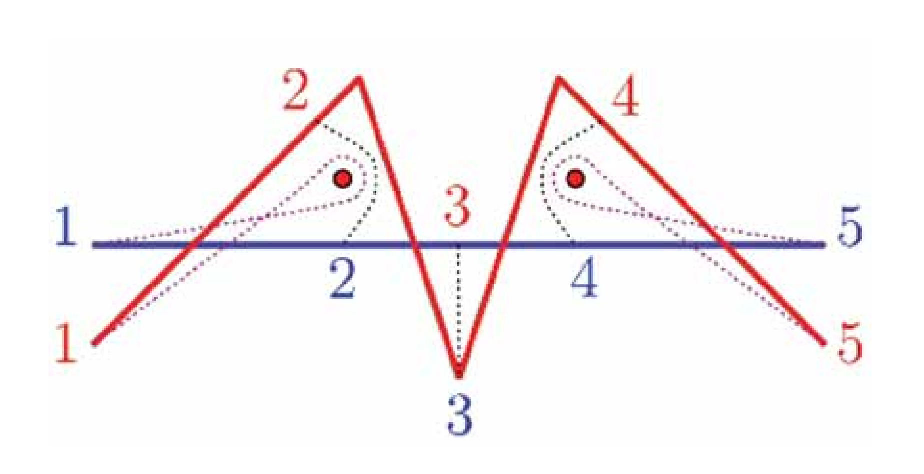

Corbis

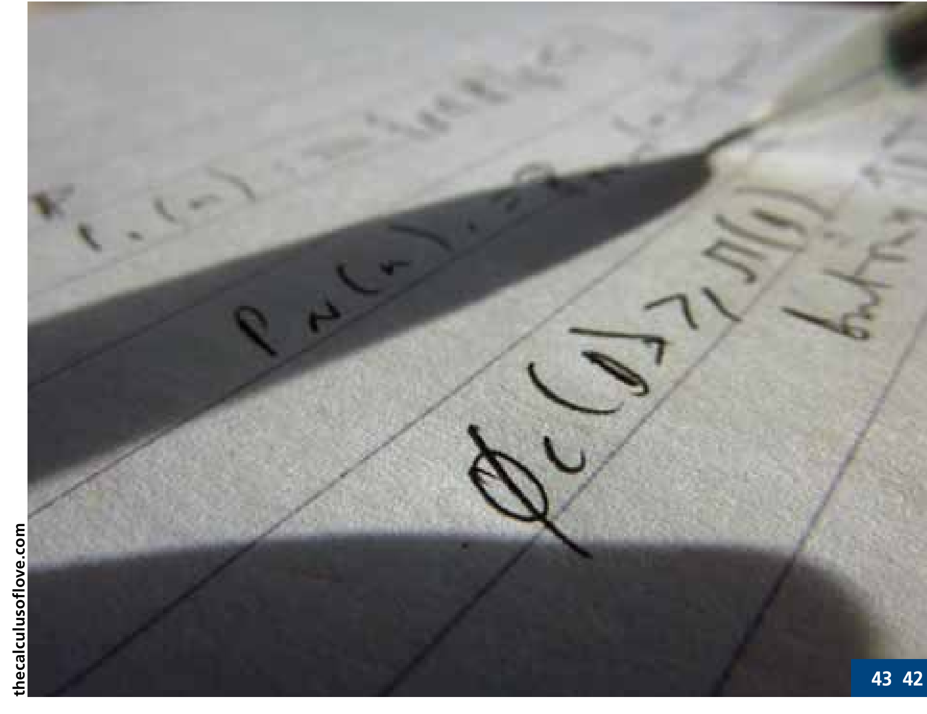
العلماء حياتهم ويدفعون غالي الثمن ليروها يوماً قد حُلّت. إنها من أصعب الفرضيات التي استعصت على توفر برهان لها. إنهـا فرضية ريمـان (Riemann hypothesis) التي كان قدَّمها عام 1859م. مئة وخمسون عاماً ولم يتقدَّم أحد ببرهـان على فرضية من ضمن نتائجهـا أن تحدد لنا كيف تتوزع الأعداد الأولية في عالم الأرقام.

قبـل أن نقتـرب مـن هـذه الفرضيـة وخطورتهـا، لنحاول فهـم الأساسيات. العـدد الأولي في الرياضيـات هو العدد الـذي لا يقبـل القسمة إلا علـى نفسه أو علـى الواحد، مثل الأعـداد 1 و2 و3 و5 و7 و11 ... وهـذه الأعـداد لهـا الكثير مـن الخصائـص المميزة عدا ما ذكرنا مـن خاصية قبول القسمة. لم يعرف علماء الرياضيات طريقة يستطيعون من خلالها معرفة توزيع الأعداد الطبيعية وطريقة استخراجها سـوى ما قدَّمـه ريمان من فرضيـة ليس عليهـا برهان. إن الأعـداد الاولية ليس لهـا نظام يحدد كيـف تتوزع في خط الأعداد. لكن ريمان قدَّم دالة أطلق عليها اسم «زيتا»، كانت استخرجت عـدداً كبيراً من الأعداد الأوليـة ورسمتها على خط عمودي ثابت.

وقد صمم ريمان «زيتا» هذه بحيث أنه كلما أدخل رقماً أولياً إليهـا، كان جـواب الدالة صفراً. والدالـة د (س) = س -1






thecalculusoflove.com

تكـون صفراً عندما نعوِّض عن س بالعدد 1، ونقول في هذه الحالـة أن 1 هو صفر لهذه الدالـة. لقد تم استخراج حلول لدالـة ريمان بمـا يسـاوي مليـار وخمسـة مليـون صفر. والمقصود بذلك، أنه تم حتى اليـوم استخـراج هـذا العـدد مـن الأعداد الأولية، ولكن ليس هناك برهان على أن هذه الدالـة ستعمل لكل الأعـداد الأولية في خط الأعـداد اللانهائـي. إن هذه الدالـة «زيتا» ليسـت مختصة بالأعـداد الأوليـة وحسب. إنهـا تستخـرج دائمـاً أعـداداً مركبـة من جزئين حقيقـي وتخيلي. ومـن عجائبها أن العدد الحقيقي عندما يكون صفراً هو دائماً نصف (2/1).

راسل ووايتهيد يكشفان في كتابهما «أصول الرياضيات» الكثير من الثغرات والتناقضات في هذا العلم

المشكلـة أننا في العلم الطبيعي، والرياضيات أنقى درجات العلـم، لا يمكن أن نصـدِّق بمقولة أو فرضيـة حتى نبرهن عليهـا. فتكرار نجاح تجربة ما عدداً كبيـراً من المرات، لا يعني بحال من الأحوال صدقهـا مطلقاً وأبداً. فخلل واحد، أو تجربـة تخرج بنتيجـة غير متوقعة واحـدة، سينسف كل شيء. وفي الرياضيات، لا يمكن قبول المقولات والفرضيات ولا تصـل إلى مرحلـة نطلق عليها اسـم القانون حتى نقدِّم علـى ذلك برهاناً قاطعاً. وحتى اليوم، لم يظهر برهان على صدق فرضية ريمان، التي بقيت أحد التحديات السبع التي شهرها معهد «كليه» في وجه العالم منذ عام 2000م مقابل مليون دولار أمريكي لمن يقدِّم برهاناً على صدقها.

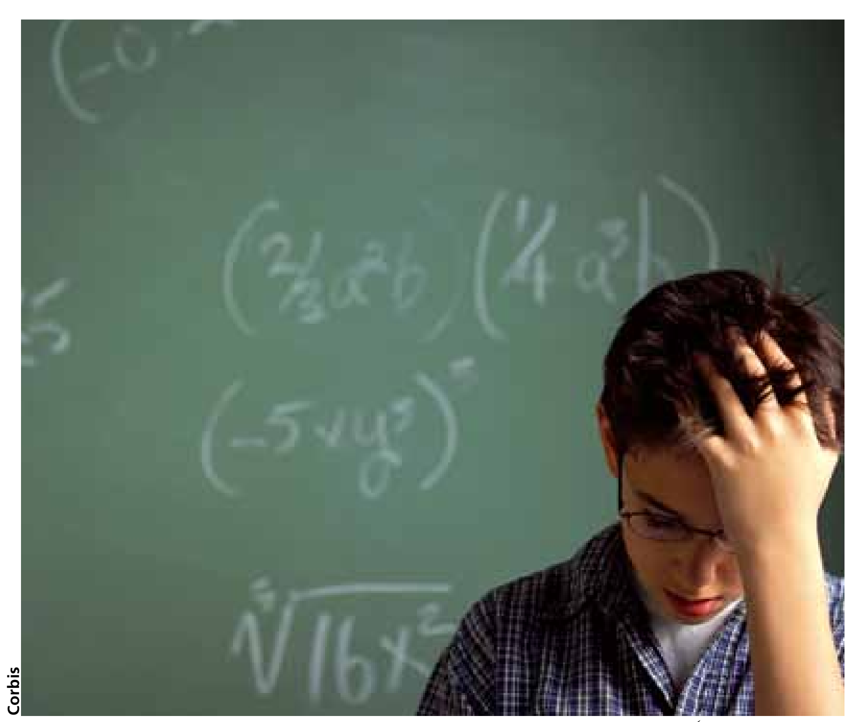
بالإضافـة إلى كـون هذه المسألة، مـن مسائل معهد «كليه» ذات الأولويـة والأهميـة، فإن مسألة إثباتهـا كانت المسألة الثامنـة فـي قائمـة هلبـرت. إن البرهنة على صـدق هذه النظريـة سيكشف لنا توزيع الأعـداد الأولية التي هي حجر الأسـاس للأعـداد والتـي يمكن لنـا أن نحلل كل عـدد إلى أعـداده الأولية. إنها ستكشـف لنا عن مساحات الفراغ بين كل عـدد أولي وآخـر. فهناك مـن يربط نتائـج إثبات هذه الفرضيـة بتطورات فـي فيزياء الكـم وأخطـاراً على أمان الإنترنـت واكتشـاف وسائـل التعمية والترميز فـي صناعة المفاتيح.

لكـن، يبـدو أن فرضيـة ريمان هـذه صعبـة النقض حسب تصور كثير مـن العلماء، وأنها تعمل بشكل غريب ومدهش. لقد سـأل أحدهم ديفيد هلبرت في آخر أيامه عما يريد أن يكـون أو عن سؤال يسأله لو عاد إلـى الحياة بعد خمسمائة عام، فرد قائلاً: «هل أثبت أحد فرضية ريمان؟». لقد عاش ريمـان أربعين عاماً وحسب، والورقـات القليلة التي نشرها فـي الرياضيات غيّرت وجههـا إلى الأبـد. ومهّدت لنظرية آينشتايـن في نسبتيه العامة بخصوص ما تحدثنا عنه في الهندسة اللاإقليدية والخطوط المتوازية.

هل حدث أن حلت بعض المسائل المفتوحة؟

لقـد تمكن عـدد مـن علمـاء الرياضيـات من بعض هذه المسائـل المفتوحـة علـى مـر السنـوات. ونذكـر حكايـة بيرلمـان، الرياضـي الروسـي الـذي رفض المليـون دولار أمريكـي جـزاء إثباتـه حدسيـة «بونكاريه» الشهيـرة التي ظلـت بلا برهـان لقرن من الزمان. وتم حـل مسائل أخرى مـن ضمن المسائـل المفتوحة، فتحت آفاقـاً جديدة وآمالاً وحركت عزائم علماء الرياضيـات لبذل المزيد من الجهد وتوسيع الخيال والإمكانات.

كان برتراند راسل ووايتهيد في وقت قريب من طرح هلبرت للمسائـل المفتوحة عام 1900م، قد نشـرا كتابهما «أصول الرياضيات»، الذي كان الهدف منه مراجعة كل الرياضيات وتأسيسهـا مجـدداً علـى أسـس أكثـر صرامـة مبنية على المنطـق والبرهـان، حتى لأنـك تجد برهاناً لـ 1+1=2 في صفحـات مفصلة! لقد كشف عمل راسل ووايتهيد أن هناك الكثيـر من الثغرات والمتناقضـات في هذا العلم. وقد قدَّم راسـل حلاً لبعض ما اكتشفه من متناقضات. وعندما تقدم كرت جودل لمسائل هلبرت وكانت بين يديه نسخة من كتاب راسـل ووايتهيد، ضرب اليقين الذي كانت عليه الرياضيات وتحولت إلى أرضية مهزوزة. كان جودل يريد أن يساعد في حـل المسائل، فحل واحدة وانقلب فـي الثانية ليثبت أن أي نظـام رياضي هو غير كامل، وغيـر متسق كقانون عام قدم عليـه البرهـان. إن ذلك دفع بعلماء الرياضيات إلى التفكير في بنـاء أرضية أكثر ثباتاً مما كانت عليه الرياضيات طيلة القرون السابقة.



Corbis

كم من التفكير يتطلّب حلها؟

thimet.de

إن طبيعة الرياضيات تتميز عن طبيعة العلوم الطبيعية الأخرى في كونها علماً متراكم المعارف، يبنى جديد الأفكار فيها على ما تم إثباته مقدماً. وإذا وضعنا بعد الملاحظة والدراسة نظاماً جديداً، فيجب أن نسلم بفرضية من دون مبررات ولا نفترض صحة فكرة هكذا ابتداء. إن المنهج العلمي لهو أساس بارز في تأسيس الفكر الرياضي، ويكون في أقصى درجات الأناقة والتصميم.

الرياضيات التي تلمع وتلوح أنيقة من الخارج، تغلي وتموج، وما زالت في مرحلة التأسيس والمراجعة!

وهناك ميزة أخرى من ميزات الرياضيات، وهي أن موضوعاتها ومجالاتها تترابط فيما بينها برباط ينسجها مهما بعدت عن بعضها. وزيادة على ذلك، فإن هذه المجالات والموضوعات قد نركّبها كعناصر، نجري عليها عمليات أعلى، فتصبح رياضيات جديدة عليها تعمل على رياضيات تحتها. لن يكون ذلك بالطبع ترفاً فكرياً ولا صراعاً على ورق. إنه عالم عجيب من أرقى ما ينتج الفكر الإنساني، ويعود عليه بانعكاسات على الواقع في فهم هذا العالم، واختراع التسهيلات وتسخير التكنولوجيا التي لم تكن ممكنة بدونها. إن أقصى طموحات العلوم الطبيعية المتقدمة التي تفيد من الرياضيات، أن تصل في النظري إلى درجة عليا من الأناقة كهذه.

كانت النسبية ستكتشف قبل أن يكتشفها آينشتاين بأربعين سنة، وكان ريمان قدَّم لها قواعدها الراسخة يوم قدَّم فكرة نموذج للهندسة اللاإقليدية. واليوم، يلتقي الفيزيائيون بالرياضيين الذين خدموهم كثيراً فأسسوا فيزياء جديدة. ويقترح آينشتاين تقديم حلول لمعضلات في نظرية الأعداد، وآخرون يفكرون في حلول لمسألة فرضية ريمان فيما يتعلق بالأعداد الأولية وعلاقتها بمستويات الطاقة في الذرات في عالم فيزياء الكم.

رأينا كيف بدأت الرياضيات، ولمحنا سريعاً كيف تأتي وكيف تخترع بكل هذه الأناقة وكيف يستفاد منها في مجالاتها المتنوعة باختلاف درجة تجريد أفكارها وقربها من التطبيقي.

لقد استغرقنا 2000 عام لكي ندرك أن الهندسة الإقليدية ليست كل شيء، وأن هناك غيرها لم نتصوره. وكم تصورنا ونحن نحدّ عدد المسائل والمعضلات بعدد، أننا اقتربنا من توحيد صيغة واحدة تجعل من الرياضيات حقلاً مترابطاً بشكل تام، فوجدنا أن ذلك نذير خطر بهدم أساس هنا وأساس هناك، وربما نسف كل جهود الإنسانية، ليتطلب منا إعادة بناء كل شيء من جديد.

لم تكن الرياضيات في هدوء منذ نشأتها، بل إن في مسائلها المفتوحة ما زالت مفتوحة لقرون لم تُحل. وبعيداً عن هذه المسائل المفتوحة، ظلت الرياضيات تلمع وتلوح أنيقة صارمة من الخارج، وهي تغلي وتموج من الداخل في حال التأسيس والمراجعة، يؤجج نارها بنُوها من العلماء، وفاءً لها منهم وحباً. بقي أن عجلة تقدم هذه الرياضيات رهينة باتساع معرفة علمائها وجلدهم وقدرتهم على الصبر وسعة الخيال وإصرارهم على فتح مسائل جديدة، ولو اضطرهم ذلك العودة إلى أقصى البدايات.

1 الأخطبوط «بول»..علمياً

الدهشة التي أثارها الأخطبوط «بول» بسبب قدرته على توقع الفريق الفائز ثماني مرات متتالية في بطولة المونديال لكرة القدم، لم تكن هي نفسها عند علماء الرياضيات. فبعد هدوء العاصفة الإعلامية بحيث بات ممكناً الاستماع إلى صوت العقل، ينفي العلماء اليوم قدرة الحيوانات على توقع أي شيء بشكل صحيح، ويؤكدون عدم وجود أي شيء خارق في أداء الأخطبوط الألماني استناداً إلى علم الحساب.



bet.altweet.com

وفي هذا الصدد يقول البروفيسور في علم الرياضيات والإحصاء في جامعة باريس الخامسة الدكتور أفنير بار-هين، إن احتمال أن يصيب الأخطبوط في حكمه في كل مرة هو 1 على 2 طالما أن هناك احتمالين فقط (الفوز أو الخسارة). أما الاحتمال في أن يصيب ثماني مرات من أصل ثمانية اختبارات فيعادل 2/1 مرفوعة إلى القوة 8، أي 0.39%. هذه النسبة تبدو قليلة، ولكنها ليست مستحيلة. لأن العلماء رصدوا حالات أهم من هذه بكثير، كما حصل في سبتمبر من العام 2009م، عندما فازت الأرقام نفسها في اليانصيب البلغاري خلال أسبوعين متتاليين، واحتمال ذلك علمياً هو واحد من 4.2 مليون مرة.

إضافة إلى ما تقدم، كشفت مصادر صحافية أن حديقة الحيوانات الألمانية التي تأوي الأخطبوط بول كانت قد «جندت» لتوقع نتائج المباريات، عدداً كبيراً من الحيوانات مثل الببغاء السنغافوري «ماني» والأرنب الفرنسي «ريجيس»، والقرد بينو وغير ذلك الكثير.. ولم ينجح أي حيوان من هذه الحيوانات في تحقيق النتيجة التي حققها «بول». ولكن مجرد وجود عدد كبير من العاملين في المجال نفسه، يزيد من احتمالات توصل أحدهم إلى النتيجة (أربعة حيوانات فقط ترفع احتمال النجاح من 0.39 إلى 1.6%) الأمر الذي كان من نصيب الأخطبوط.

2 لصوص الموسيقى في قبضة الكمبيوتر

طوَّرت مؤسسة «شازام» الأوروبية برنامجاً للكمبيوتر قد يصبح صاحب الكلمة الفصل في الحكم على الأعمال الموسيقية الأصلية وكشف «الاقتباس» والسرقة، حتى ولو اقتصرت على ربع جملة موسيقية صغيرة في معزوفة طويلة.

لم تكن هذه الغاية من الابتكار، ولكن من المرجح أن تكون من أكثر تطبيقاته إثارة للاهتمام. فالبرنامج مصمم أساساً ليكشف لمستخدمه اسم المقطوعة الموسيقية بعد الاستماع لعشر ثوان فقط من أي مقطع من أية معزوفة من العشرة ملايين معزوفة التي تضمها ذاكرته.

يعمل هذا البرنامج على تحويل الموجات الصوتية إلى رسم بياني أشبه بسطح تقوم فوقه مرتفعات حادة متفاوتة الأطوال، ويقرأ البرنامج المسافات الفاصلة بين قمم هذه المرتفعات ليبحث في ذاكرته عما يطابقها.

ولهذا، فإن كل معزوفة موسيقية جديدة تتضمن ولو جزءاً صغيراً منتحلاً من معزوفة أخرى، سيعلن الجهاز فوراً عن صاحبها الأصلي، الأمر الذي يفترض فيه أن يؤرق بال «المقتبسين».

3 كيف تعمل الألياف البصرية؟

الألياف البصرية التي راج استخدامها منذ سنوات قليلة في عالم الاتصالات ليست اختراعاً حديث العهد، إذ كانت موجودة قبل الكمبيوتر والإنترنت وحتى قبل التلفزيون. فقد بدأ الاهتمام النظري بها منذ عشرينيات القرن الماضي. ولكن أول سلك (كابيل) من الألياف البصرية ظهر على يد العالم الهندي ناريندر كاباني عام 1955م، وبعد ذلك بعقد، بدأ استخدامه لإجراء المكالمات الهاتفية (1966م)، ومن ثم راح يحل محل الأسلاك النحاسية بسبب انخفاض تكلفة إنتاجه مقارنة بثمن النحاس والأسلاك المصنوعة منه.

فكيف تعمل هذه الأسلاك؟

يتألف كل سلك من الألياف البصرية من قسمين رئيسين مصنوعين من مادة شفافة (الزجاج غالباً)، وهما النواة أو السلك الداخلي، وغلافه الخارجي، مع اختلاف في مواصفات كل منهما. فمؤشر الانكسار الضوئي داخل السلك الداخلي يجب أن يكون أعلى مما هو في غلافه، وهكذا، عندما يدخل الضوء أو الموجة الصوتية إلى النواة، ترسلها هذه إلى غلافها، الذي يردها إليها لتسقط على موضع آخر، وهكذا تظل هذه الموجة تتنقل داخل السلك حتى تصل إلى طرفه الآخر، حيث يقوم جهاز الكمبيوتر بتحليلها وقراءتها. وقد تطورت صناعة


wikipedia

الألياف البصرية اليوم بحيث صارت تُجمع في باقات من مئات أو آلاف الألياف ضمن الكابل الواحد، ويتمكن كل من هذه الألياف على حدة من نقل نحو 10 جيجابايت في الثانية وبسرعة الضوء طبعاً.

تبقى الإشارة إلى أن الملاحظة الأولى التي قادت إلى هذا الاختراع تعود إلى حجر كريم شفاف يدعى الأوليكسيت يتمتع بخاصية نقل الصورة إلى سطحه.

4 الأرصاد الجوية.. ما مدى صحة التوقعات؟

تأسس علم الأرصاد الجوية الحديث على يد الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث الذي راعه فقدان عدد كبير من سفن أسطوله في البحر الأسود نتيجة عاصفة مفاجئة هبت في أحد أيام نوفمبر من العام 1854م، فأمر عدداً من ضباط البحرية وعلماء الجغرافيا بدراسة الظروف التي أدت إلى هبوب هذه العاصفة، سعياً إلى توقع غيرها لاحقاً.

وطوال العقود التالية ظل علم الأرصاد الجوية يتطور، وظل العلماء يكتشفون المزيد من العوامل والمؤثرات وأنماط تفاعلها فيما بينها لصياغة حال الطقس في مكان معين وفي وقت محدد.

وبحلول العام 1922م، وضع العالم الإنجليزي فراي ريتشاردسون نظاماً قائماً على حسابات رياضية لتوقع حالة الطقس، وتصورا لإنشاء مركز قادر على إجراء الحسابات يضم 64 ألف موظف!!

ومع ذلك، ظلَّت توقعات الأرصاد تفتقر إلى الصدقية حتى ظهور جهاز الكمبيوتر.

وحتى اليوم، ورغم الاعتماد على الأقمار الصناعية في مراقبة الغلاف الجوي للأرض، وصولاً إلى الحرارة في أعماق المحيطات، وأيضاً حركة الغيوم وسرعتها وقياس الضغط الجوي، وتحليل ذلك بواسطة أكثر البرامج تطوراً على أجهزة الكمبيوتر، تؤكد الدراسات والإحصاءات أنه في العقد الأول من القرن الحالي، ظلت نسبة الصحة في توقع حالة الطقس لثلاثة أيام مقبلة في حدود 70% فقط من إجمالي التوقعات عالمياً.

wikimedia

قصة ابتكار

الأطعمة المجمدة

منذ القدم، عرف سكان المناطق شديدة البرودة تجميد الطعام كواحد من وسائل حفظه. وكان سكان المناطق القطبية بالتحديد، يعتمدون على ما يحفظونه من اللحم والأسماك بعد صيدها، كمصدر الطعام الأساسي لهم خلال شهور الشتاء الطويلة القارصة.

لكن الأمر لم يكن ممكناً على نطاق واسع، في أجواء أكثر حرارة من المناطق القطبية. إذ إنه كلما زاد الوقت اللازم لتجميد الطعام، تكونت بلُورات ثلجية أكبر حجماً. هذه البلُورات، تسبب تمزقاً لغشاء خلايا الطعام المحفوظ من اللحم والخضراوات والفاكهة. وحين يعود الطعام إلى درجة الحرارة العادية، تذوب البلُورات الثلجية، وتتكسر معها الأنسجة، ويندفع الماء خارج الخلايا حاملاً معه الكثير من طعمها وقيمتها الغذائية.

لكن حين سافر كليرنس بيردساي إلى القطب الشمالي، عاد ومعه فكرة مختلفة. كان بيردساي باحثاً في العلوم البيولوجية، وقد سافر إلى المنطقة القطبية في بعثة للحكومة الأمريكية. وشاهد هناك كيف أن الأسماك التي يقوم بصيدها، كما يفعل السكان المحليون، تتجمد فوراً حالما يتم سحبها من الماء. والأهم، أن هذه الأسماك كانت تحتفظ بطعمها، حتى حين يقوم بتناولها بعد أشهر من صيدها. ومن خبرته هذه، استنتج بيردساي أن الطعام لابد وأن يتجمد سريعاً، حتى يحتفظ بسلامة أنسجته، وبطعمه الأصلي.

ولتحقيق هذا الأمر، كان على بيردساي أن يبتكر بيئة صناعية مناسبة، تصل فيها الحرارة إلى درجات شديدة الانخفاض، بحيث تنتقل هذه البرودة إلى الطعام بصورة لحظية. وقد نجح بالفعل في ابتكار طريقتين. كانت الأولى تعتمد على ضغط الأطعمة بعد تعبئتها بين سيرين من المعدن، تبلغ درجة حرارتهما 7 درجات مئوية تحت الصفر، عن طريق التبريد بمحلول كلوريد الكالسيوم. أما الطريقة الثانية فكان يستخدم فيها الضغط المنخفض، بالإضافة إلى التبريد الذي يحصل عليه من تبخر الأمونيا.



واليوم تحتل صناعة الأطعمة المجمدة مرتبة عالية وسط الصناعات المختلفة في عالمنا المعاصر، وتشمل المنتجات المجمدة جميع أصناف الطعام، وعلى رأسها اللحوم والأسماك والخضراوات وأيضاً الفاكهة. ولا يمكن أن نتخيل الآن بيتاً يخلو منها، ويكفي أن نلقي نظرة على القسم الذي يخصص لها في كل سوبر ماركت، أياً كان حجمه وطبيعة زبائنه.

ورغم التحذيرات الصحية من الاعتماد الكلي على الأطعمة المجمدة، إلا أنها ستظل ضيفاً مرحباً به دائماً على موائدنا. فميزتها في سهولة الاستخدام وسرعته، تعطيها الكثير من الثقل. كما أنها تكون خياراً صحياً مناسباً، إذا تم إنتاجها بأساليب عالية المعايير والجودة. فخبراء التغذية يقولون إن الخضراوات والفاكهة المجمدة، تكون طازجة أكثر من تلك المعروضة في الأسواق والسوبرماركت لمدة تزيد عن اليومين من موعد قطفها. فخلال هذين اليومين تفقد معظم أنواع الخضراوات والفاكهة النسبة الأكبر من محتوياتها من الفيتامينات، أما تلك التي يتم تجميدها مباشرة بعد قطفها فتظل محتفظة بنسبة عالية من قيمتها الغذائية، تكاد تماثل تلك التي تحتويها الخضراوات «المثالية» التي تأتي من الحقل إلى المائدة مباشرة.

قصة مبتكر

تويويتشي تـاناكا

ولـد تويويتشـي تانـاكا بمدينـة ناجـاوكا اليابانيـة فـي العـام 1946م. وتلقـى تعليمـه الجامعـي بجامعة طوكيو، التي حصـل منها على درجـة البكالوريوس في الفيزياء في العام 1968م. ثم استكمل دراسته ليحصل على درجة الماجستير في العام 1970م، ثم الدكتوراة بعـد ذلـك بسـنوات ثـلاث. وفي العـام 1975م، سـافر تاناكا إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكية، ليلتحق بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) المرموق.

كانـت أبحاث تاناكا موجهة صـوب اختصـاص معيَّن، هو دراسـة المواد الهلاميـة أو الجل. وهي مـواد مركبة، تتكون من سلسـلة طويلة مـن الجزيئيات المترابطة ببعضـها البعض في تركيب يشـبه الشـبكة. وعن طريق الفراغات الموجودة بتلك الشـبكة، تسـتطيع هذه المواد أن تحتفظ بالماء أو السوائل بداخلها، وهو الأمر الذي يكسبها خصائصها المميزة بالمرونة الفائقة.

وخـلال سـنوات مـن البحث والدراسـة، اكتشـف تاناكا نوعاً خاصـاً مـن المواد الهلاميـة، أطلق عليهـا اسـم «المواد الهلامية الذكية». إذ إنها تسـتجيب، وبحساسـية شـديدة، لأيـة تغيرات في محيطهـا، فتتمـدد أو تنكمش تبعاً للتغيرات في درجة الحرارة، أو شـدة الإنارة، أو نوع المادة المذيبة.

رأى تانـاكا فـي هـذه المجموعة مـن المواد إمكانيـات هائلة. فقدرتهـا الكبيرة علـى التغيـر فـي الحجـم، تجعلها مـادة بناء مناسـبة لتصـميم أنظمة خاصـة، قادرة على امتصاص أو إطلاق مواد معينة في الوسط المحيط بها. وأحد أهم المجـالات التـي يمكـن أن تسـتفيد من هـذه التطبيقات هو المجـال الطبي. إذ يمكن الاعتماد على المواد الهلامية الذكية في إنتاج نظام علاجي يطلق المادة الدوائية داخل جسم المريض عند الحاجة لها. كما يمكن استخدامها لتصميم إسفنجة عملاقة، لامتصاص المخلفات السامة، كالملوثات وبقع النفط، والتي تسـبب مشكلة بيئية ضخمة حين تتسرب إلى المسطحات المائية كالمحيطات والبحار.

سجل تاناكا أكثر من ثماني براءات اختراع اعتماداً على ما توصلت إليه أبحاثه. وفـي العام 1992م أسـس شـركتي «جل مـد»، و«جل سـاينسـيز»، لتكونا قاعدتين لاستكشـاف ودعـم المزيـد مـن التطبيقـات الطبيـة، والصـناعية، والتجاريـة، للمواد الهلامية الذكية.

احتفـى المجتمـع العلمـي كثيـراً بإنجازات تانـاكا ونتائـج عملـه وأبحاثه. ففي العام 1992م أصـبح عضـواً في المجمع الفيزيائي الأمريكي. وفي العام 1996م حصـل على جائزة مجلة «ديسـكفر» العلمية. وفي اليابان وطنه الأم، نال تاناكا الكثير من التكريم. فقد حصل في العام 1985م على جائزة «نيشينا» التذكارية، وجائزة «توراي» العلمية في العام 1997م. كما منحته فرنسا جائزة التميز عن أعماله في العام 1993م.

فـي العـام 2000م، رحل تويويتشـي تاناكا عن عالمنا، إثر إصـابته بأزمة قلبية. تـاركاً خلفه إرثاً علمياً مهماً، وباباً مفتوحاً على سلسلة من التطبيقات والابتكارات.

اطلب العلم

في الخمسينيات، كان الطبيب والباحث الأمريكي جوناس سالك يعمل على اكتشاف علاج لمرض شلل الأطفال، في معمل مظلم يشغل قبواً في بناية بمدينة بيتسبرج. وكان العمل صعباً، والتقدم فيه بطيئاً، لذلك قرر سالك أن يسافر لتصفية ذهنه، وقصد بلدة أسيزي الإيطالية. وهناك، أقام في مبنى قديم من طراز القرن الثالث عشر، حيث كان يقضي وقته في التجوال بين أعمدته وساحاته الفسيحة. وفجأة، وجد سالك أن عقله قد انفتح على رؤى وأفكار جديدة، كان من ضمنها تلك التي قادته إلى اكتشاف لقاحه الناجح ضد مرض شلل الأطفال.

أبنية صديقة .. للعقل

توقف سالك كثيراً بعد نجاحه، عند التأثير الكبير الذي أحدثه تواجده في تلك البيئة الجديدة، في قدرته على التفكير والابتكار. ولأنه لمس بنفسه كيف يمكن أن يؤثر المكان وخصائصه المعمارية على الأداء العقلي، فقد قرر التعاون مع المهندس المعماري لويس كان، لبناء معهد سالك بولاية كاليفورنيا الأمريكية، ليكون أول معهد للعلوم يصمم بغرض تحفيز التفكير والابتكار، وإحداث قفزات معرفية.

واليوم، تلقي الأبحاث العلمية مزيداً من الضوء والتوضيح، على الاستنتاجات التي تربط بين الأداء العقلي للإنسان والخصائص المعمارية لبيئته. ففي العام 2007م قامت جون مايرز الباحثة بجامعة مينيسوتا الأمريكية بدراسة، أوضحت نتائجها كيف أن ارتفاع سقف الغرف يؤثر كثيراً على طريقة تفكير من يشغلونها. ففي الغرف ذات السقوف المنخفضة، يميل الأشخاص إلى التركيز على التفاصيل الدقيقة. أما في الغرف التي يبلغ ارتفاع سقفها حوالي 3 أمتار، فيبدأ الأشخاص في التفكير بصورة أكثر تجريدية، وفي تكوين علاقات جديدة غير تقليدية بين المعطيات العقلية التي تقدَّم لهم.

«الأمر يتوقف على طبيعة المهمة».. هذا ما تستخلصه مايرز من نتائج تجربتها. فأحياناً تحتاج المهام التي نقوم بها إلى مزيد من التركيز على التفاصيل، ولهذا يمكن أن يمثل السقف المنخفض ميزة مهمة في غرفة العمليات. بينما يزيد المرسم ذو السقف المرتفع، من قدرة الرسام على استحضار أفكار جديدة، وإنتاج لوحاته بمزيد من السهولة والانسيابية في التفكير .

وإلى جانب ارتفاع السقف، فإن المنظر الذي توفره الغرفة من نوافذها يؤثر أيضاً على الأداء العقلي. وعلى الرغم من أن النظر عبر النافذة، مرتبط في بالنا بالتشتت، إلا أن الأبحاث تؤكد أن الإطلال على حديقة أو مساحة خضراء، يرفع القدرة على التركيز. ففي دراسة أجراها كينيث تانر الباحث بجامعة جورجيا الأمريكية، اتضح أن الطلبة الذين تطل فصولهم على مساحات مفتوحة من عناصر طبيعية، يحققون نتائج أعلى في اختبارات اللغة والرياضيات، من رفقائهم الذين تطل فصولهم على المباني والطرق وساحات انتظار السيارات، وغيرها من عناصر الحياة في المدن.

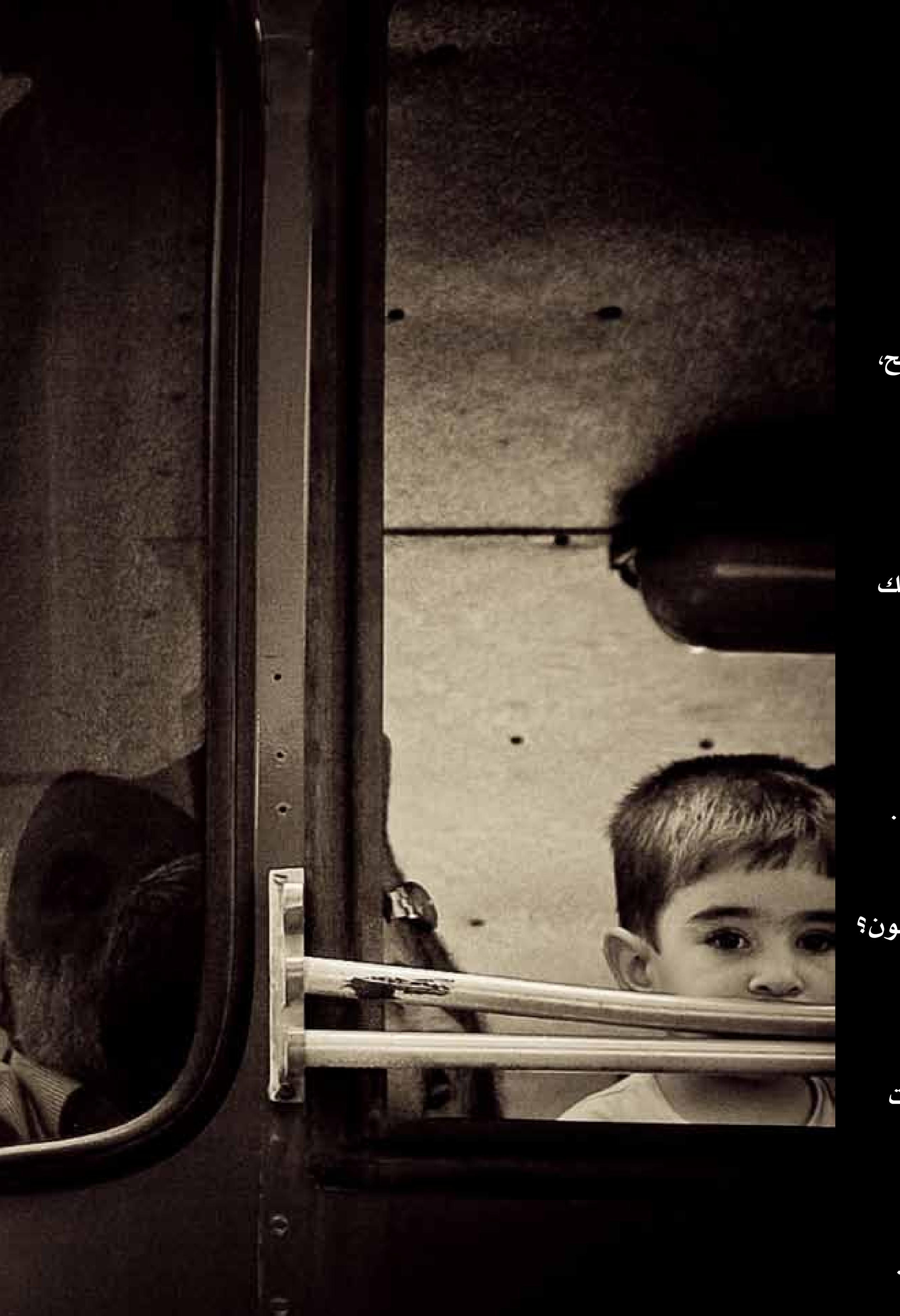
ولخواص البناء من الداخل، الكثير من التأثير أيضاً. فهناك أبنية وغرف تساعد محتوياتها على الاسترخاء والراحة، بينما تثير أخرى مشاعر التوتر والقلق. فقد قام موش بار الباحث بكلية الطب بجامعة ستانفورد الأمريكية بدراسة لمراقبة وتسجيل نشاط المخ لمتطوعين، أثناء استعراضهم لمجموعتين من الصور الفوتوغرافية لبعض الأدوات العادية التي نتعامل معها في حياتنا اليومية، والتي تملأ مساحات المباني والغرف من حولنا. وكانت المجموعتان متماثلتين ماعدا في شيء واحد. إذ كان نصف الأشياء في الصور لها حواف حادة، والنصف الآخر لها حواف مقوسة.

ولاحظ بار ارتفاع نشاط منطقة محددة بالمخ، أثناء التعرض لصور الأشياء ذات الحواف الحادة. وهي المنطقة الخاصة بالتعامل مع الخوف، وحالة الاستنفار التي يطلقها المخ حين التعرض لما يثير القلق والاضطراب. ويعزو الباحثون الأمر إلى وجود رد فعل بدائي محفور في طبقات المخ، يربط بين الأشكال الحادة والتعرض للخطر.

يجتهد الباحثون لجمع نتائج الدراسات في هذا المجال، والوصول بها إلى استنتاجات عامة وتوصيات، حول الطريقة المثلى لتصميم الأبنية المختلفة .. الشركات، والمكاتب، والمدارس، والجامعات، والمستشفيات، والمنازل أيضاً. ولنا أن نتخيل من الآن، كيف يمكن أن تؤثر مراعاة ذلك الأمر على قدرتنا على الإنجاز والعمل والتعلم. وعلى استمتاعنا بأوقات الاسترخاء والراحة.

أحمد الإمام

ريّا بنجر



دع الشماسي للريح،
مالك أيتها
الفتاة،
ترين العالم
عبر انعكاس وجهك
في مرآة.
دع التأمّل،
دع التساؤل.
دع الرجل ينتظر..
عند عتبة الباب.
وإلى أين هم ذاهبون؟
والظلال عند
أقدامهم...
أما أنت فالطرقات
فسيحة تنحني
أمامك..
وجهك.. وجهتك.











المصوِّرة ريًا بنجر...





ريًا بنجر



مصورة فوتوغرافية من مواليد مكة المكرمة عام 1986م. بدأت بممارسة هواية التصوير في سن مبكرة، وشاركت في معارض محلية ودولية عديدة.

وعلى الرغم من أن ريًا تنفي صفة الاحترافية عن تجربتها الفوتوغرافية، فإن لهذه التجربة بصمة خاصة بصاحبة العدسة الآسرة للحظات الإنسانية. كما أن هذه الهواية لا تتعارض اليوم في شيء مع تخصص ريًا الأكاديمي في إدارة الأعمال الدولية، ولا مع شغفها بالفنون الأخرى مثل الموسيقى، ما دامت ترى أن كل ما حولها هو فن من فنون الحياة.

العملي وماهو أفضل منه

«عملي»، بهذه الكلمة نمتدح أشياءً كثيرة، وخاصة في مجال الاستهلاك، أو عند تقييمنا لسلعة معينة. والمقصود بهذه المفردة أن هذا الشيء يوفر علينا أقصى ما يمكن توفيره من متاعب خلال استخدامه أو التعامل معه.

والواقع أن الطابع العلمي للمنتجات يكاد يكون السمة الأبرز والأكثر حضوراً في حياتنا اليومية المعاصرة، حتى أصبحت الدفة الموجهة لمعظم الصناعات كي لا نقول كلها.

ولكن يبدو أن الاهتمام بالطابع «العملي» للأشياء تحول إلى فلسفة تهدد بجرف الحياة اليومية والزخارف التي تصنعها بعيداً عن «الأفضل» الذي يجب أن يكون هو الطموح.

أكواب للشرب من الكرتون أو «الستايروفوم»، وكذلك الأطباق، وأدوات للطعام من البلاستيك.. كلها عملية، لأنها رخيصة الثمن وتوفر على ربة المنزل عناء غسل الأطباق بعد كل وجبة. ولكن..

لن نتناول هنا الجانب من زاويته البيئية، فقد أشبع درساً وإحصاءات، ولكننا نسأل: «هل تناول الطعام بمثل هذه الأدوات هو حقاً أفضل من تناوله على طبق من الزجاج أو الخزف، وبأدوات من معدن أو من فضة؟ وهل المفرش المقطوع من لفافة بلاستيك هو أجمل أو أفضل من مفرش من القطن الأبيض؟».

و«لا يحتاج إلى كي» أو «اغسل والبس»، بهذا يمتدح البعض الملابس المصنوعة من ألياف صناعية مقاومة للتجعد خلال غسلها. ولكن هل هي حقاً أفضل من تلك المصنوعة من القطن أو الحرير أو الكتان أو الصوف، وتحتاج إلى كي بعد غسلها؟

وهل كوب القهوة سريعة التحضير التي أدمنَّا على استهلاكها في المكاتب وحتى البيوت، هي ألذ طعماً من القهوة العربية التي نكاد أن ننسى طعمها نظراً لرغبتنا الحديثة في التخلص من «غلبة» الدلة وإشعال الفحم وتنظيف الفناجين لاحقاً..؟

وهل طعم الهمبرغر الجاهز ألذ من طعم الحنيذ السعودي الذي يتطلب طهوه ساعات طوال، أو الكبة الشامية التي تتطلب نصف يوم عمل؟

كلنا نعرف الأجوبة عن هذه الأسئلة، ومع ذلك، فإننا ننجرف أكثر فأكثر تجاه هذه الأشياء «العملية»، على حساب ما هو جيد وأفضل..

نعم، جيد وأفضل، وليس ترفاً، لأنه يصنع نوعية حياة يومية أفضل. أوَلَيس هاجس الوصول إلى حياة يومية أفضل هو ما كان وراء نمو صناعات وفنون لا تعد ولا تُحصى بدءاً من صناعة الحرير في الصين وصولاً إلى صناعة البلّور الثمين في أوروبا، مروراً بالسجاد الشرقي وآلاف المشغولات اليدوية في بلادنا؟ ألم تسهم كل هذه المنتجات في صياغة المعالم الثقافية والحضارية الخاصة بكل شعب على حدة، حتى أصبحت جزءاً من هويته؟

عملياً، لم يعد من الممكن لأي منا أن يدير ظهره تماماً لكل هذا الكم الهائل من الأشياء «العملية» التي تحيط بنا ويزداد عددها باستمرار. فهي توفر علينا الكثير من الوقت، بحيث يمكننا أن نخصص المزيد منه للعمل أو حتى لـ «لا عمل».. ولكن القضية التي تستدعي التوقف أمامها هي وجوب الحذر من أن تتحول هذه «العملانية» إلى نمط حياة ينسينا غيره، أو أن تتمكن من أن تنتزع منا الاعتراف بأنها هي الأفضل. لأن ذلك سيكون إعلاناً لموت الذوق الرفيع في نفوسنا بحواسه الخمس، وأيضاً موت الطموح إلى ما هو أفضل من «عملانية» هذه الأشياء الرخيصة التي هي بمعنى ما.. «مبتذلة».



نجاح طلعت



وسط المحاذير الكثيرة في سوق حساسة جداً

كيف تشتري حجراً كريماً؟

Corbis

نمت خلال السنوات الأخيرة في مدن المملكة الرئيسة ودول الجوار الخليجي أسواق خاصة بتجارة الأحجار الكريمة الحرة، أي غير المركبّة على حلية مصاغة. وتؤكد الملاحظة الميدانية، إضافة إلى كثرة الإعلانات على شبكة الإنترنت الموجهة إلى المستهلك العربي والخليجي خاصة، تزايد عدد الهواة والساعين إلى اقتناء الأحجار الكريمة.

عبود عطية يعرض هنا خصوصيات هذه السوق، والمحاذير المحيطة بعملية شراء الحجر الكريم سواءً أكان ذلك من خلال الأسواق التقليدية في شوارع مدننا أم من خلال المتاجر الإلكترونية على شبكة الإنترنت، ويسرد جملة نصائح يمكنها أن تقي المشتري من الوقوع في خيبة محتملة دائماً إن كان يجهل مطبات هذه السوق، ويفتقر إلى الخبرة في معرفة هذه السلعة الثمينة كما هو حال الكثيرين من الهواة.

من أسواق البلد في مدينة جدة إلى شارع الثميري في الرياض وأزقة الخبر القديمة، وصولاً إلى المنامة ودبي والدوحة وغيرها.. تقوم تجمعات لمتاجر تبيع الأحجار الكريمة غير المصاغة.

ويوماً بعد يوم يزداد عدد المواطنين الخليجيين الذين يقدمون على شراء هذه الأحجار الثمينة، إما لصياغتها في حلية مميزة وفق أذواقهم الخاصة ولا مثيل لها عند الآخرين، وإما لمجرد هواية اقتنائها واكتنازها.

ويتميز حال المتسوق الخليجي في هذه الأسواق، بما يتميز به حال مشتري الحجر الكريم في أي بلد في العالم: الحذر والارتباك والتساؤل ما إذا كان يقوم بصفقة جيدة أم أنه مهدد بشكل من أشكال الغش، وذلك بسبب ارتفاع ثمن هذه السلعة التي يسعى إلى اقتنائها، وافتقاره إلى الخبرة اللازمة في معرفة نوعياتها، هذه الخبرة التي صارت منذ زمن طويل اختصاصاً جامعياً يتطلب سنوات من الدراسة، فمن الطبيعي إذن ألاَّ تكون هذه الخبرة متوافرة عند الجميع. الأمر الذي يدعونا إلى التوقف أمام خصوصية الحجر الكريم كسلعة، وخصوصيات أسواق هذه السلعة.

خصوصية الحجر الكريم كسلعة

لو أخذنا متوسط ثمن الأحجار الكريمة بالقيراط الواحد، وقارناه بمقاييسه لتأكد لنا أنه السلعة الأغلى ثمناً في العالم. من جهة أخرى، وبسبب الشبه الشكلي الكبير ما بين بعض الأحجار الطبيعية وأخرى، أو ما بينها وبين بعض الأحجار المقلَّدة أو الصناعية، تشكِّل أسواق الأحجار الكريمة أكثر من غيرها مجالاً جذاباً ومغرياً لممارسي الخداع والغش. فالربح فيها سريع وكبير ويصعب ضبطه. ولهذا فإن توخي الحذر عند اختيار متجر معين عند التسوق يُعد أمراً ضرورياً.

إضافة إلى ذلك، وحتى ولو تركنا مسألة الاستقامة جانباً لبعض الوقت، وافترضنا أننا دخلنا إلى متجر مشهود له بالاستقامة سنلاحظ أننا أمام سلعة ذات ثمن غير محدد بدقة. فالأحجار الكريمة تشبه الأعمال الفنية إلى حد ما على المستوى التجاري. يمكن للخبراء أن يحددوا مستوياتها العامة ولكن ثمن كل واحد منها يبقى قابلاً للمساومة أو للتحديد بفرق بما لا يقل عن 20 في المئة، وبما قد يصل إلى 60 في المئة.

فلو أخذنا الماس مثلاً، وهو الحجر الكريم الأكثر رواجاً في العالم والأغلى ثمناً، والذي تُحدد أسعاره أسبوعياً في بورصات خاصة مثل «تقرير رابابورت» في نيويورك، لوجدنا أنه يبقى ذا ثمن قابل للمساومة، وبنسب قد تُدهش المتسوق. إذ يمكنها أن تتجاوز في بعض الحالات نصف ثمن الحجر. وفي حالة الأحجار الملونة يصبح الوضع أكثر ضبابية، إذ إضافة إلى الدور الذي يلعبه العرض والطلب، يرتبط ثمن الحجر الكريم أيضاً بعوامل ثقافية، مثل رواجه في بلد معيَّن أكثر من غيره. فالمرجان مثلاً يحظى بتقدير كبير في اليابان بحيث إن أسعاره في أسواق التجزئة هناك تتجاوز أضعاف أسعاره في البلاد العربية، كما أن اللازورد الأفغاني الممتاز يباع في كراتشي بنحو ثلاثة دولارات للقيراط، أما في أوروبا الغربية التي تقدره كثيراً، فيمكن أن يصل ثمنه في سوق التجزئة إلى مائتي دولار.

كل ما في هذه السوق قابل للمساومة، حتى الماس رغم أنف تقرير «رابابورت» الأسبوعي

قريباً من المصدر وبعيداً عنه من أين نشتري؟

طبعاً، كان يمكن اختصار كل هذه القضية بالقول: «توجه إلى المتجر المشهود له باستقامته». ولكن واقع الأمر ليس بمثل هذه البساطة. فصحيح أن التجار المستقيمين موجودون أينما كان، ولكن معرفة المشتري بهم ليست سهلة. كما أن الدعوة إلى مقاطعة المتاجر التي لا تتمتع بسمعة مرموقة أو بشهرة كبيرة ليست منطقية، خاصة وأن السمعة الجيدة والشهرة هي ذات ثمن يضاف إلى ثمن الحجر الكريم، من الأفضل أن يدخره المشتري لنفسه.

ولأن ثمن الحجر الكريم يرتفع على مراحل كل ما مرَّ بيد تاجر جملة أو وسيط في طريقه من المنجم إلى متجر التجزئة، يرى البعض أن الاقتراب قدر الإمكان من المصدر، أي بلد المنشأ سيلغي بعض هذه المراحل، ويؤمِّن الحصول على الحجر الكريم بسعر أفضل، والأمر صحيح، وتوفره جزئياً التجارة الإلكترونية، ولكنه غير مضمون النتائج بتاتاً عندما يسافر المرء الذي يفتقر إلى الخبرة إلى بلد مشهور بإنتاج بعض أنواع الأحجار الكريمة، فيرى في رحلته السياحية مناسبة لتحقيق صفقة العمر.

ثمن هذه الماسة: حسب مهارة المشتري..

في البلدان المنتجة للأحجار الكريمة بكثرة مثل البرازيل وسري لانكا وتايلند والهند وأستراليا، هناك أسواق منظمة وتجار مشهود لهم بالاستقامة. وإلى هؤلاء فقط يمكن للسائح أن يتوجه بعد أن يسأل عنهم، خاصة إذا كان لا يتمتع



Corbis

المفاوضات هي التي تحدد الثمن

بخبرة تكفي لتمييز الأحجار الطبيعية عن الصناعية. ففي كل هذه الدول هناك تجار يستوردون الياقوت الصناعي مثلاً من روسيا وفرنسا، ويوزعون هذه الأحجار الصناعية على الأولاد والفقراء الذين يجوبون المناطق السياحية لاصطياد «المغفلين» من السياح، فيعرضون بضاعتهم أمامهم على أنهم عثروا عليها، متظاهرين في الوقت نفسه بأنهم يجهلون ثمنها الحقيقي. وتطفح الغبطة في نفس السائح الذي يظن نفسه أنه قد اشترى حصاً من السفير السري لانكي الممتاز يزن خمسة قراريط بمئة دولار، في حين أن قيمته الحقيقية هي خمسة آلاف دولار. أما الغبطة الحقيقية فتكون في نفس البائع الذي جنى ربحاً حقيقياً يزيد على 95 دولاراً.

وفي كولومبيا المشهورة بإنتاج أفضل زمرد في العالم، يقوم بعض محترفي التزييف بتحطيم إشارات السير الخضراء، ويقطعون من زجاجها أشكالاً منشورية ذات ستة جوانب مثل بلورات الزمرد، ثم يعمدون إلى تحضير عجينة من طين ورمال رسوبية من الفحم، ويزرعون البلورة الزجاجية داخل هذا الطين الخاص. وعندما يجف تماماً، يحفرون قليلاً حول البلورة لكشف بعض جوانبها، ولتبدو كبلورة زمرد طبيعية ضمن الصخرة الحاضنة لها.

الخلاصة هي أن القول إن الزمرد في كولومبيا رخيص جداً، لا يكشف إلا عن جهل قائله. ومن يردِّد هذا القول عن «تجربة»، هو في الواقع شخص خُدع بالزمرد المزيف في كولومبيا. فأهالي البلدان المنتجة للأحجار الكريمة هم أدرى من غيرهم بنوعيات هذه الأحجار وأسعارها أينما كان في العالم.

إذن، فـإن الاقتــراب من المصــدر قد يوفِّر مجــالاً حقيقياً لشــراء الأحجار الكريمة بأسعار أرخـص مما هي عليه في البلدان الأخرى. ولكن هذا الهامش يبقى محدوداً، وعندما يكـون كبيــراً يصبــح مثيــراً للشبهة. أمــا شــراء الجوهرة الملكيــة من فــلَّاح بائس في غابــات البرازيل، أو مــن أحد أفراد قبيلــة الماساي في تنزانيا، فهو أقرب إلى الحكايات الخرافيــة، إلا إذا كانــت هــذه الجوهرة مزيفة.

وماذا تشتري؟ مستويات الأحجار الكريمة

هنا أيضــاً، كان يمكن اختصــار القضية بالقول: اشترِ الحجر الذي تحبه والذي تسمح به ميزانيتك. ولكن الإنسان يحــب الحجر الكريم للونه وشكلــه وليس لتركيبته الكيميائية غير المرئية. ويمكن للون نفسه والشكل نفسه أن يحضــرا أمامه في حجرين أحدهمــا يساوي خمسين ريالاً، والآخر خمسين ألف ريال.

تصنِّــف الجمعية الدولية لتجارة الأحجــار الكريمة الملونة (ICGA) الياقــوت والسفيــر والزمــرد علــى أنهــا «أحجار كلاسيكية» تستحــق أسعاراً عالية «نظراً لجاذبيتها الدائمة وتاريخها الطويل».

وتطلــق الجمعية نفسها اســم «الكلاسيكيات الجديدة» على أحجار دخلت على صناعة المجوهرات بقوة مثل: التنزانيت والتورماليــن والأكوامارين والتوباز الملكــي والتسافوريت، باعتبــار أن هذه الأحجــار تلقى رواجاً متزايــداً، وأسعارها تتجه إلى الصعود بشكل صاروخي.

وثمةأحجــار نادرة لم تسوِّق لها أية جهــة على نطاق واسع، وما زالــت أسعارها معقولة خاصة عندما يكون وزن الحجر منهــا دون القيراطيــن مثل السبينــال والزركــون الطبيعي والمورغانيــت وحجــر القمر، وهــي الأحجار التــي تسميها الجمعية المذكورة «أحجار الهواة».

وأخيــراً هنــاك «الأحجار المقــدور عليهــا» (Affordable Gemstones). وهــي أحجــار ذات ألــوان جميلــة متوافرة بكثــرة، وأسعارها في متنــاول الطبقةالوسطى مثل: أحجار عائلة الكوارتز كالسيتريــن والأميتيست والعقيق والأونيكس والكالسيرون والصرد، وأيضاً الفيروز والزبرجد واللازورد والكونزيت.

النصيحــة الأولى التي تُســدى إلى من يريد البــدء باكتناز الأحجــار الكريمــة هــي أن يتوجــه إلــى أحجار هــذه الفئة



Corbis

التوباز الأزرق.. الحجر الملون الأكثر مبيعاً في العالم

الأخيــرة، أي إلى عائلــة الكوارتز والأحجــار ذات المستوى المشابه. فيشتــري كل حجر على حدة، يتأمله جيداً بعدسة مكبرة، يعاين ما فيه من متضمنات وشوائب، ويقارنه بغيره، ويقرأ عنه في المصــادر المطبوعة أو على شبكة الإنترنت. وتدريجاً يمكنه أن يتجه صــوب الأحجار الأغلى ثمناً حسب قدراته المادية. إذ إنه حتى ولو اشترى الهاوي حجراً مزيفاً مــن ضمن هذه الفئــة، فالأمر لا يشكِّل خســارة كبيرة، لأن مقارنة المزيف بالطبيعي تشكِّل درساً مهماً يستحق ثمنه.

سلوك المتسوِّق في المتجر

لو أخذنا أكثر أشكال التسوق تقليدية، أي الدخول إلى متجر متوسط المستوى (والاستقامــة)، لأمكننا إعطاء المتسوق النصائح الآتية:

1 - عليك أن تكوِّن فكرة أولية عن نوعية الحجر الذي ترغب فــي شرائه، وذلــك من خلال القــراءة عنه قليــلاً، إما في الكتــب، وإما من خلال تصفح الإنترنت، بحيث تعرف مدى ندرته وأفضل نوعياتــه ومستوياته اللونية والبلدان المنتجة له وما شابه.

2 - عندمــا تدخــل إلى المتجــر، عليك أن تطلــب ما تريده بشــكل لا يخلو من بعض التفاصيل، كي يأخذك التاجر على



الأحجار الحرة للهواة والاكتناز

محمل الجد، كالقول: «أريد حصاً من السفير السري لانكي بين القيراط الواحد والقيراطين وغير معالج». إن مثل هذا الكلام يجعل التاجر يفقد جرأته على أن يعرض عليك حجراً صناعياً. أما إذا قلت: «أريد حصاً من السفير.. السفير هو أزرق، أليس كذلك؟»، فهذا يعني أنك تشد التاجر شدّاً كي يعرض عليك حجراً صناعياً، أو حتى قطعة من الزجاج الأزرق. لأنك إن كنت لا تعرف لون السفير (أو ألوانه المختلفة)، فإن التاجر سيعرف فوراً أن لا علاقة لك بعالم الحجر الكريم، وأن المجال مفتوح على مصراعيه أمامه ليعرض عليك ما يشاء وبأي سعر يشاء.

3 - إذا عرض عليك التاجر حجراً واحداً، ومهما كان ملائماً، اطلب رؤية غيره قبل أن تسأله عن الثمن.

4 - مهما كانت دهشتك بالحجر كبيرة، فلا تتركها تظهر على وجهك، بل تظاهر بالتفكير والتردد.

5 - عندما يضع التاجر أمامك ستة أو سبعة أحجار لتختار منها، وحتى ولو عرفت أياً منها تريد، فلا تعلن ذلك فوراً، بل اسأله عن ثمن كل حجر على حدة. ثم احذف من المجموعة أربعة أو خمسة أحجار، واسأله مجدداً عن ثمن كل واحد من الباقي، وعلى الأرجح، ستحصل على تخفيض. ثم تحصل على تخفيض آخر في المساومة على الحجر الذي تريده فعلاً.

6 - شدِّد في حوارك مع التاجر على «طبيعية» الأحجار التي يعرضها عليك، واسأله مجدداً إذا كانت معالجة أم لا، وما إذا كان يكفل ذلك.

7 - إن التجار الحقيقيين والمستقيمين يحبون أحجارهم، ويستمتعون بالحديث عنها. ولهذا، فلا حرج في أن تسأل قدر ما تشاء. وإذا رغبت في كسب ود التاجر فعلاً، يكفيك أن تمتدح بضاعته ببعض الكلمات اللطيفة والعامة، حتى ولو كنت لن تشتري منها شيئاً.

8 - إذا كان الحجر الذي تشتريه رخيص الثمن جداً (دون المئة ريال مثلاً)، فليس من الضروري أن تطلب تفصيل مواصفاته في الإيصال. أما إذا كان ثمنه أكثر من 300 أو 500 ريال مثلاً، فعليك أن تطلب من التاجر أن يذكر في الإيصال إضافة إلى مقاييس الحجر ووزنه، الإشارة إلى أنه طبيعي وغير معالج، أم معالج ونوعيته المعالجة.

9 - لا تشتري أي حجر يزيد ثمنه على 1000 ريال مثلاً، إلا إذا كان مصحوباً بشهادة من مختبر تؤكد هويته على الأقل. وشهادات تأكيد الهوية التي لا تتضمن الكثير من التفاصيل هي غير مكلفة جداً (بين 20 و50 دولاراً)، وتكفي للتأكيد على أن هذا الحجر هو من هذا النوع أو ذاك وما إذا كان معالجاً أم لا. أما الشهادات ذات التحليل الكامل، فيمكن أن تصل كلفتها إلى نحو 150 دولاراً في كبار المختبرات مثل (GIA) وغيرها، وتصبح مستحقة لكلفتها عندما يكون ثمن الحجر فوق الألف أو الألفي دولار. فهناك أحجار ملونة كثيرة لا يمكن شراؤها على الإطلاق من دون شهادة من مختبر مثل: تورمالين باريبا (الأغلى من الماس)، والألكسندريت، والياقوت غير المعالج، والسفير غير المعالج، واللؤلؤ الطبيعي. أما الماس فمن الضروري أن يكون مصحوباً بشهادة عندما يكون وزن الحجر فوق القيراط الواحد، أو حتى حوالي نصف القيراط أو أقل من ذلك، إذا زعم التاجر أن لونه من المستوى (D)، وأنه خالٍ من الشوائب تماماً. لأن ذلك يرفع ثمنه بشكل فلكي، ولا يمكن تأكيد مثل هذه المواصفات لا بالعين المجردة ولا بالعدسة المكبرة 10 مرات إلا من قبل الخبراء المتخصصين.

10 - أما النصيحة الأهم من كل ما تقدّم، فهي أن تشتري دائماً الحجر الذي تحبه، والذي تتيحه لك قدرتك المادية، من دون أن تأخذ بالاعتبار التصنيفات الشائعة. إذ لا شيء يمنع بعض أصحاب الذوق الرفيع أن يفضلوا حجراً من العقيق لا يزيد ثمنه على عشرة ريالات على زمردة ثمنها عشرة آلاف ريال. فالثمن والقيمة التجارية شيء، والجمال وحب الحجر شيء آخر. والمهم أن يحب الهاوي أحجاره.

أمام المتاجر الإلكترونية

منذ ظهور التجارة الإلكترونية على شبكة الإنترنت، احتلت الأحجار الكريمة مساحة واسعة ضمن إجمالي



مساحة هذه التجارة. وبات هناك آلاف المتاجر التي تبيع الأحجار الكريمة من خلال الإنترنت، ومن ضمنها المئات (وربما الآلاف) من خلال موقع المزادات الشهير «إيباي».

10 نصائح و12 مسألة يجب أن ينتبه إليها المشتري، وإلا أطاحت الخيبة بالبهجة

ولشراء الحجر الكريم عبر شبكة الإنترنت جاذبية خاصة. فهو يسمح للمتسوق أن يتصفح عدداً لا يُحصى من الخيارات، وأن يُجري كل المقارنات التي يريدها بشكل أوسع بكثير من الأسواق التقليدية، وأيضاً من دون الشعور بحرج كالذي يتسبب به تقليب مئات الأحجار في المتاجر التقليدية لساعات وعدم شراء أي منها.

إضافة إلى ذلك، فإن معدلات أسعار الأحجار الكريمة في المتاجر الإلكترونية تكون عادة أقل بنسبة ملحوظة من أسعارها في المتاجر التقليدية. وأسباب ذلك عديدة، أهمها أن المنافسة هي بين كل تجار العالم، والاحتكار المحلي غير وارد فيها. كما أن هذه المتاجر لا تدفع إيجارات المحلات في الشوارع الرئيسة في المدن، بل تُدار من البيوت وورش الصقل الصغيرة، ناهيك عن أن معظمها قريب من مواضع استخراج الأحجار الكريمة أو من مراكز صقلها بالجملة، الأمر الذي يحذف من الطريق بين المستخرج والمشتري عدداً ملحوظاً من الوسطاء والسماسرة وما يضيفونه على ثمن الحجر لتحقيق أرباحهم. ومن أشهر البلدان التي نمت فيها تجارة الأحجار الكريمة عبر الإنترنت نذكر تايلند، والصين، والولايات المتحدة، وأستراليا، والهند، وإيطاليا. ففي كل هذه البلدان وغيرها تقع ألوف المتاجر التي تبعد يومين أو ثلاثة بالبريد السريع من بيت أي متسوق أينما كان في العالم.

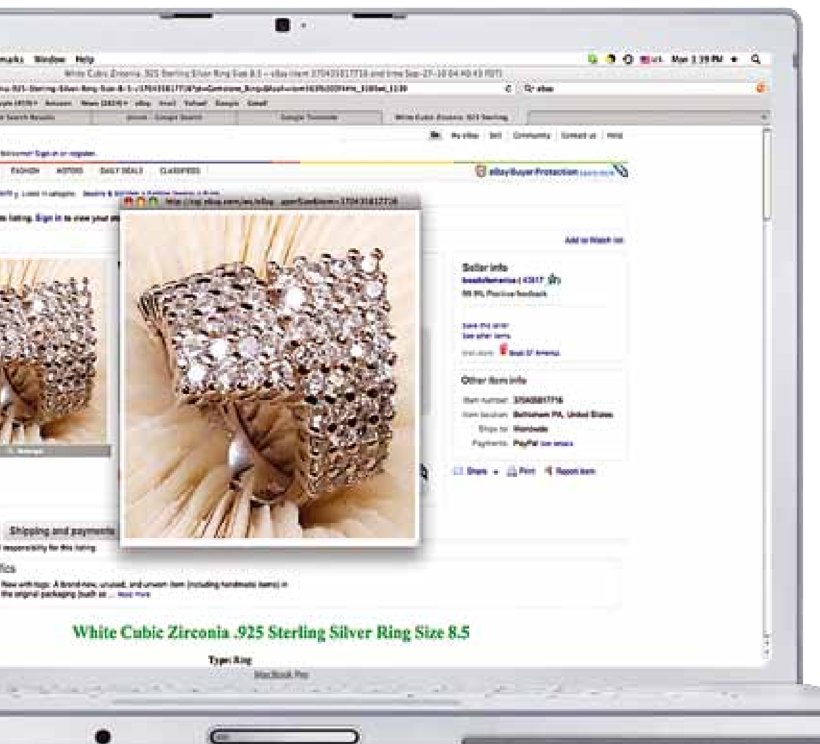
ولكن مقابل كل هذه الحسنات، يبقى شراء الأحجار الكريمة عبر شبكة الإنترنت محفوفاً بالخطر أو مثيراً للقلق والحذر، ويختلف كثيراً عن شراء الكتب والمجلات والأدوات الإلكترونية. أولاً، لأن الأحجار الكريمة ليست منتجات موحدة المواصفات. وثانياً، لأن أي تبدل لوني أو على صعيد الصقل والنقاء هو أمر مهم جداً على صعيد الثمن، ولهذا فإن شراء حجر كريم بناءً على صورته ووصف التاجر له يبقى مسألة حساسة.

فبموازاة آلاف المتاجر التي تتمتع بصدقية كبيرة ومستوى عالٍ من الاستقامة، هناك ربما الآلاف ممن هي خلاف ذلك. ولهذا، ولو جمعنا خلاصات تجارب الذين سبق لهم أن تسوقوا إلكترونياً، لأمكننا ترتيب الملاحظات والنصائح على الوجه الآتي:

1 - قبل أن تشتري أي حجر كريم عبر الإنترنت، عليك أن تستفسر عن شروط الجمارك في بلادك، ومدى صدقية وسائل الشحن فيها (بريد مضمون، بريد سريع، شركات نقل سريع خاصة، الخ..). في المملكة ودول الخليج العربي، تسمح القوانين الجمركية باستيراد الأحجار الكريمة دون رسوم إذا كانت بكميات محدودة وللاستخدام الشخصي، كما أن البريد الحكومي فيها يتمتع بأداء ممتاز وصدقية عالية. ولكن، للأسف ليس هذا هو الحال دائماً في بعض البلدان العربية حيث يمكن للتعقيدات الجمركية أن ترهق المشتري بإجراءات بيروقراطية مرهقة تُفسد متعة التجربة، كما أن استقامة أداء دوائر البريد فيها تبقى موضع تساؤل.

2 - يجب إعطاء الأولوية للمتاجر الإلكترونية التي مضى على تأسيسها أربع أو خمس سنوات على الأقل. لأن المتاجر السيئة ومراكز الاحتيال لا تعيش مثل هذه الفترة على الشبكة.

3 - لا تتعامل مع متجر يخفي عنوانه الحقيقي ووسائل الاتصال به (غير البريد الإلكتروني) مثل الموقع ورقم الفاكس وغير ذلك.





الياقوت الأزرق: ما الذي يحدد ثمن القيراط بين 10 دولارات و10 آلاف؟

4 - يجب إعطاء الأفضلية للمتجر الذي يملك مخزوناً أكبر من غيره. لأن ذلك يعني أنه يشتري الأحجار بالجملة، ويحصل على حسومات كبيرة لا يحصل عليها من يشتري حجراً واحداً من كل نوع. وبالتالي، فهو قادر على البيع بسعر أقل من الآخر.

5 - تأكد من أن رضاك عن الحجر عند استلامه هو شرط من شروط الصفقة، وأن من حقك أن ترده إذا لم يعجبك. وتجنب شراء أي حجر من متجر لا يقبل استرداد ما باعه.

6 - لقد طوّر التجار الإلكترونيون طرقاً ميسرة لتصوير الأحجار التي يبيعونها مهما كانت رخيصة الثمن. ولذا، لا عذراً صادقاً لأي تاجر يعرض صورة تقريبية أو «نموذجية» للحجر المعروض للبيع. إلا محاولته الغش. ولذا على المشتري أن يتأكد من أنه سيحصل على الحجر المصوّر نفسه وليس على شبيه به. لأن هذا «الشبيه» سيكون على الأرجح ذا نوعية أدنى مستوى من النوعية الظاهرة في الصورة.

7 - تجاهل تماماً الوصف الأدبي للحجر، مثل القول «رائع»، «يطيح بالعقل»، «ضخم»... واقرأ تفاصيل المواصفات (الوزن، المقاييس، اللون، وما إذا كان الحجر قد عُولج أم لا). فبعض التجار مثلاً لا يتردد في استخدام تعبير «لؤلؤة طبيعية زراعية»، علماً بأنه لا يمكن الجمع بين هاتين الكلمتين، فاللؤلؤة هي إما طبيعية وإما زراعية. ولكن بعضهم يستخدم مثل هذه المفردات متجمعة، ربما من دون نية سيئة، للتأكيد على أن هذه اللؤلؤة ليست صناعية من البلاستيك أو الزجاج.. كما أن صياغة الأوصاف باللغة الإنجليزية يمكنها في بعض الأحيان أن تكون سبباً في التباس ما. فعندما يكون حصاً من السفير ذا لون أزرق ممتاز، يقول بعض التجار: «سفير أزرق كشميري». فمن المعروف أن كشمير كانت مصدر أفضل نوعيات السفير الأزرق وأجملها على الإطلاق. بحيث يبلغ ثمن القيراط الواحد منه اليوم عشرات آلاف الدولارات. ولكن استخراج السفير توقف في كشمير منذ نحو قرن، ومن شبه المستحيل طرح ما هو موجود منه اليوم للبيع في المتاجر الإلكترونية بسبب ضنّ الجميع به. فكلمة «كشميري» التي ترد بعد كلمة أزرق، تشير إلى اللون وتمتدحه، وليس إلى موضع الاستخراج الذي قد يكون تايلند أو مدغشقر أو غيرهما.. وإلا لقال التاجر: «سفير أزرق ملكي مستخرج من كشمير ومصحوب بشهادة».

www.buyjewelry.com

8 – فـي تحديد أنـواع بعض الأحجار، يلجـأ بعض التجار إلـى استخدام تسميات للأحجـار تبقيهم ضمن القانون، ولكنها تخدع المشتريـن. مثل القول: «عنبر صيني» الأمر الـذي قد يُوهـم المشتـري أنه أمـام عنبـر مستخرج في الصين. ولكنه يكون فـي الواقع أمام عنبر صناعي «صُنع فـي الصين». الأمر نفسه ينطبـق على «فيروز التيبت» وهو حجر صناعي لا يمت إلى الفيروز بصلة. وأكثر مـن ذلك، فمـن المدهش أن نجـد ضمن النمط نفسـه مـن التسميات من يتحدث عـن «مرجان التيبـت»، علماً بـأن هضبة التيبـت هي قارية لا تلامـس أي بحـر، ولا أحـد يعرف كيـف وصلها المرجان.

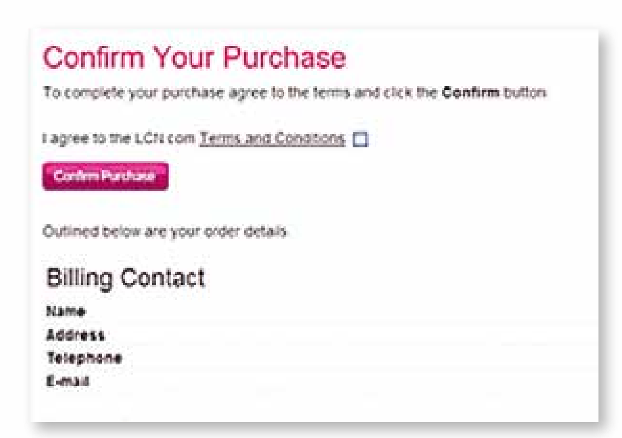
هـذه المشكلـة ملحوظـة بشـكل خاص فـي المتاجـر الإلكترونية الصينية. ففي الإعلان عن الأحجار الطبيعية، تكـون الإشـارة إلـى ذلـك واضحة قـرب الاسـم مباشرة: «فيروز طبيعي»، «مرجان طبيعي»، الخ.. إلا إذا كان المتجر يُعلـن لمرة واحدة في موضع آخر، وعلـى مسؤوليته، أن كل الأحجار التي يبيعها هي طبيعية.

9 – فيمـا يتعلق بالأحجار التي تكـون أسعارها في حال عـدم خضوعهـا للمعالجـة أغلـى بكثير من تلـك التي عُولجـت مثل الياقوت والسفير، فإن إغفال الإشارة إلى ذلـك من قِبل التاجر يعني أن الحجر معالج، لأنه لو لم يكـن كذلك لأعلـن التاجر عن ذلك بالخـط العريض. وفـي هذا المجـال نشير إلـى أن المتاجـر الإلكترونية التايلنديـة هـي الأكثـر صدقيـة، لأن القوانيـن هناك صـارت فـي السنوات الأخيـرة أكثر تشـدداً في وجوب الإعلان عن المعالجة ونوعيتها في حال كان الحجر قد خضع لها.

10 – يجـب توخي الحذر فيما يتعلق بلون الحجر نظراً لأثره الكبير على ثمنه. إذ يمكن لكل الأحجار أن تبدو على شاشة الكمبيوترأفتـح أو أغمـق حسب كل جهـاز ووضعية الشاشة أمـام العيـن. كمـا أن التصويـر (ومعالجة الصـور أحياناً ببرنامـج الفوتوشوب) يمكنه أن يعبث قليلاً باللون ليجمِّله. ولهذا يجب أن يكون شراء الأحجار مصحوباً بإمكانية ردِّها إلى المتجر واسترداد ثمنها.

11 – تذكّـر أن معظـم الأحجـار على شاشـة الكمبيوتر هـي مكبّرة عشـرات المـرات. ولا يكفـي أن تتذكّر، بل يستحسـن أن تـرى بعينك على أداة قياس في يدك كم سيكون طول هـذا الحجر وعرضه وعمقه، كي لا تصاب بخيبة أمـل من الوقع النفسي عندمـا تحصل عليه. لأن الأحجـار الكبيـرة هي باهرة دائماً أكثـر من الصغيرة. فحجـم الحجر لا يرتبـط فقط بثقله النوعـي، بل أيضاً بطريقة قطعه.

12 – اعتمد عند الدفع على بطاقات الائتمان، وادفع دائماً عبـر وسيط ضامن (مثل بايبـال أو ورلد باي أو غيرهما) الـذي يبقـي ثمن الحجـر محتجـزاً لديه لمـدة تكفي لأن يستلمـه الزبـون ولا يسجِّـل أي اعتراض علـى الصفقة. أما الباعـة الذين يشترطون تحويـلات مباشرة، أو الدفع بواسطـة شـركات تحويل الأمـوال السريع، فهـم مثيرون للريبة.



زوايا في الظل

ختامـاً، نشير إلى أنه في أسـواق الذهب في البلاد العربية زوايـا يمكن شـراء الأحجار الكريمة منهـا في ظل الذهب. فالتجار الذين يشتـرون المجوهرات المستعملة بغية إعادة صهر ذهبها، يفككون ما فيها من أحجار ترصِّعها ويضعونها جانباً في علب يختلط فيها الطبيعي بالصناعي. والمتسوِّق الماهـر، يمكنه أن يجد فيها فرصاً عديدة لتحقيق صفقات مربحـة، خاصة في مجال الأحجار المقدور عليها و«أحجار الهـواة» لضعـف الطلب عليها فـي أسـواق متخصصة أولاً وأخيراً بالذهب دون غيره.

صورة شخصية

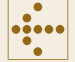


كيف يمكن لرجل أن يكون شغوفاً وناجحاً في مجالين لا رابط بينهما؟ الجواب هو في الصورة التي ترسمها ابتسام الجفري لمهندس الطيران والمتخصص في إدارة علوم الطيران، وأيضاً في علم النفس الرياضي والتدريب محمد السليمان الذي قرَّر أخيراً التفرغ للمجال الثاني، سعياً إلى الارتقاء به إلى حيث لم يسبقه أحد.

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير

محمد السليمان

بين هندسة الطيران وتطوير الرياضة



وُلِدَ محمد السليمان عام 1384هـ في جدة بين حارة المظلوم بباب مكة وحارة العمارية، حيث كان منزل جده لأمه السيد صالح السليمان. وقضى طفولته متنقلاً بين الحارتين يلعب الكرة مع أقرانه، مفتخراً بجده لأمه الذي كان أول مهندس إلكترونيات في المملكة، في الوقت الذي لم يكن التلفزيون قد دخل الكثير من بيوتها.

من كرة القدم لهندسة الطيران..

درس جميع مراحل التعليم العام بمدارس الفلاح الشهيرة. ومنذ آنذاك، ترسَّخ في نفسه عشقه للرياضة. فبعد تخرجه من الثانوية، التحق بنادي الاتحاد، ولعب في الفريق الأول لكرة القدم، وشارك في بطولة الدوري وكأس خادم الحرمين. ورغم أنه لاعب كرة قدم بالأساس، فقد شارك في بطولات تنس الطاولة، مرافقاً لأخيه الدكتور ماجد الذي كان بطل الخليج، وحاز بطولات عربية أخرى في تنس الطاولة. في هذه الأثناء كان محمد طالباً في جامعة الملك عبدالعزيز، كما كان طالباً في الخطوط الجوية السعودية في الوقت نفسه، ولكنه ترك الجامعة واستمر في الدراسة مع الخطوط السعودية لأنه ارتأى أن الدراسة مع الخطوط أفضل. لاحقاً قررت الخطوط ابتعاثه للدراسة في أمريكا، ورغم أنه كان قريباً من تحقيق حلمه وهو أن يصبح نجماً معروفاً للجماهير بعد لعبه مع الاتحاد، واختياره ضمن لاعبي المنتخب السعودي، إلا أنه ارتأى أن إتمام دراسته هو الأفضل. وفاجأ قراره الكثيرين، خاصة أسرته. فترك الاتحاد ليدرس هندسة الطيران. وبالفعل، حصل على البكالوريوس في هندسة الطيران عام 1984م مع استمراره في ممارسة عشقه الأول «كرة القدم».

موجود ولكن..

عاد محمد إلى جدة وإلى عمله في الخطوط السعودية. وبعد 7 سنوات، وبينما كان يستمع إلى حديث للدكتور طارق السويدان عبر شريط مسجل له باسم «صناعة النجاح»، حدثت نقطة التحول في حياته، إذ يقول: «شعرت أن الدكتور طارق يتحدث إلي شخصياً، يقول لي ما البصمة التي ستتركها في حياتك؟، ففكرت، أنا اليوم موجود، ولكن هل سيذكرني الناس بعد 200 أو 300 عام؟».

قرر محمد أن يكمل تعليمه وسافر إلى أمريكا ليتخصص في إدارة علوم الطيران. وبينما هو في سنته الجامعية الأخيرة، بدأ يتابع دروساً في التدريب الخاص باللياقة البدنية والرشاقة، عشقه الأول الذي قرر أن يمارسه في حال ترك العمل في الخطوط السعودية.

أول خطوة..

بعد عودته بمدة، حضر السليمان دورة للدكتور علوي عطرجي المتخصص في

البرمجة اللغوية العصبية، فاقترح عليه بحكم دراسته للتدريب الرياضي والرشاقة أن يشارك الدكتور علوي في دوراته التي يقدِّمها، بحيث يقدِّم كل منهما ما يجيده، الدكتور علوي يختص بالجانب العقلي، ويهتم السليمان بالجانب الصحي والجسماني. وفعلاً، بدأ الدكتور علوي بتخصيص ربع ساعة في آخر يوم من كل دورة للسليمان، ثم نصف ساعة، ثم ساعة، وهكذا.. ولما وجد قبولاً له من الناس، بدأ بتقديم أول دورة خاصة به بعنوان «أول خطوة للرشاقة» وكان ذلك في عام 2006م.

استمر السليمان في التدريب الرياضي، ولاقى نجاحاً وقبولاً من الناس. ومع ذلك، فقد نصحه البعض بألاّ يحصر نفسه في مجال واحد، بل إن عليه أن يتوسع ويقتحم مجالات مختلفة. تردد قليلاً، ليس عن قلة ثقة في النفس، ولكنه كان يرى نفسه غير مؤهل لخوض التدريب في مجال آخر غير الرياضة والصحة. فراح يقرأ ويثقف نفسه. لم يكن مستعجلاً، فمكث سنتين على هذه الحال حتى بدأ العمل بشكل «دويو» (ثنائي) مع الدكتور خالد باحاذق، والدكتور علوي عطرجي، والدكتور عثمان باعثمان.. نجح الأمر، فعاد مجدداً إلى أمريكا لدراسة ماجستير «علم النفس الرياضي تخصص علاقات إنسانية»، ثم حصل على الدكتوراة في هذا المجال مستمراً في لعب كرة القدم وتدريب فريق الولاية هناك.

«تعالوا نتغيَّر»..

التغيير الكبير الذي لمسه من الناس، ومساندة الدكتور خالد باحاذق، جعلته يواصل طريقه، فبدأ يبحث في برامج التدريب الناجحة في أمريكا، ليلاحظ أن كل برنامج ينقصه شيء ما، فيهتم بالجسم ويُغفل الفكر، أو يهتم بالفكر وينسى الجسم، فبدأ في تصميم برنامجه الذي أحدث تغييراً عند الكثيرين من الناس والأطفال خاصة. وهو برنامج «تعالوا نتغير»، الذي يُعنى بتنمية الفكر، الجسم، القلب، القيم، والسلوك. وحول هذا البرنامج يقول: «العنصر الأساسي كان الحب، القدرة على إشعار الشباب بالحب، أعطت البرنامج قوة. عندما تقدم الفكرة عن طيب خاطر وبحب، وتبني معهم علاقة بلا حواجز، فإنك تصل سريعاً إلى عقولهم وقلوبهم، فيقبلون منك كل ما تريد أن توصله إليهم».

كان هدفه الأساسي من البرنامج بناء جيل جديد، بفكر جديد، وبقلوب جديدة. فقد يكون الشخص مهذباً -كما يقول- ولكنه لا يجيد التعامل مع غيره. فصمم البرنامج بحيث يضع قواعد للعلاقات الإنسانية بشكل غير مباشر، يقول: «نرتقي بالقيم والسلوكيات والفكر، نحب بعضنا بغض النظر عمن نكون. نعامل بعضنا بشكل أرقى مما نحن فيه. نحترم بعضنا، ونحترم آراء من يخالفنا، في الأسرة في العمل، في المجال الرياضي، في كل المجالات».

كانت بداية البرنامج مع 36 طفلاً وطفلة. وبتفاعلهم وتجاوبهم معه، حفزوه ليستمر. فأنهى في العام الماضي تدريب ألف يتيم في جدة والرياض والمنطقة الشرقية، تراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة عشرة. كان التعامل معهم صعباً، ولكنه تجاوز هذه النقطة ونجح في إثارة اهتمامهم بتركيزه على نقطة مهمة، وهي: «ما لم تعمل وتجتهد وتبني نفسك فستجد نفسك في الشارع، ولن يساعدك أحد». والآن، ها هو محمد يسعى إلى تطبيق البرنامج على 1000 طفل مصاب بالسرطان، ثم على 1000 معاق حركياً. ولكنه يبحث عن راعٍ يتبنى الفكرة ويدعمها.

الحلم..

جديد الدكتور محمد هو برنامج «الحلم». وهو على نهج «تعالوا نتغيَّر» نفسه. ولكنه أكثر تركيزاً. مدته سنة كاملة يتخللها 24 لقاءً، ويتضمن تدريباً فردياً أو ثنائياً على الأكثر. يحاول المتدرب فيه العمل على المجال الذي يحبه خلال الإجازة الأسبوعية، بالإضافة إلى اللقاءات مع الدكتور محمد التي تغطي موضوعات متنوعة تخدم الفكرة الرئيسة. ثم يقدِّم المتدرِّب مشروعاً لا ينتهي البرنامج حتى ينتهي من تنفيذه.

تقاعد مبكر..

في السنة الماضية، تقاعد الدكتور محمد السليمان من منصبه كمدير لإدارة الجودة والنوعية في الطيران الخاص والتفتيش، وهو لا يزال في السادسة والأربعين من عمره. بدأ يشعر أنه أقرب إلى الناس، وأنه بحاجة أكبر إلى التغيير، يقول: «عندما تفقد الاستمتاع بعملك، فهذا يعني أنك لا تقدِّم جديداً فيه، ومن هنا قررت أن أغيره».

التقدير الأكبر من وجهة نظر الدكتور محمد هو عندما تأتي إليه سيدة خمسينية لتقول له: «شكراً لك، لقد غيرت حياتي». أو عندما يصله بريد إلكتروني من أم تدين له بالفضل في تغير ابنها إلى الأفضل، أو عندما يكون في مكان عام ويركض إليه الأطفال وهم فرحون برؤيته، ويتسابقون ليسلموا عليه.

يدين الدكتور السليمان بنجاحه لزوجته أم سلطان التي وقفت بجانبه وشجعته دائماً بينما سخر من أحلامه الكثيرون حتى من داخل الأسرة. وهو يخصص الآن يوماً في وسط الأسبوع يخرج فيه مع أم سلطان لوحدهما، بينما يذهب للعب الكرة مع سلطان وفيصل في يوم آخر، وفي آخر الأسبوع يخرج مع إسراء وغيداء. وكما كان في صغره فخوراً بجده لأمه، فهو اليوم فخور بأبنائه، خاصة إسراء التي أوشكت على الانتهاء من دراسة القانون، وغيداء التي ما زالت تدرس طب الأسنان.

أحلامهم..

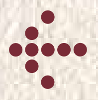
بينما كان الدكتور السليمان يتمشى مع زوجته، رأى إعلاناً يضم نخبة من المشاهير كالأستاذ عمرو خالد والدكتور السويدان والدكتور محمد الثويني وغيرهم، فقال لأم سلطان: «في عام 2012م سأكون واحداً منهم»، هذا حلمه على المدى القريب، أما حلمه الكبير فهو الحلم الذي تربينا عليه جميعاً وهو الصلاة في القدس، هكذا يحلم الكبار، وكما نعلم، فغالباً ما تتحقق أحلامهم -بإذن الله-.



الخط العربي

حراك كبير يصفه البعض بالعصر الذهبي

تصوير: المحترف السعودي -زكي غواص



خلال السنوات القليلة الماضية، وبسبب تطور فن تصميم الحروف العربية لأجهزة الكمبيوتر وبرامج التصميم، بدا أن الخط العربي، هذا الفن التقليدي الجميل، وقع في أسر التكنولوجيا. ولكن المتابعة عن كثب، تتكشف اليوم عن انتفاضة في مجال ممارسة هذا الفن وفق أصوله وأدواته التقليدية. بدليل ازدياد عدد الذين يمارسون هذا الفن، وأيضاً رفعة مستوى أعمالهم، وإقبال الناس عليها بشكل غير مسبوق في السنوات الماضية. وهذا ما بدا واضحاً خلال معرض الخط العربي الذي أقامته أرامكو السعودية خلال موسم صيف هذا العام في الظهران وفي عدد من مناطق المملكة.

الخطاط مأمون محيي الدين جال على المعرض، والتقى عدداً من المشاركين الذين حاول وإياهم استشراف حال فن الخط اليوم، والآفاق المفتوحة أمامه مستقبلاً.

«نادي الفنون الجميلة» هو الاسم الذي أطلقته أرامكو السعودية على مجمل أوجه النشاط الفنية التي نظَّمتها في إطار «مهرجان صيف 31».

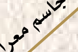
وعلى مدى شهر وثلاثة أيام، شهدت الخيام العملاقة الثلاث التي نُصبت في حرم معرضها بالظهران نشاطاً فنياً كبيراً ذا مستوى عالمي في مجالات الخط العربي والفنون التشكيلية والرسم والجرافيك والنحت والتصوير الفوتوغرافي، واستضافت فنانين مرموقين من أنحاء العالم، إضافة إلى نخبة من الفنانين السعوديين، عرضوا أعمالاً متقدمة، وشاركوا في إدارة ورش متخصصة ومحاضرات وحوارات ضمن المجالات الخاصة بكل منهم طوال فترة المهرجان. وقد لخّصت اللجنة المنظمة للبرنامج طبيعة هذا النشاط باستهلال جاء فيه: «يلتقي هنا الفن المحلِّي بالعربي والعالمي، وهذه الفعاليات توقظ الوعي الجمالي عند الناشئة، وتفعِّل الصلة بالتراث الجمالي واستلهامه لدى الأجيال المقبلة، إضافة لما تحققه من تبادل للخبرات وخلق مزيد من التلاقي الثقافي والحضاري على مساحة عريضة من الأخوة والسلام».

لمعان نجم الخط العربي

وعلى الرغم من أن أهمية كل جناح من أجنحة هذا المهرجان تبقى مرتبطة بنوعية اهتمامات الزائر وميوله، فإن الانطباع العام عند من تابع الحركة والإقبال في هذا المهرجان، أو زاره أكثر من مرة، هو لمعان معرض الخط العربي، ليس بالضرورة على حساب أجنحة الفنون الجميلة الأخرى، بل مقارنة بما كانت تلقاه معارض الخط العربي عموماً أينما أقيمت. الأمر الذي دعا الكثيرين، ونحن منهم، إلى التوقف أمام الأسئلة التي تثيرها يقظة فن الخط والاهتمام المتزايد الذي يحظى به، ليس فقط على المستوى المحلي، بل أيضاً على المستويات العربية والإسلامية والعالمية.

فقد شارك في المعرض 27 خطاطاً عالمياً جاءوا من الصين والأردن والولايات المتحدة وتركيا وسوريا والكويت وتونس ومصر وسويسرا والجزائر وبريطانيا وعُمان والعراق، إضافة إلى الخطاطين السعوديين ناصر الميمون ومختار عالم وعثمان حامد وعبدالله الصانع وعبدالرحمن أمجد وعكلة الحمد وبشار عالوه وجماعة الخط العربي

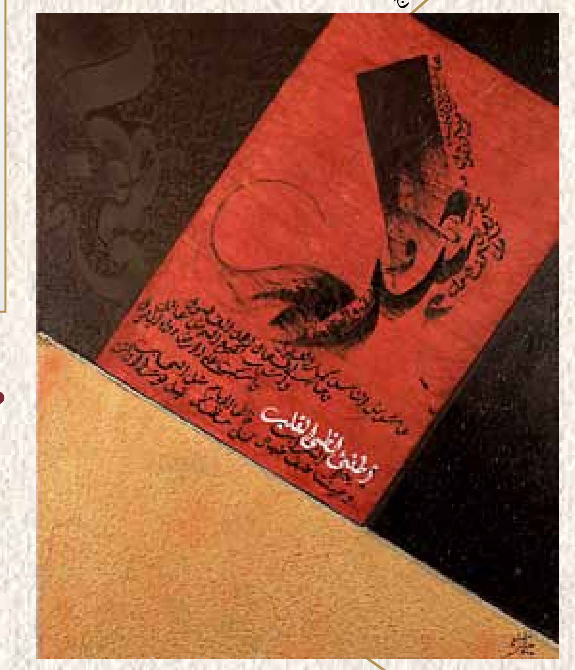




جاسم معراج



زينب قورولو



جاسم معراج

تنافس الدول العربية والإسلامية على إقامة مهرجانات للخط أسهم في تعزيز نهضة الخط العربي ولفت اهتمام العالم إليه

بالقطيف. وتراوحت الأعمال المعروضة ما بين الخطوط العربية الكلاسيكية مثل الثلث والنسخ والديواني وغيرها، والتجارب الحديثة المبتكرة.

وإضافة إلى تميز الأعمال المعروضة برفعة المستوى، أدار الخطاطون المشاركون 17 ورشة تدريبية غطت معظم مذاهب الخط العربي والزخرفة وصناعة ورق الأبرو المزخرف.. كما شهدت أروقة الجناح سلسلة طويلة من المحاضرات كان من بينها على سبيل المثال محاضرة الخطاط السعودي المرموق ناصر الميمون عن الخط العربي عموماً، ومحاضرة الخطاط جاسم معراج عن «إعداد اللوحة الفنية»، وندوة الخطاطين عدنان الشيخ عثمان من سوريا وإبراهيم طوق من الأردن عن «الخط العربي بين ماضٍ متجذر وحاضر متغير»، وفي حين تحدث عبدالرزاق حمودة من سويسرا عن تجربته الخطية، تناولت الأستاذة رشيدة الديماسي من تونس في محاضرتها أبرز الخطاطات العربيات منذ فجر الإسلام حتى عصرنا الحاضر. وأضافت هذه المحاضرات والورش التدريبية جواً من الحيوية لم نشهد مثله سابقاً في معارض الخط العربي، الذي مال البعض سابقاً إلى اعتباره فناً تقليدياً في طريقه إلى تكرار نفسه والجمود وربما إلى الاندثار. ولكن هاهي شهادات الخطاطين أنفسهم تؤكد العكس.

النهضة الجديدة

يرى الخطاط السوري عدنان الشيخ أن الخط العربي يعيش اليوم عصراً ذهبياً جديداً «نظراً لوجود أصحاب أقلام قوية» في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي. ولهؤلاء الخطاطون تلاميذ نابغون ومهتمون وواعدون.

ناصر ميمون



جانب من المعرض

كما أن تنافس الدول العربية والإسلامية على إقامة المهرجانات والمناسبات التي أصبحت متواصلة وبعضها دائماً، يسهم في تعزيز هذه النهضة ويلفت انتباه العالم إلى الخط كفن متميز بين مختلف الفنون الجميلة.

ويرى الخطاط محمد القاضي أن السنوات العشر الماضية شكَّلت نهضة حقيقية لهذا الفن بين الشباب، وبدلاً من أن يكون هناك خطاط واحد أو اثنين في كل بلد كما كان الحال سابقاً، بات اليوم هنالك عشرات الخطاطين في كل بلد. ويؤكد الخطاط مصطفى العرب رئيس جمعية الخط العربي في القطيف هذه الملاحظة بالإشارة إلى تضاعف عدد المنتسبين إلى الجمعية عدة مرات ما بين تأسيسها واليوم.

ويشير القاضي إلى أنه بعد قيام مركز الأبحاث للدراسات والفنون الإسلامية «أرسيكا» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بإجراء مسابقة على مستوى العالم مرة كل سنوات ثلاث في فن الخط العربي، شهد هذا الفن إقبالاً جديداً وازدياداً ملحوظاً في عدد هواته وممارسيه.



عدنان الشيخ

محمد القاضي

أما الخطاط السعودي حسن آل زاهر من جماعة الخط العربي بالقطيف فيلفت إلى أن أرامكو السعودية هي الجهة الأولى التي تفتح الباب أمام الخطاطين من جماعته للمشاركة في معرض عالمي، ويرى في الأمر بادرة تشجيع ثمينة. ولكنه يضيف: «إن فن الخط عندنا لا يزال في حاجة إلى المزيد من الاهتمام والدعم. لأنه حتى الآن لا يزال في إطار الجهود الفردية، ولا توجد معاهد لتدريسه، رغم وجود عدد كبير من الخطاطين السعوديين المجوِّدين. لذلك أنشأنا جماعة القطيف للخط العربي. كما أنشئت مؤخراً الجمعية السعودية لفن الخط، ولكنها لم تنشط بشكل ملحوظ بعد..».

نجم لا يكسف الآخرين

وحظيت مشاركة الخطاط الأمريكي الشهير محمد زكريا في هذا المعرض بأضواء إعلامية بلغت حد الصخب، وجعلته نجم المناسبة بشكل يكاد ألاَّ يكون منصفاً بحق المشاركين الآخرين وأعمالهم، والكثير منها لا يقل روعة عن أعمال هذا الخطاط الكبير، الذي يبقى صاحب تجربة تستحق أن تروى.

يمثِّل محمد زكريا حالة نموذجية للإنسان الذي سرعان ما يقع في حب الخط العربي عند اكتشافه، فينجذب إليه بكل قواه، فيقوده شغفه هذا إلى فهم أعمق للثقافة العربية والإسلام نفسه.

هذا الفنان من مواليد كاليفورنيا بأمريكا عام 1942م، درس الهندسة، واعتنق الإسلام عام 1961م. وتكللت رحلته مع الخط العربي بشهرة عالمية. ويروي زكريا بدايات رحلته هذه في ستينيات القرن الماضي. بقوله: «كنت أتمشى في أحد شوارع سانتا مونيكا، حين لفت نظري محل للسجاد العجمي. ومن خلال النافذة الزجاجية، رأيت

قبل سنوات كان عدد الخطَّاطين محدوداً، أما اليوم فهم بالآلاف، والكثيرون يقدمون على تعلمه من خارج العالم الإسلامي

رسماً في إطار على الحائط. فدخلت المحل وسألت صاحبه (وكان أرمينياً) عن هذه اللوحة، فأجابني: «هذا نوع من الكتابة الإسلامية. ولن تتمكن من دفع ثمنها، فالأفضل أن تنصرف».

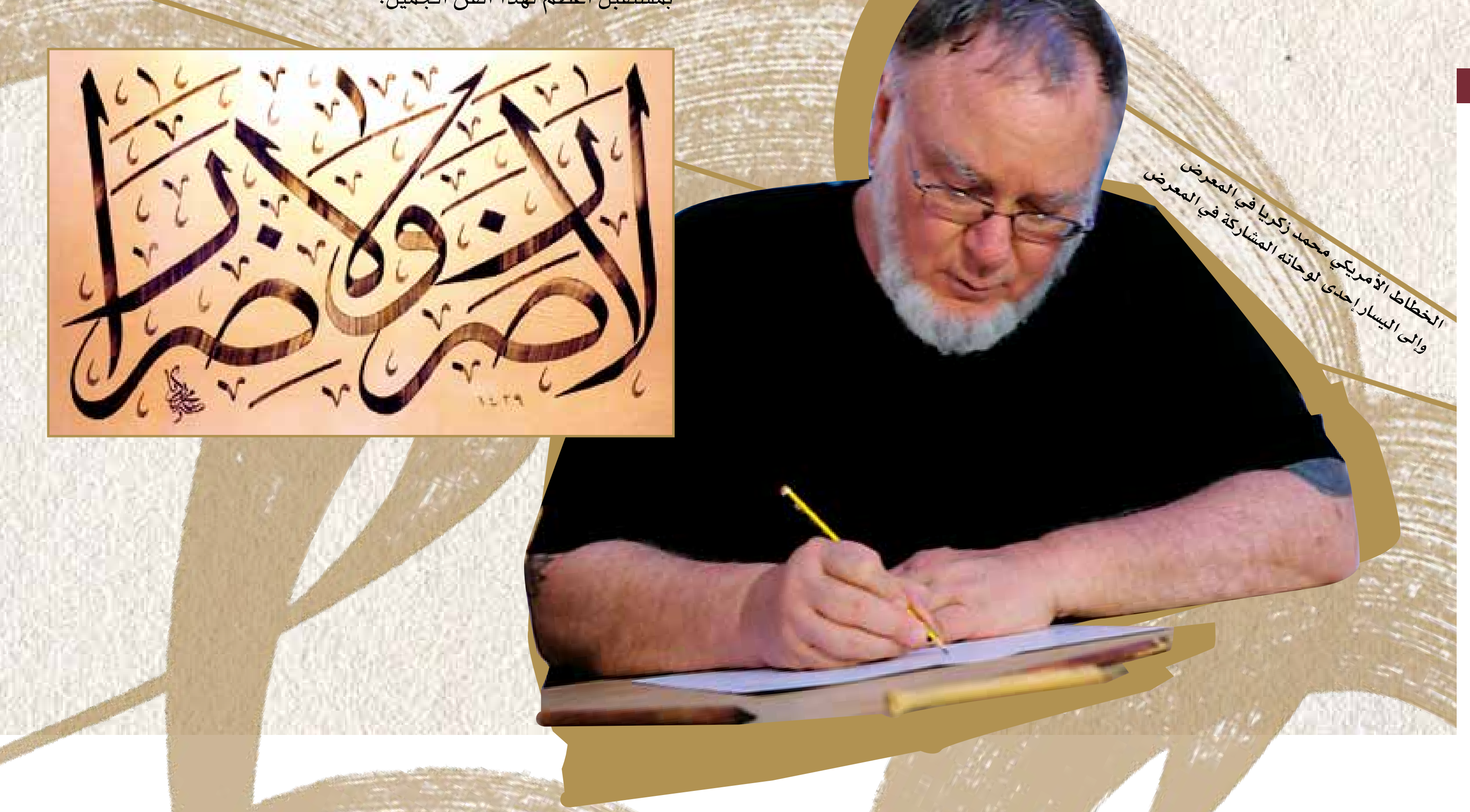
ويضيف زكريا: «أدهشتني هذه اللوحة المخطوطة. فبدأت أجمع الكتب وأزور المكتبات والمتاحف، وتعرفت إلى الكثير من هذا الفن الجميل الذي غيّر حياتي».

سافر زكريا إلى المغرب وتعلَّم فن الخط بالأسلوب المغربي. لكن خطوته الكبرى كانت تتلمذه على الخطاط التركي الشهير حسن جلبي بتوجيه من «مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية» باسطنبول. وكان الجلبي يمثل آخر حلقة في سلسلة من كبار الأساتذة، وقد تتلمذ بدوره على يد الخطاط حامد الآمدي، وهو أشهر خطاط في العالم خلال القرن العشرين.

وإضافة إلى الخط درس زكريا في تركيا صناعة الأحبار العربية والورق المفهر الخاص بالخط، والزخرف، والتذهيب. وفي عام 2001م، كلَّفته الحكومة الأمريكية بتصميم أول طابع بريد يحمل تهنئة للمسلمين بعيد الأضحى المبارك. كما قام بتصميم وخط اللوحة التي أهداها الرئيس الأمريكي باراك أوباما لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، حفظه الله، وهي تحمل الآية الكريمة: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا».

ولزكريا إسهامات متنوعة في مجال الفنون الإسلامية، حيث عكف أيضاً على صناعة بعض أدواتها العلمية مثل الأسطرلاب والساعة الشمسية ومجسم القبة السماوية. وفي هذا الصدد يقول: «صنعت أول أسطرلاب عام 1963م. وقد أنتجت 13 أسطرلاباً، أربعة منها موجودة في السعودية، واحد منها هنا في أرامكو السعودية. لكنني، ربما بسبب السن، لم أعد أصنع أسطرلابات، وصرت أركِّز كل جهودي على الخط العربي».

وحول حال فن الخط عموماً، يؤكد زكريا ما ذهب إليه غيره من زملائه الخطاطين عندما يقول إن عدد المهتمين بالخط العربي عند بداية دراسته لهذا الفن كان قليلاً. ولكن الذين يمارسونه اليوم يعدون بالآلاف، كما يتضح من مسابقة مركز الأبحاث للدراسات والفنون الإسلامية. كما أن هناك خطاطين جدد حتى من خارج العالم الإسلامي، والمستوى العام يتجه باتجاه التجويد، وتتزايد المهرجانات والمناسبات وتنافس الدول.. كل ذلك يدفعنا إلى التفاؤل بمستقبل أعظم لهذا الفن الجميل.

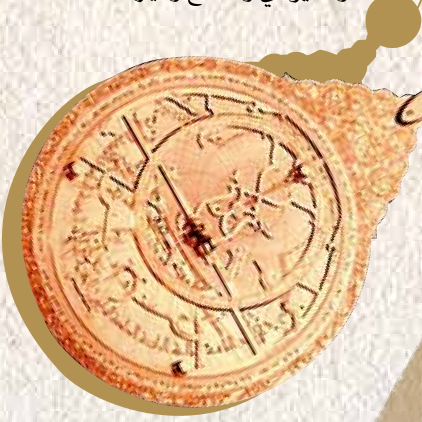


الخطاط الأمريكي محمد زكريا في المعرض
وإلى اليسار إحدى لوحاته المشاركة في المعرض

وشارك زكريا في المعرض بلوحتين كبيرتي الحجم، خطهما بماء الفضة والذهب، كما شارك في عدد من الورش والمحاضرات والكثير من اللقاءات الصحافية والتلفزيونية.

ولكن «نجومية» زكريا لم تكسف تميز باقي الأعمال المعروضة. فقد توقف الزوار بدهشة أمام اللوحات التركية والعراقية المميزة بزخارف بالغة الدقة تسلب الألباب. كما أن لوحات الخطاطين السعوديين والسوريين مثلاً، حظيت بتقدير خاص من المحترفين الذين يدققون في التفاصيل الجمالية لخط كل حرف على حدة. كما لفت الأنظار الخطاط الصيني الحاج نور الدين قوانج بتجربته الفريدة على صعيد دمج الخط العربي بنكهة الكتابة الصينية. وأمام أعمال هذا الأخير تبادر إلى ذهننا سؤال يمكنه أن يكون عنواناً لقضية: ما هي الآفاق المفتوحة أمام الخط العربي؟ هل سيبقى يدور في دوائر الخطوط الكلاسيكية المعروفة بقواعدها الصارمة، أم من الممكن ابتكار خطوط جديدة تحتل مكاناً خاصاً بها إلى جانب الثلث والديواني والنسخ وغيرها؟

الطابع البريدي الذي خطه زكريا للحكومة الأمريكية



.. وواحد من الاسطرلابات التي صنعها

الابتكار صعب ولكن الآفاق ليست مغلقة

عندما طرحنا على بعض الخطاطين المشاركين في المعرض سؤالاً عن الجديد على مستوى اللوحات، والإضافات التي يمكن للخطاطين أن يقدِّموها لأنواع الخطوط المعروفة، لقينا أجوبة مختلفة.

فالخطاط عدنان الشيخ يرى أنه من الصعب ابتكار خطوط جديدة، ولكن الأمر ليس مستحيلاً. فهناك محاولات للوصول إلى خطوط جديدة. وبعضها لاقى قبولاً عند الذواقة والمثقفين. وإذا استمرت هذه المحاولات واستلهمها خطاطون جدد وطوروها، فربما نصل يوماً ما إلى إضافة خطوط جديدة تضاهي في روعتها وقوتها الخطوط الكلاسيكية.

أما الخطاط القاضي فيقول: «إن الأمم تكتب بالأبجدية منذ آلاف السنين، وستبقى. لكن، ومع ذلك، يبقى لكل أمة وخطاط خصوبة محددة. وابتكار خطوط جديدة أمر صعب. هل تذكر قول عنترة «هل غادر الشعراء من متردم»؟ هناك محاولات في هذا المجال. ولكن ما دامت أداة الخط هي القصبة، فسيكون الأمر شبه مغلق. لأن القصبة أشبعت درساً واستيلاداً. أما إذا تغيرت الأداة، فعندها ربما تضاف خطوط جديدة.

من جهته، يقول الخطاط حسن آل مزهر أن إمكانية تطوير فن الخط تبقى واردة. لأن الخط إبداع، ولا حد للإبداع أساساً. فكل الخطوط المعروفة اليوم بدأت بسيطة، ثم تطورت وتفرعت من الجاف إلى اللين. وعليه، فإن الأفق يبقى مفتوحاً، نظرياً على الأقل، أمام ابتكار خطوط جديدة.

وماذا عن نافذة الكمبيوتر؟

وقادنا التفكير في مجالات تطوير الخط العربي، إلى التفكير بالخطوط الطباعية التي كثر تصميمها وابتكار الجديد منها لأجهزة الكمبيوتر، واعتماداً على الكمبيوتر نفسه. صحيح أن هذا الفن المستحدث يشكل قضية مستقلة تماماً عن فن الخط التقليدي الذي نحن بصدده هنا، ولكن، استطلاع آراء الخطاطين بهذه الأداة الإلكترونية التي تبدو ظاهرياً منافساً لأقلامهم المصنوعة من القصب، بدا لنا أمراً جديراً بالاهتمام.

يقول الخطاط الشيخ إن الخط الطباعي الجيد هو الخط الواضح المقروء بسهولة، وهو ما ينطلق من الخط العربي الأصيل. وهذه الخطوط الطباعية تؤدي دوراً جيداً ومطلوباً يلبِّي الحاجات الطباعية واليومية. ولكنه يرى جانباً مظلماً في استخدام الكمبيوتر، بسبب انحدار البعض إلى المستوى التجاري في التعامل مع فن الخط بفعل تدخل المتطفلين الذين يستعينون بالبرامج الجاهزة لإنجاز تفعيلات ليس فيها من الخط شيء.

أما القاضي فيجيب عن السؤال بسؤال: «لماذا نترك فن تصميم حروف الطباعة في قسم كبير منه للأجانب والهواة والمبرمجين؟ ألا يجب أن يكون هناك دور للخطاط في ذلك؟». ويضيف: «يجب أن يكون مصممو خطوط الطباعة من كبار أساتذة الخط المشهود لهم بالكفاءة والعلم. فللكمبيوتر عمل عظيم، وهو القيام بجزء من المهمة الأساسية لفن الخط: إيصال النص.. والكمبيوتر يتطور كل يوم بطريقة مذهلة، وهذا ما يضع الخطاط أمام خيارين: إما أن تكون فناناً، وإلا ناب عنك الكمبيوتر.

«ما دامت القصبة هي أداة الكتابة فسيبقى ابتكار خطوط جديدة صعباً.. ولكن الأمر ليس مستحيلاً..»

أمـا أن ينـوب الكمبيوتر عن الفنان بشـكل فعلي، فهذا أمر مستحيل..».

فن لا يموت

وحول تعزيز النهضة الملحوظة في فن الخط العربي إنتاجاً واهتمامـاً عاماً بـه، وحمايتها من احتمال فقدان زخمها، يبدو البعض متفائلاً بمستقبل لا يقبل الزعزعة، فيما يطرح البعض أهمية التعليم وأساليبه.

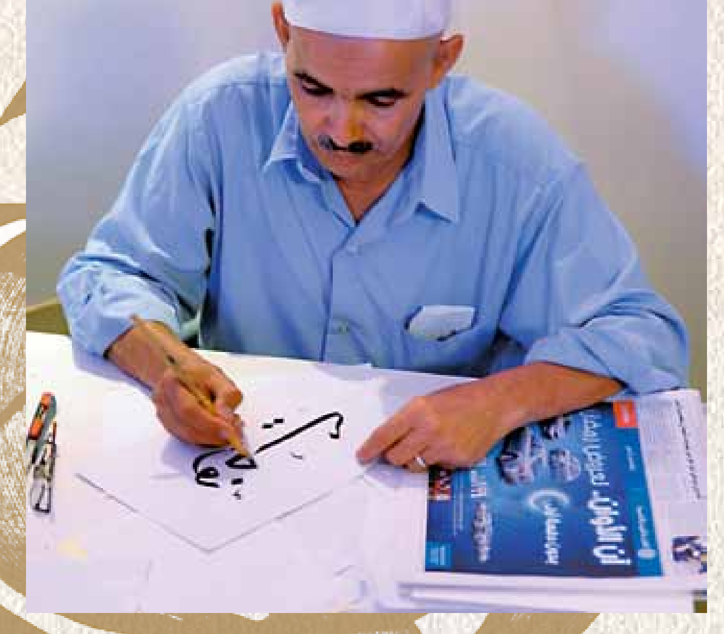
فالخطـاط حسـن آل زاهر يـرى أن الخط فـن مقدس لأنه حامـل كتابة القـرآن الكريم والسنة النبويـة الشريفة. وأن الخط لن يموت. وهنـاك انتباه متزايد لأهميته لدى الشباب من الجنسين، كما هو الحال مثلاً في جماعة الخط العربي بالقطيـف «حيث نكافـح لتعزيز مكانة هـذا الفن الجميل». ويضيف: «للأسف، نلاحظ أن الغرب ينبهر بالخط العربي، أكثـر ممـا يهتم به بعض أهلـه. إذ إن هنـاك حالياً تدهوراً فـي مستـوى الكتابة عند الجيـل الجديد. وتأثيـر التقنيات الرقميـة سلبي جداً في هذا المجال. ومـع ذلك فإن الخط العربـي كفن قائم بحد ذاته باقٍ وهـو اليوم أفضل مما كان عليه بالأمس القريب».

أمـا الشيخ فيقول: قبـل أن يصبح الخط العربـي فناً قائماً بذاتـه، هو وسيلـة كتابة ووعاء علم. وعلـى المرء أن يتحلى بالخـط الجميـل من أجل إيصـال المعلومـة بأفضل شكل. ولكـن، وللأسـف، يستهـان بهـذا الجانـب فـي مدارسنا، وعندمـا تكون هناك حصة للخط العربي فهي أشبه بحصة تملأ فترة فراغ. لأن من يُدرِّسها في معظم الأحيان لا يكون خطاطـاً. لذلك، ينبغـي أن يتم تأهيـل المدرسين بدورات يشرف عليها خطاطون متخصصون.

ويضـع الشيخ الخـط العربي فـي مقدمة الفنـون العربية والإسلامية، وينظر إليه كهوية. إذ يعتقد أن «الخط العربي هـو هوية هـذه الأمة وهو من مصادر فخرهـا واعتزازها، ويشـكل بصمتهـا الخاصة فـي المحافل بيـن الأمم. كما أنـه ينفرد عن بقية الفنون بقيمتـه الدينية والتربوية التي يحملهـا من خلال النص المخطوط من القـرآن الكريم والحديث الشريف، والحكم والأقوال المأثورة. إنه الوسيلة الأجمـل التـي تنقـل إلـى الآخريـن كل قيمنـا الإنسانيـة والأخلاقية».



الخطاط التونسي عامر بن جدّو وإحدى لوحاته المشاركة في المعرض





الخطاط الصيني الحاج نور الدين قوانج

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

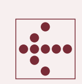


عبدالله الفيفي يقرأ..
درويش



يستضيف ديوان الأمس ديوان اليوم في هذا العدد الدكتور عبدالله أحمد الفَيفي، الأستاذ في جامعة الملك سعود ورئيس لجنة الشؤون الثقافية والإعلامية في مجلس الشورى السعودي، الذي يقرأ لنا مختارات للشاعر محمود درويش ويقارن ما بين مضمونها وقالبها الفني، وأثر الواحد على الآخر فيها.

ديوان الأمس ديوان اليوم



عاد محمود درويش في كتاب يوميّاته الذي نُشر بعنوان «أثر الفراشة»، (بيروت: دار رياض الريس، 2008)، إلى الشِّعر البيتيّ في عددٍ من النصوص. عاد إلى القصيدة العَربيّة الموزونة المقفّاة بعد طول هجر. لكن، للحقّ، بدت قصائده البيتية دون التوهج الدرويشي مقارنة بقصائده التفعيليَّة! إذ يبدو أن القصيدة البيتية ليست وزناً وقافية فقط/ ليست نظماً. ولعل هذا التصوّر التبسيطي هو ما أغرى الناظمين بهذا الشكل من البناء، وأجفل الحداثيّين عنه.

القصيدة البيتية بركانٌ من التوتّر اللغوي والإيقاعي والدلالي في آن. لذلك كان يطربنا الجواهري بقصائده المتوافرة على تلك الطاقة الشعرية الساحرة، الغامضة، التي لا يُحس نبضها أي قارئ ولا كل ناقد، ما لم يكن مرهف الإصغاء لأصوات اللغة في موروثها الموغل في ذاكرته. إذ تمنح القصيدة من معدن ذلك الغامض الفاتن، الذي لا يملك المحلّل دائماً كشف جميع أسراره. إنها نوع من العموديّة التي تحدّث عنها القدماء، كأبي علي المرزوقي، لا باتّباع سنن القصيدة الجاهليّة بالضرورة كما كانت العموديّة القديمة، ولكن بإكساب النصّ ظلاله الإشاريّة والأسطوريّة، التي تحمل المخيّلة إلى عالمها الجمعيّ، ذي الملامح الخاصّة المائزة، التي لا تشبه سحنة شعر آخر لشعب آخر. وبذاك تحافظ على سمات فارقةٍ، تجعل القارئ يدرك أن هذا شعرٌ عربيّ، لا إنجليزي أو فرنسي أو روسي، لا للغته أو لعَروضه فقط. تحافظ على الاختلاف الذي يُحَسّ ولا يُجسّ، ويُتذوّق وإن لم يُفسّر؛ مع الاختلاف الذي لا يُذيب الشاعريّة العربيّة في شاعريّات أُمم أخرى.

تلك الخصائص تحتاج إلى حفرٍ أعمق وأوسع، ليس هذا بمجاله، لكن المسلّمة الأُولى التي يكشفها شعر درويش أن الشاعريّة العربيّة لا تقتصر علاماتها الفارقة على العَروض أو على اللغة. نقرأ في الدرويشيّات الأخيرة، من البحر الوافر، بعنوان «على قلبي مشيت»، (أثر الفراشة، 87 – 88):

على قلبي مشيتُ، كأن قلبي
طريقٌ، أو رصيفٌ أو هواءُ
فقال القلبُ: أتعبَني التماهي
مع الأشياء، وانكسر الفضاءُ

وأتعبَني سؤالكَ: أين نمضي
ولا أرضٌ هناك... ولا سماءُ
وأنت تطيعني... مُرني بشيء
وصوّبني لأفعل ما تشاءُ
فقلتُ له: نسيتُكَ مذ مشينا
وأنت تعلّتي، وأنا النداءُ
تمرّد ما استطعت عليّ، واركضْ
فليس وراءنا إلاّ الوراءُ

ربما تلفتنا في نصّ قصير كهذا كلمات، قد لا تكون مألوفة لدى درويش، كـ«مُرْني»، «تعلّتي». ما يشير إلى أن القصيدة البيتيّة تستدعي معجماً خاصاً يطاوع الوزن والقافية، وإنْ كان هذا يخضع في نهاية المطاف لمهارة الشاعر. فنحن نعرف مثلاً أن شاعراً كنزار قبّاني- وعندي أن شاعريّته إجمالاً قد تكون في بعض جوانبها أعظم من شاعريّة درويش، لولا أنه استمرأ التصفيق، وأغراه خفق المعجبين والمعجبات، ولأسباب لا شعريّة بالضرورة، فأمعن أحيانًا في المباشرة والنثريّة- قد استطاع أن يطوّع القوالب العَروضيّة العربيّة لكلّ أنفاس اللغة المعاصر، بل اليوميّة، لتأتي القصيدة لديه في ثوبٍ عربيٍّ أصيل حداثي معاصر.

ولدرويش في تلك المجموعة نصوص من البحر البسيط، كقصيدته «في صحبة الأشياء»، (م.ن، 115):

كُنّا ضيوفًا على الأشياء، أكثرها
أقلّ منّا حنينًا حين نهجُرُها

أو قوله من «ربيع سريع»، (م.ن، 127):

مَرّ الربيعُ سريعًا مثل خاطرة
طارت من البال- قال الشّاعرُ القلقُ



بل لقد خاض درويش في مجموعته تلك شيئاً من التجريب في البحور الشعريّة العربيّة، وذلك كأن يضيف على وزن البسيط تفعيلتين (مستفعلن/ فاعلن)، ليصبح البيت على عشر تفعيلات لا ثماني تفعيلات، كما في قوله، من نصّه بعنوان «عالٍ هو الجبل»، (ص 198):

يمشي على الغيم في أحلامه، ويَرَى
ما لا يُرَى.   ويظنُّ الغيم يابسةً...
عالٍ هو الجَبَلُ

وقد مضى على هذا النظام في أربعة مقاطع، بحيث يمدّ نهاية تفعيلات البسيط بتفعيلتين تحملان القافية في نهايتهما. وهو كسرٌ للقالب التقليدي، جاء جميلاً، في ذائقتي، وإن كان قد أخلّ بتوازن الشطرَين، لو قُسم المقطع إلى شطرين في كل شطر خمس تفعيلات، وذلك من حيث تراتب التفعيلات، حيث كان الشطر الأول على (مستفعلن/ فاعلن/ مستفعلن/ فَعِلن/ مستفعلن)، والثاني: (فَعِلُن/ مستفعلن/ فَعِلُن/ مستفعلن/ فَعِلُن). إلاّ إنْ نَظَرنا إلى الشطر الثاني بصفته مقلوبَ الشطر الأول من حيث ترتيب التفعيلات. وفي هذا تصرّف جيّد، يحاكي مراودات الموشح الأندلسي لتجديد الموسيقى الشّعريّة العربيّة في نطاقها، وإن كان من الموشّح ما خَرج إلى آفاق مختلفة لا حصر لها، كما بيّن (ابن سناء الملك) في كتابه «دار الطراز».

وتأتي قيمة تلك الأوبة الدرويشيّة إلى العَروض العربي من أنها تعبِّر عن عدم القطيعة مع الشّعر العربي في قوالبه الأصيلة، كما يحلو لبعض شُداة الحداثة، بلا حداثة، أن يَهِمُوا. كما أنها تدلّ على وعيٍ بإمكانيّة تحديث التراث من خلاله، لا من خارجه، وأن في الإمكان تفجير أشكال لا نهائيّة من «عرابسك» الموسيقى الشعريّة العروضيّة، عوَض القفز عليها جملة وتفصيلاً لاستبدال الشّعر بخواطر نثريّة- «مصرّحة وغير مصرّحة»- تسَمّى شعرًا؛ لا لشيء سوى أن الجميع يريدون أن يسمّوا شعراء، ولتذهب القواعد النوعيّة لجنس الشّعر في مهبّ «الشعرنة»، مثلما أن طائفة مقابلة تريد أن تُكتب جميعًا في زمرة الروائيّين، ولتذهب القواعد النوعيّة للجنس الروائي في مهبّ ادعاء الرواية.

وكذلك يفعل في نصّه بعنوان «مناصفة»: (ص 231)، وغيره. بطبيعة الحال لم يكتب درويش قصائده تناظريّةً هكذا، كأبيات الشّعر العربي، بل فرّق دماءها بين الأسطر، بطريقة تُوْهِم النّاظر أنها قصائد تفعيلة. ألأن الشاعر يستنكف أن يظهر- بعد مشواره التحديثي الطويل، الذي أصدر فيه مجموعات كاملة بعضها على تفعيلة يتيمة، ولاسيما «فاعلن»- قد عاد إلى قواعده سالماً، وإن ببضعة نصوص قصيرة جداً؟ درويش نحسبه شاعراً كبيراً، على كلّ حالٍ، ولم يكُ في حاجة إلى التواري خلف الأشكال الفنية، أو الهرب من مثالب قبليتين على حدّين متطرّفين من مزاعم التقليديّة والحداثيّة، بناءً على معايير شكلانية سطحية.



سماءٌ من عبير..!

شِعر: عبدالله أحمد الفَيفي

-أ-

ما الذي أبقيتِهِ منكِ ومنّي،
غيرَ ذكرى العِطرِ
تبنيكِ سماءً من رؤايْ؟!

****

آهِ، يا ليت سماءً تهطل الآن شذاها في عروقي
تشعلُ النبعَ المصفّى في أباريق بروقي،
ترتوي منكِ دهاقاً،
لحظةً، يا لحظةً واحدة فيكِ بدنيايَ،
وفيها: منك تمتدّ حياتي في حريقي!
أنتِ يا من قد تصفّى من بقايايَ بقايا من سماوات عروقِكْ!

****

ليت، يا ليت بقلبي غير قلبي!
منه أمضَى، ينتضيني منكِ،
يجتدّ من الماضي المواضي/ الحاضرات/ اللاعجِات الآن فيهِ،
ترتوي منها شراييني بزيتٍ من قناديل شروقِكْ!

****

ليتني أدري بترتيب المعاني في المباني،
كي أغنّي، بترانيم الأحاسيس العذارَى،
البابليّات إذا تزهو ببابي،
كي أعيش العمرَ فنّي!
ليت أنّي..
ألتقيني فيّ/ فيكِ، عَوْسَجًا أو مَرْدَقُوْشا!
أنتقي ما في سحاب الصيف، إذ يطوي محيّاكِ إلى ساحات روحي،
أو إلى غيريَ تطويكِ انتقاءاتُ صروفكْ!

****

ما عرفتُ الحبّ رَقّةْ!
إنما الحبّ بقاموسي طيورٌ مبحراتٌ من مصيرٍ في مصيرْ!
سابحات في السديم الأوّل الغضّ الغزيرْ!
فهَبِيْ أن الهوى كان خيالاً، أو مُحالاً، أو خبالاً، أو خطيرْ
فلماذا تكسر الشمسُ سناها؟
تأكل الأُمّ ضناها؟
تُقفل الطيرُ صباحاً لَجّ في الأفق الكبيرْ؟!

****

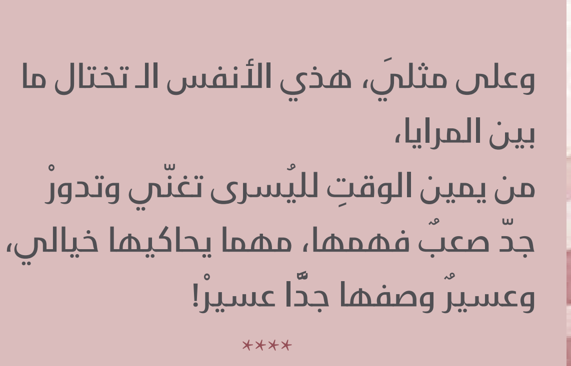
«لم يكن حُبًّا»، (تقولينَ)؟
أما كان وراء الحُبّ إلاّ منكرٌ يدعو نكيرْ؟!
ولماذا حبّنا الشرقيّ سيفُ مُشْرِقُ الغُرّة ما بين التراقي والثغورْ؟!
راحل ما بين حاء «الحُـ../..بّ» والباءِ،



فإمّا... أو فكلاّ... لا يصيرْ؟!
....
ما الذي أبقيتِهِ منّي ومنكِ غير ذكرَى،
محض ذكرى من عبيرْ؟!

-ب-

أقفلِ القلب وغادِرْ!
إن هذا الحُبّ غادِرْ!
لا تُبيحنّ لريح العشق باباً، أيّها القلبُ،
تَعِشْ حُرّاً كريماً، أو فعِشْ عبداً أسيرْ!
****
قال قلبي:
أتُرَى، إنْ لم يكن عشقٌ بقلبي، كيف أمحو
دفتر الذكرى؟
وأمحو من حياتي لثغةَ الروحين صبحاً
وعشيّا؟
كيف أُلغي من تراثي كلمةً تعني
«صداقةْ»؟
لم أعد أسطيع تغييري من الداخل، كي
أغدو جداراً، أو رصيفاً، أو أداوي منطقيّات
الحماقةْ!
فحصاد العمر شِعرٌ، وفصول الروح نهرٌ من
شعورْ



وعلى مثليَ، هذي الأنفس الـ تختال ما
بين المرايا،
من يمين الوقتِ لليُسرى تغنّي وتدورْ
جدّ صعبٌ فهمها، مهما يحاكيها خيالي،
وعسيرٌ وصفها جدًّا عسيرْ!
****
لم تعد ثم حكايةْ
إنما كل الحكايةْ:
أن قلباً واحداً، كان يراه واحداً، نصفٌ
تخلّى فجأةً، من دون إنذارٍ، وراحْ
ليته عاد كما كان، لطفلين سياميّين،
كانا بقيا قيد انفصال واتّصالٍ، وهْو- إنْ
عاش، وإنْ مات- استراحْ!
....
****
ما الذي تعنيه في مخيال هذا وردةٌ، أو
كِلْمةٌ، أو أغنياتٌ من حريرْ؟
ما الذي يعنيه: أنْ يعشق/ أنْ يُحرقَ/ أنْ
يَذكرَ/ أنْ يُنكرَ/ أنْ يكتبَ/ أنْ يكذبَ؟
لا شيء! فغاباتٌ من الشهوات تعني
عنده المعنى،
وتبقَى، رغم آلاف الدوالي، عنده:
المعنى الأخيرْ!
****
فاذهبي، عشتارُ،
إنّي أنا كلكامشُ، أحمي عشبَ أوروك
من العشق،
ومن ثور السماءِ المستثار المستثيرْ!
وعِدي غيري بأنفاسكِ، ليلاً، قد عرفتُ
الآن جهلي،
وكشفتُ الشمسَ للسارينَ في القلبِ
الضريرْ!

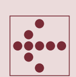
الفقر والوصولية كما يرسمهما جمال ناجي

«عندما تشيخ الذئاب»



قبل عامين، نشر الأديب الأردني جمال ناجي روايته «عندما تشيخ الذئاب»، التي كانت ثمرة إجازة التفرغ الأدبي التي حصل عليها عام 2007م من وزارة الثقافة الأردنية. وخلال العام الجاري، صدرت عن الدار العربية للعلوم الطبعة الثانية من هذه الرواية التي ترصد بعض أوجه التحول الاجتماعي في ناحية محددة من نواحي العاصمة الأردنية عمَّان. نائية الرفاعي تعرض قراءتها لهذه الرواية، وتختار لنا فقرات من أقوال شخصياتها تعبِّر عن عالمهم وقضاياهم ونظراتهم إلى بعضهم في بيئة تبدو أليفة للكثيرين.

رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير



عن روايته «عندما تشيخُ الذئاب» يقولُ جمال ناجي: «بعد أن فرغت من كتابة الرواية تأملت شخوصها من جديد وتنبهت لوجود ثلاث خيبات بسبب الشخوص الأخرى وتبرمها وتمردها. وعلى الرغم من كل ما يودّ المشاركون في هذه الرواية قوله، سواءً أكانَ صدقاً أم كذباً، أم دفاعاً عن النفس، فإنّ الحقيقةَ لن تكونَ حريّة بالاهتمامْ، إذا لم تكُن قادرةً على حمايةِ نفسها».

فهل تمكّنت الروايةُ من إماطة اللثام عن حقائق قادرة على حمايةِ نفسها مهما خبّأتها عباءات الزيف وتسترت عليها؟

جمال ناجي، روائيّ وفنّان تشكيلي أردني من أصول فلسطينية، وُلدَ في أريحا وانتقل للعيش وأسرته في العاصمة الأردنية عمّان. لهُ عددٌ من المشاركات الفاعلة في المشهد الأدبي الأردني، أهمّها ترؤسه رابطةَ الكتّاب الأردنيين لسنتينِ متتاليتينِ. تقاطع دربه و درب الروايةِ في السبعينيات من القرن المنصرم، فكتبَ «الطريقَ إلى بلحارث» الروايةَ التي نالت نجاحاً كبيراً وقتذاكَ، وكانتْ باكورة إبداعاته الروائية المتتالية متباينة المُحتوى. صدرت له مجموعة متلاحقة من الروايات كان مسكُ ختامها رواية «عندما تشيخُ الذئابُ».

لماذا «عندما تشيخُ الذئاب»؟

لدى الوقوف على عتبات هذا النص الروائي، لا ينتظر القارئ طويلاً ليعي أن الكاتبَ قد جعل من عنوان النص مفتاحاً يلج من خلاله أي قارئ شاء إلى الداخل بيُسر، مهيئاً إياه إلى وجبة أدبية شهية. فالعنوانُ كانَ بمثابة «ومضة» تشي بمحتويات النص من دون أن تفضحها، فعلى سبيل المثال -لا الحصر- نجده يشي بمسألتين: الأولى عنصر الزمن في الرواية، والثانية: فكرة عامة حول الصفات المقترنة بشخوصها. فأما الأولى: فالمفردة «تشيخ» تشي بأن عنصر الزمن في الرواية هو فترة زمنية لا تقل عن أربعين عقداً على الأقل، فيتهيأ القارئ لخوض غمار أحداث متواترة لفترة زمنية قد تشكّلت لديه فكرة حولها مسبقاً وسمحت له أن يتابع ويتنبّأ ويترقّب. وأما الثانية، فالمفردة ذاتها -تشيخ- توحي للمتلقّي بأن شخوص الرواية قد أصيبت بالشيخوخة، ويبقى عليه أن يتمّ القراءة ليتأكد من كون هذه الشيخوخة حقيقة أو مجازاً. وأما الصفة الأخرى التي أطلقها جمال ناجي على شخصوص الرواية -الذئاب- فيتوقع القارئ من خلالها أن يكون الكاتب قد تطرّق إلى قضايا فساد أو نفاق أو مكر وخبث، وتوحي بعدد من الحالات النفسية السلبية قد يكون أخضع شخصيات روايته لها، لتتنكّر لبشريتها وتصير ذئاباً.

عنوانٌ فني كهذا يحتاج قارئاً ذكياً، يلج صفحات الرواية دون تأنّ، فمع كلّ صفحة تُقرأ من الرواية سيتكشّف للقارئ صحة استنتاجاته المتشكلة من خلال العنوان (الومضة) الذي اختاره جمال ناجي لروايته، فيجد أنها قد مثّلت تداعيات عديدة لوقائع وأشخاص جاءوا من بيئات متباينة، وناقشت قضايا مجتمعية تستند على محاور يصعب النقاش فيها في مجتمع يمكن أن يخرسه القانون ببساطة! وبذلك نجد أن الشخصيات في الرواية قد انخرطت تباعاً في مواقف حياتية خبيثة جعلت منها ذئاباً بشرية، تلوّثت بالخبث والمكر والفساد، ولا ننسى أن لمفردة «الذئاب» في تراثنا العربي دلالات عديدة، فذئاب الصحارى على سبيل المثال كان لقباً يُطلق على الصعاليك من الشعراء.

والذئاب -خلافاً لكل الكائنات الحية جميعها- مخلوقات تزداد مكراً وشراسة ومخاتلة كلما اكتهلت وشاخت! تصير أشرسَ وأكثر حرصاً على «اصطياد الفرائس» وبإسقاط هذه الصفات على شخوص الرواية، نجد التسمية من العمق بمكان!

ماذا تخبئ لنا الرواية في الداخل؟

انطلاقاً من ستينيات القرن المنصرم، ومن قلب عمّان القديمة ونواحيها، من أحيائها الفقيرة شبه المعدمة، من أمشاجها التي تضجّ بالعتيقِ، يخرج لنا جمال ناجي بشخصيات روايته «عندما تشيخ الذئاب» ليسلّط الضوءَ من خلالها على مجموعة من القيم والسلوكيات التي تهتّكت إثرَ انبثاقها من هموم المجتمع -الأردني- المتجسّدة في قضايا اجتماعيّة استراتيجية كالبطالة والفساد والانحراف.. يشتبك من أجلها العقل والقلب والجسد.

من عمّان، من «جبل الجوفة» تحديداً، هذا الحي الفقير تنطلق شخصيات جمال ناجي لتعيث خرابها! تصول وتجول في أحياء عمّان الشرقية، تصلُ إلى الأشرفية وماركا، جبل التاج والقويسمة، فوسط البلد، ثم اللويبدة وإسكان الصحافيين في طبربور، وهلمَّ جراً!.

تناول النص الروائي بسرد متنامٍ حكائي متسق قضايا التفكك في المجتمع من جوانب عديدة، فتطرق إلى التفكك الأسري والروحي وعالج تلك القضايا بأسلوب جميل، ذكي ومتقن، لينتقل من خلالها إلى قضايا سلبية أُخرى منتقدة في مجتمعاتنا العربية، والحديث عنها يعني خطأً أحمر. فنجدهُ يذكر السياسة والشخصيات السياسية المُطالبة بالحريات السياسية المطلقة ونفي المقيّد منها، يتحدث عن حكومات الظلّ التي تنشأ من خلال المطابخ السياسية الفارهة وسياسات ما تحت الطاولة. وأخيراً يذكرُ تبعات الحب.. حلالاً وحراماً. فقد تحدّثت الرواية عن صراع الحب والشهوة وعن الخيط الرفيع الذي يفصل ما بينهما، وقد تجسّد ذلك من خلال شخصيات عديدة متباينة ومختلفة تعكس بشراسة إرادتها في انتقاء توجهاتها الخاصة بما يتفق ومصالحها الذاتية. كما تحدثت الرواية عن الأحلام المكبوتة والرغبات

غيـر قابلـة التحقيق، الأمنيات التي تظـل أمنيات لا تجيء. أمـا العامـل المشتـرك الأكبر الـذي كان يجمع بيـن أكثر شخصيـات الرواية فقد كان عامـل الفقر والعوز والحاجة، الفقـر بمعانيه، الفقـرُ كمشكلة اجتماعيـة بحتة، كالحاجة إلـى المال والخوض فـي غمار الحياة من أجـل العيش، ثم الفقـرُ للحـب والتضحية بلا هـوادة بالروح والجسد من أجلـه، دون التفكير في الخيط الرفيـع الـذي يفصـل الحب عـن الشهوات المُحرّمـة، ومن ثم فقرُ الـروح التي لم تعد تعرف ربها، ولا يستطيعُ أن يغذيها شيء في الدنيـا ليرتفع بهـا ويعلو، الفقـر للطمأنينة والأمـان والحاجـة الماسة إلى مـن يلبيهما ويؤمنهما.

كيف ينخدع ذوو القلوب البريئة الطاهرة بالظاهر، وكيف أن النوايا لا تُكشف بأجهزة الكذب

أكثـر ما تجلّى فـي الرواية كصراع يجوب فـي نفوس جميع شخصيـات القصـة، وكاضطراب حاد تعانيـه وتعايشه هو احتـراف فن الخـداع والغش. تسعُ شخصيـات -سندس، جبـران، عزمـي الوجيـه، جليلـة، الشيـخ الجنزيـر، رباح الوجيه، بكـر الطايل، العقيد ارشيـدات، صبري- استطاع جمال ناجـي من خلالها أن يحكم قبضتـه على العديد من مشـكلاتِ المجتمـع العربي عامة، والأردنـي خاصة، أحكم قبضتـه عليهـا وضبطهـا تتأرجحُ فـي أفكاره يمنـة ويسرة فأخرجهـا لتمارس جنونها في أحياء عمّـان الشرقية. تسعُ شخصيـات استطـاع جمال ناجـي من خلالهـا أن يتحدّث بحريـة وسلاسة عن الخيانة اللصيقـة في الذات البشرية، الخيانـة بمفهومها الشاسـع، خيانة النفـس للنفس وخيانة النفـس للآخريـن، تحدث وأسهب عن الكـذب، عن النفاق الاجتماعـي والسياسي والفكـري والأخلاقي، الـذي جسّد جمـال ناجي مـن خلاله كيف يمكن أن ينخـدع ذوو القلوب البريئة الطاهرة بالظاهر، وكيف أن النوايا أمرٌ لا يُمكن أن تكشف عنه أجهزة كشف الكذب مهما حاولت!.

يطوِّع جمـال ناجي شخوص روايتهِ في محاولـة لجعلها تؤوّل هـذا الفساد الأخلاقـي، وتشرح الانهيار الفكـري الذي غزا المجتمـع وصار وجهاً من وجوهه المتعددة لا يُمكن نزعه ولا إحراقـه، فيحـاول أن يستدرَّ أفكاره أن تنهمـر أكثر فيناقش الزواج والطلاق ثم يدمج هـذه القضايا الاجتماعية بقضايا أخرى أخلاقية لصيقة بها، كالخيانة الزوجية وغيرها.

خمسـون فصلاً قصيـراً ومنفصلاً تمكَّـن جمال ناجي من خلالهـا تلخيـص العديد مـن القضايا والتيـارات المهمة، مسلطـاً الضـوء علـى السلبيـات والتجـاوزات الكثيرة غير المقبولـة التـي يعجّ بها المجتمـع ويتستر عليهـا، فيتحدث عن اللا قيم، واللا اعتقـاد، ويركِّز على فكرة تلاشي الثقة ما بيـن النـاس حدّ انعدامها، ويوضـح بطريقة خفية أن كل تلـك المساوئ كانـت نتاجاً للتفكير فـي المصلحة الفردية العارضة التي تغيِّب أي مبدأ أخلاقي.

اللغة لعبةُ الأديب

الرجـل الذي سلّمنا مفتاح روايته لنلج إلى الداخل، لم ينسَ أن يتـرك بصمة في كل مـكان فيها. فلغة جمـال ناجي في الرواية كانت لغة بسيطة، بليغة لاعتنائها بمجمل الخطاب، وقريبـة من لغة التخاطـب المتداولة فـي المجتمع المحلي الأردنـي، فنجده حريصاً علـى الجمع ما بيـن اللغة الثرية والسهلـة في آنٍ معـاً، بحيث لا يستعصـي فهمها على أحد، فلا تكـون اللغة الصعبة الممتنعة، ولا اللغـة سهلة البناء أو ركيكة النسيج اللغوي.

الأسلوبُ والتقنية السردية

القـارئ لنـص روائـي يرتفع فيـه منسـوب العاطفة كنص «عندمـا تشيـخ الذئـاب» سيشعـر أن صاحب هـذا النص قنّاص ماهر للحـالات الشعورية، ومصوِّر لغـوي متمرِّس يستطيـع تسليط الضوء عليها مستخدمـاً أبسط المفردات وأسهل التراكيب، مبتعداً عن الجذل منها لكي يصل عميقاً إلـى قلـب القارئ. لقـد استطاع جمال ناجـي -في كل مرة كتـب رواية فيهـا- أن ينجح فـي اختيار الفكـرة المناسبة لهـا وتسليط الضوء عليها لمعالجتهـا، واستطاع أن يُحيكها بنسيـج أدبـي متماسك متيـن، ومتباين مختلـف، حريصاً علـى ألاَّ يُكـرر نفسـه، وألاَّ يقـدِّم شيئـاً كان كان طُرق من قبلـه مسبقـاً. والقـارئ المتمعّنُ فـي كتابات جمـال ناجي الروائيـة، لا بـد سيلاحـظ بأنه روائـي يتبع أسلوبـاً وسطاً مـا بينَ العمـق والسطحية، ومحاولاته كأديـبٍ للوصول إلى الجـدةِ والابتـكار دُون المساس بالعناصـر الرئيسـة التي





تقوم عليها الرواية واضحة. فلو نظرنا إلى روايته «عندما تشيخ الذئاب» تحديداً، فسنستنتج بأنها تميزت -من حيث أسلوب سردها- بأمور ثلاثة. أولها: الربط ما بين الأحداث والشخصيات من خلال شخصية محورية واحدة، سماها عزمي الوجيه. إذ يمكن القول بأن جمال ناجي قد نجح في ابتكار حلقة وصل متينة ورفيعة المستوى للربط ما بين فصول القصة، بحيث تتكشّف الحقائق والأحداث شيئاً فشيئاً في الفصول الأخيرة، فينتهي القارئ من الرواية وعلامات دهشة تحومُ حولهُ: كيف استطاع جمال أن ينجح في ربط الأحداث معاً بهذا الشكل المحترف؟ الأحداث التي ما كانت لتبدو متشابكة بأي حال من الأحوال؟

أتقن ناجي صياغة السرد بطريقة ممتازة، واهتم بالمفردات والتراكيب وكان استخدامه لها ذكياً

ويلاحَظ أن كل فصل من فصول الرواية كان معنوناً بعناوين تحمل أسماء الشخصيات التى سردت وروت القصة فبدا فصلاً قصيراً مستقلاً بذاته إلا من بعض تفاصيل صغيرة مشتركة ما بين أكثر من فصل واحد، كأسماء أشخاص أو أسماء أمكنة، ويلاحظ قارئ هذه الفصول أن الترابط ما بينها -في البدء- يكاد أن يكون معدوماً، فجاءت منفردة لها راويها وزمانها وأحداثها الخاصة، ليفاجأ بعد إنهائها بترابُطها الخفي المتقن، المتشكل من خلال شخص على دراية تامة وحقيقية بأصول السرد وتقنياته. والرابط الأبرز الذي يجمع ما بين الفصول الخمسين هو «عزمي الوجيه» كما أسلفنا، الشخصية التي تتمحور حولها أكثر أحداث القصة، وتدور حول كوكبها أقمار صغيرة كثيرة من تفاصيل، ولأن الشخصيات جميعها تسرد أحداثاً تتعلق (بعزمي الوجيه) من دون أن يسرد هو شيئاً فعلاً، فإن شخصيته تظل غامضة مبهمة ومحيرة، كمزيج من أفكار متناقضة لعدد من الأشخاص، يحاولون وصف شخص واحد، ويظل عزمي شخصية غير مفهومة تماماً، نراها بعين الحيرة من خلال عيون كثيرة، ولا تنجلي.

ومن هنا نصِل إلى الميزة الثانية التي تميّزت بها رواية جمال ناجي، فنقولُ بأن التقنية السردية التي استخدمها المؤلف لتقديم روايته إلى جمهور القرّاء كانت من الذكاء بمكان، فنجده قد اختار «البوليفونية» أو كما هو متعارف عليه بتقنية تعدد الروّاة/تعدّد الأصوات، حيث يقوم الكاتب بتقسيم الرواية إلى عدد من الفصول، يحمل كل فصل فيها اسماً لأحد شخصيات الرواية، وتقوم الشخصية بسرد الأحداث كما تعرفها، متحررة من أسلوب «الراوي الذي يعرف كل شيء». الجميل أن هذه التقنيةَ تُبعد الكاتب عن استخدام عبارات الوعظ والإرشاد على لسان الراوي، وتحرره من مأزق الالتزام بالتأريخ. وقد قام جمال ناجي بدمج عدة مستويات حوارية لتدعيم أسلوبه ونسيجه اللغوي السردي، مركزاً على الدراما العالية التي تتمتع بها بعض شخصيات روايته، وجعل كل شخصية تسرد ما لديها من أحداث بصيغة ضمير المتكلّم، مما أوحى بمزيد من الواقعية على القصة، وزاد من فكرة تخلّيها عن الوهم والخيال، بحيث يشعر القارئ بأن كل تفصيل صغير قد مرّ بشخصيات القصة هو حدثٌ بصيغته النهائية، حقيقي مستندٌ على واقعٍ لا يُمكن إنكاره، بعكس ما يفعله ضميرُ الغائب أكثر الأحيان، وبحيث أن استخدامه يجعل من الراوي مجرَّد شخص يسرد أحداثاً لا تعنيه على الأغلب ولا تؤثّر فيه كما تؤثّر في أصحابها ذات أنفسهم. ناهيك عن أن ضمير المتكلّم يلعب دوراً مهماً جداً في السقف الزمني الذي يحدده الروائي لأحداث روايته لكي تدور فيه، فعلى سبيل المثال: ضمير المتكلّم يشعر القارئ بقُرب الفترة الزمنية التي تدور فيها الأحداث، حتى وإن لم تكن كذلك فعلاً! ضمير المتكلّم أكثر ألفةً وحميمية لأن القارئ النّهم إذا ما استطاع الاندماج مع أحداث الرواية ومعايشتها فسيشعر بأنه المتحدث الذي يسرد على الآخرين أحداثاً تمسه وتخصه شخصياً كما لم يحدث قطّ!. وهذا هو أحد أسباب نجاح هذه الرواية صاحبة الأصوات المتعدّدة، والتي هي -بالمناسبة- تقنية سردية كانت قد انتشرت في عالم الرواية في الآونة الأخيرةِ من بعد ما ابتكرها الروائي الكبير نجيب محفوظ في روايته «ميرامار»، فانتهج عددٌ من الأدباء والكُتّابِ هذه التقنية السردية في رواياتهم لإيجابياتها المتعددة، وصداها المحبب، كالطيب صالح مثلاً، ليكونَ جمال ناجي أيضاً أحد هؤلاء الأدباء.

أما الميزة الثالثة التي تمتّعت بها رواية جمال ناجي فهي: التذبذب السردي المتعمد، اعتماداً على الشخصية المتحدّثة وتناوب سرد الأحداث من قبل كل شخصية بلغتها الخاصة استناداً إلى موقعها الفكري والأيديولوجي.

لقد أتقن جمال ناجي صياغة السرد بطريقة ممتازة، فاهتمّ بالمفردات والتراكيب وكان استخدامه لها ذكياً جداً!. فالفصل الذي تتحدث فيه سندس، يختلف نسيجه اللغوي تماماً عن الفصل الذي يتحدث فيه الشيخ الجنزير، يختلف عن النص الذي يتحدّث فيه بكر الطايل أو جبران. فجاءت لغةُ كل شخصية في الرواية -المفردات والعبارات التي استخدمتها والألفاظ المستعملة- مقترنة بالبيئة التي جاءت منها وتنتمي إليها، تمثّل الفكر الذي يتلبّسها. ودعّم من ذلك استخدام جمال ناجي لبعض العبارات والمفردات العاميّة القريبة من اللغة العربية الفصحى من دون أن يسرف في ذلك أو يغالي، ليعتمد أخيراً على إيحاءات التراكيبِ المتنوّعة.

النقطة الأخيرة التي تحسب لجمال ناجي كنقطة تفوّق موجودة في الرواية هي أن هذه التقنية (تعدد الأصوات) لم

تقيده تماماً كما يحدث عادة مع الأدباء، فلقد استطاع أن يجد خيط ربط رفيعاً جداً ما بين كل فصل منفصل وآخر، هذا الخيط الرفيع كان اسمه: عزمي الوجيه، كما أسلفنا، والمفارقة أن شخصية عزمي هي الشخصية الوحيدة التي لم يخصص لها جمال ناجي فصلاً مستقلاً تتكلم فيه أو تسرد شيئاً من خلاله، ومع ذلك فقد تمحورت القصة حول عزمي الوجيه بشكل لافت ومُستغرب، لا تنجلي قبل الوصول إلى الفصول الأخيرة من الرواية.

فمن هو عزمي الوجيه في روايةِ جمال ناجي؟ ولماذا نعده الخيط الرفيع الذي يربط ما بين كل فصول الرواية؟

أهم شخصيات الرواية

استطاع جمال ناجي أن يقدّم لقرّائه بحذق وحنكة ميزةً تختصّ بشخصيات الرواية، فالقارئ سرعان ما يشعر بألفة معها كما لو كانت أحد أصدقائه المقربين، فيُرغم على أن يحبها، وأقله يألفها، على الرغم من كل هفواتها وأخطائها!.

هذه الشخصيات تشترك في أنها تعرضت لأحزان قاصمة، وجور حياتي ممتد، صادفت الفقر في حياتها، فإما أنها استطاعت التغلّب عليه وإما أنه قد فتك بها!. ورغم ذلك فهي شخصيات مراوغة ومخادعة، تثابر في سبيل مصلحتها الشخصية دون الاستناد على مبدأ سليم يوجهها وتسير وفقاً له.

1 - عزمي الوجيه:

يرد اسم عزمي الوجيه في الصفحة الأولى من الفصل الأول كبداية يستهلّ بها جمال ناجي روايته، ونتعرف إليه في الرواية على أساس أنه الشخص الذي تدور حوله أحداث الرواية بشكل عام، فنجد أن الشخصيات جميعها تتحدث عنه وفقَ منظور مختلف كل مرة، وبأساليب تتباين استناداً للبيئة التي جاءت منها الشخصية، واستناداً لثقافتها الفكرية والطبقة المجتمعية التي أتت منها. تختبر مواقف معه تجعلها تحبه أو تحقد عليه، وتصل إلينا الصورة من خلال الشخصية المتكلّمة متعلقة بهذه المواقف، وهذا ينفي صحتها اليقينية.

يمثِّل عزمي شخصية الشاب/الفتى الهادئ، قوي الشخصية، المستقل بنفسه منذ صغره، الذكي، حاد الطباع، الواثقُ ذا الكبرياء، الشاب الذي لا يرضخ. يبدأ ظهوره في الرواية بسيطاً خافتاً، وشيئاً فشيئاً يصبح أهم شخوصها، يتشعب الحديث عنه من خلال أحداث كثيرة، يبدأ بها من خلال انضمامه إلى حلقات دروس الشيخ الجنزير، الذي يجعل من عزمي ساعداً أيمن له بسبب ذكائه وقوة ملاحظته. يحيد عن الطريق المستقيم بعد أن يفقد ثقته بمن كان يمنحه هذه الثقةَ وينغرس شيئاً فشيئاً بالفساد والحرام.

2 - سندس:

تبدأ فصول الرواية بحديث على لسان سندس، الشخصية الماكرة المتحرّرة من كل شيء إلا من رغباتها وإرادتها وطموحاتها. فسندس تمثّل فتاة جميلة ركنت عقلها جانباً لترضي رغباتها لأنها تعلم أن بإمكانها أن تحقّق مطالبها هذه عن طريق توظيفها لسلاح جمالها، دون أن يردعها رادع أو يوقفها مبدأ. ونقول متمرّدة، لأنها -في الحقيقة- ضحية المجتمع المغيّب عن الوعي، مجتمع سلطوي ذكوري، يتحكم بالمرأة ويذلّها، مجتمع مسحوق يؤرجحه الفقر ما بين دفّتين، ففقرها وجرح كرامتها -إذ تطلّقت في ليلة زفافها الأولِ بسبب عجرفة أبيها، وجُبن زوجها- جرّاها إلى درك التمرّد المذموم، ففقدت ثقتها إلّا بجمالها وأنوثتها..

3 - جبران:

الباحث عن المنصب، المتنكّر لأصحابه وأصدقائه ومعارفه في سبيل المحافظة على منصب وجاه ومال، جبران يمثل صورة لمناضلٍ ماركسي، يدافع عن طبقة الكادحين والمحرومين، يدخل المعتقل السياسي للدفاع عما يؤمن به ويعتقد به. ويسعى سعياً حثيثاً للمحافظة على ثروته التي لم يرثها وإنما صنعها.

يمثل جبران الشخصية الانتهازية المتسلقة، التي تتحكم بها أيدٍ خفية دون أن تعي ذلك فعلاً. حين يصبح ثرياً يبدأ بالتنكر لماضيه، ويتبع هو وزوجته المظاهر الاجتماعية المبهرجة الكذابة، لإقناع نفسيهما بأنهما قد أصبحا من طبقة محرّمة على الفقراء والمحتاجين ما داما قد تخلّصا من هذه الصفة للأبد، ويتماديان في ذلك حدّ أن تشتري زوجته قطاً وتسمّيه «سينزي»، لتتباهى به أمام صديقاتها ووجهاء المجتمع!. جبران هو الشخصيّة السياسية (الظاهرة) في الرواية صاحبة المبدأ غير الثابت، الشخصية التي تتبنّى أفكاراً، ثم تبدأ بالتخلي عنها رويداً رويداً وفقاً لتطورات المجتمع وتبدلاته وانتكاساته.

بعض الملاحظات على الرواية

بالالتفات إلى طريقة جمال ناجي في عرض روايته، فمن الملاحظ اتّساع المدى الذي تدور فيه الأحداث، مما جعل الكاتب يتطرّق إلى استخدام أسلوب نثر الأحجيات في مواضع مختلفة منها، وبناء أحداث متواترة على أحداث مبهمة سابقة، وهذا يتطلّب من القارئ تركيزاً حاداً ليتمكّن من التقاط هذه الأحجيات فحلّها. وتأجيل إتمام الرواية إلى وقت لاحق قد يجعل مسألة الكشف عن هذه الحلول سهلاً ممتنعاً إن لم يكن صعباً، كونها مترابطة وتحتاج عقلاً يمتاز بقدرته على الاحتفاظ بالملاحظات والإشارات جيداً، والربط فيما بينها. أسلوبٌ كهذا صعبٌ ويحتاجُ من الكاتب إلماماً ومعرفةً، واستخدامه قد يرفع

مـن قيمة الروايـة، إلا أن الإسراف فيه غيـرُ محمودٍ ويردّ السحرَ على الساحر!.

بالانتقالِ إلـى الموضوعات التي عالجتهـا الرواية، فمسألة النسـبِ والشرف، واختيار المؤلّـف لأن يجعل من «القلادة» سـراً نـادراً مـا -وهي قـلادة ثمينـة كانت تملكها جليلة والدة عزمي، ورثتها عن أهلها، يجـيء ذكرها بشكل متقطّـع في الرواية إلى أن يتـم كشـف سرها فـي الفصـل الأخير- فربط السر المشـار إليه «بالقلادة» لم يكن متقناً تمامـاً، لأن جمال ناجي لم يستطع أن يحافظ علـى عنصر الدهشـة المتعلق بهذا السر إلى آخر فصل في الرواية، والقارئ أياً كان يمكـن له أن يتوصل إلى الحـل قبل الوصول إلى الفصل الأخير بكثيـر، وأرجح أن السبب في ذلك يعود إلى أن توزيع الإشـارات والومضات المتعلقة بالسر لـم يتم بالشكل الذي يحافظ عليه من عيون القرَّاء أن تكتشفه وتصل إليه قبل أن يتطرَّق إليه الراوي.

استخدم الكاتب أسلوب الأحجيات التي تتطلّب من القارئ تركيزاً كبيراً لحلها

أسـرف الكاتـب في بعض المواضع في الحديـث عن جانب دون الالتفـات إلـى جوانب أخرى كما يجـب. وقد ظهر ذلك فـي روايته في مواضع قليلة، بحيـث إن بعض أحداث الرواية كان وجودهـا غيـر مستساغـاً تماماً، وكان يمكـن الاستغناء عنها بسهولة دون أن يقوّض ذلك بناء الرواية العام. ومرَّت بعض أحداث الرواية عجِلة وسريعة، ولم يسهب الراوي كثيراً بشأنها كما فعل في بعض الفصول الأخرى بشكل مطوَّل وغير مبرّر، كالأحداث المتعلّقـة بعزمي وشرطة المباحث، وهروبه منهـم ومروغتـه إيّاهم، وعـدم قدرتهم علـى الإمساك به. هـذه الأحداث كانت مقتضبة بشـكل مستغرب إذا ما قورنت -مثلاً- بالأحداث التي كانت تقصهـا سندس بتفصيل شديد وبشـكل فائض عن الحاجـة أحياناً، كحديثها عـن زيجاتها وتفصيلات بحثها ولقائها بعزمي الوجيه، وغير ذلك.

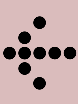
وكمـا أسلفنا، فشخصيات الرواية -أغلبها- جمعت فيما بينها صفات مشتركة كان التركيـز على وجودها في الرواية طاغياً، فجميعهـا استغلالية وانتهازية همّهـا الأول مصلحتها الذاتية، خرجـت من بيئة فقر وعـوز، وصولية تستند إلـى مبدأ مغلوط لتسييـر حياتها، فهل يصب هذا التعميـم في صالح الرواية أم ضدها؟

والمستغرب -إلى حـد ما- أن الشخصيات جميعها لم تأت على ذكـر ماضيها والتطرق إليه، ظهـرت للقارئ كأنها قد انبثقـت في مرحلة زمنيـة معينة، وقُصَّـت جذورها تماماً، لتبـدأ رحلتها من أجل تشكيل جـذور أخرى من جديد. فهل يصب هذا في صالح الرواية حقاً؟



قالوا في هذه الرواية

- رئيس الوزراء الأردنى الأسبق فيصل الفايز، على موقع أخبار الجزيرة: «إنها تشكل انعطافة فى التجربة الروائية الأردنية بما فيها من دلالات وغوص فى الشخصية الأردنية الإنسانية.. وجدت من خلال قراءتى أن شخوصها تتحرك فى أحياء متباينة، تنبض بالحياة وتعبِّر عن مرحلة من مراحل التحول فى مجتمعنا».
- الناقدة مريم جبر: «إنها تُعد تمثيلاً حقيقياً لسعي مؤلفها في تجاوز الذات، والشكل الروائي معاً، حيث برع المؤلف فى تجسيد تناقضات الذات الإنسانية وانفعالاتها ومواقفها إزاء الأحداث السياسية والمتغيرات الاجتماعية».
- الناقد الدكتور سليمان الأزرعي: «هي الرواية الأكثر مهنية ونجاحاً وتعمقاً في إدراك القوانين غير المنظورة التي تحرِّك المجتمع».



مقتطفات

«عندما تشيخ الذئاب»

فقرات من أقوال أبطال الرواية

سندس

في ذلك الجبل الذي تعتلي فيه البيوت بعضها، وتفصل بين صفوفها أزقة أو أدراج ذات حواف منحوتة، تحدث أمور أغرب من أن يصدقها أهل عمان الذين تعرفت إليهم في السنوات الأخيرة، فالإنسان هناك ليس هو المالك الوحيد لبيته وفراشه، الملكية موزعة بينه وبين الكائنات الأخرى، لأن «الشراكة قائمة بين الناس والكائنات الأخرى التي تدبّ على الأرض بانتظام مرسوم» حسبما قال لي عزمي، بعد أشهر من زواج والده رباح مني.

فاجأني بقوله هذا، فهو مقلّ في الكلام مثل أمّه، ويتحدث بطريقة الكاشف لما وراء الأشياء!

فكرت فيما قال. بدأت أنظر إلى الأشياء بطريقة مختلفة، وتبيَّن لي أن للحياة في حيِّنا السفلي نظاماً خاصاً، على الرغم من الفوضى التي يسببها الناس بعد صحوهم من نومهم وذهابهم إلى أعمالهم. فعصافير الدوري تتناوب على حيِّنا فجراً، ليس بسبب بساتينه أو أزهاره، التي لا وجود لها، إنما لأنها تجد ما تقتات عليه من الديدان المذنبة القريبة من قنوات المياه العادمة في الأزقة، وتجد ما تشربه من البرك الصغيرة المتجمعة من المواسير العامة، التي يعمد السكان إلى كسرها لأنها تمر من الحي وتغذي مناطق جبل التاج والأشرفية وغيرهما، فيما تنقطع عن بيوتهم أياماً طويلة.

من المفروض أن لي ثأراً عند الجرذان لأنها قتلت أبي، لكنني تنازلت عن ذلك الثأر بطيب خاطر. فبحسب رواية أبي فاروق الذي كان يسكن في زقاقنا ويلازم أبي ليلاً إلى مكان لا أعرفه، أن الرجلين عادا مخمورين مترنّحين وقت السحر كعادتهما، وداس أبي بحذائه جرذاً سميناً بغير قصد، فانزلقت قدمه بسبب لدانة جسم الجرذ وسقط جسمه الضخم على القناة الضيقة للمياه العادمة، فصار يشتم الفقر والشديات والأمانة، التي استغنت عن خدماته في تقليم أشجار الأرصفة، وأحالته على التقاعد قبل أن يتم الثامنة والأربعين من عمره.

بميتته تلك أراحنا من شروره التي بدأت بعد إفشاله زفافي الأول من صبري أبو حصة، ذي الوجه الأبيض العريض، والعينين اللتين توحيان بانعدام الثقة بالنفس أو الناس.

لم أغفر لأبي ما فعله بي يومها، على الرغم من محاولاته إقناعي بأنه لم يقصد تخريب عرسي، ولا منعي من التمتع بشبابي مع صبري أبو حصة، ولا الاحتفاظ بي حزناً على فراقي، إنما حرصا على هيبة العروس فيّ أنا، وصوناً لبيتنا الذي انتهكت رصاصات أبي صبري حرمته.

***

صرت أتأمل الأشياء من حولي، لاحظت أن جدران البيت حزينة، وإسمنت أرضه متشقق، وفناء الدار أشبه بسجن، أما غرفة عزمي فقد أقفلتُها وخبأت مفتاحها بعد أن رتبت ما فيها، وعندما سألني رباح عن سبب إقفال غرفة عزمي الصغيرة قلت: قد يعود.

الشيخ عبد الحميد الجنزير

من يقدر على بسط سيادته على نفسه وبدنه يصير سيداً للآخرين. سبحان الله! عزمي استطاع أن يتحكم بنفسه ويغذيها ويسيرها حسبما يشاء عقله الذي نما وأثمر قبل أوانه. فبعد عامين من تسلمه مركز تحفيظ القرآن، عرف الكثير من خفايا عملنا، وأعد قائمة بلزوميات تحسين المركز وإعانته على أداء رسالته.

***

حاولت تطهير نفس بكر الطايل مما علق بها من قتام حسده لعزمي، قلت له: أنسيتَ أن الحسد كان أول ذنب ارتكب في الأرض يوم حسد ابن آدم أخاه فقتله؟ منذ متى كان إبليس هادياً ومرشداً لك؟ عد إلى كتاب الله يا بكر وحرر روحك من وساوس الشيطان علَّ الله يرزقك.

***

أعرف أن مبالغة بكر الطايل في غضبه وسخطه، يرجع إلى نجاح عزمي وتفوقه، لكنني توصلتُ من دون جهد إلى أن بكراً لن ينجح في حياته، إذ من المؤكد أنه في قراراته يتمنى النجاح وامتلاك ما لدى عزمي من حنكة وذكاء، فكيف يمكن للنجاح والفطنة أن يستجيبا لمن يحسد الآخرين على امتلاكهم لهما؟ كيف يمكنه عقد السلام مع النجاح إذا كان

يحاربه حين يمتلكه الآخرون؟ منذ ذلك الحين أخضعت عقل ذلك الشاب النحيل، بكر الطايل، إلى رقابتي.

رباح الوجيه

أفهمت عزمي أن استعجال الرجولة أمر محمود، لكن صعود السلم يتم درجة فدرجة. فأجابني: بعض الناس يصعدون ثلاث أو أربع درجات على السلم في كل مرة.

صحت به: تكذبني يابن جليلة؟

فسكت وسرح.

***

الذي جنني وطلّعني من ثوبي هو ابني عزمي. لأنه لما شعرتُ بالخذلان مع زوجتي الثانية سندس، صار هو يأمرها كأنه زوجُها! وهي تطاوعُه وتستكينُ قدامه مثل الأرنبة. واللهُ على ما أقول شهيد!.

***

أصلاً جبران لم يعجبني، لأنه كان يهتم بشكله أكثر من اللزوم، كأنه واحد من أبناء الذوات، ويلبس بدلة غامقة لا يملك غيرها، على الأغلب أنه اشتراها من محلات الثياب المستعملة في شارع الطلياني، وكان يلمّع نعاله كل يوم مثل المكلفين في التجنيد الإجباري أيام زمان، ويحلق ذقنه كل يوم، ومثل النسوان، يقلع الشعر من فوق حاجبيه، ومن فتحتي منخريه، حتى إنه ما كان يربي شاربيه مثل الرجال!.

جبران

غالبية أولئك الناس ظلوا يعتقدون حتى وقت قريب بأن جبل عمان مكان أرستقراطي، مع أنه هرِمَ واكتهل، ولم يعد من المناطق المترفة بعد أن ظهرت في العاصمة أحياء جديدة راقية، مثل عبدون والصويفية والرابية وسواها من الأماكن التي يمارس الناس فيها انفتاحاً اجتماعياً مدعماً بالثراء الفاحش. جبل عمان أصبح الآن مكاناً هادئاً وقوراً وخاوياً في بعض بقاعه.

***

أيام جبل الجوفة ذهبت إلى غير رجعة، ولست آسفاً عليها، إذ لا توجد فلسفة ولا فكرة ولا ديانة تحول دون استمتاع الإنسان بأمواله، أو تطالبه بالتمسك بالفقر إذا استطاع



الإفلات من براثنه، لكن الجنزير وعزمي ظلا يشغلان حيزاً كبيراً في تفكيري، وأحسست بأنهما يمتطيان حصاناً واحداً ويتزاحمان على من الذي سيكون في المقدمة!.

بكر الطايل

تأملت هذه الحياة الفانية، وتوصلت إلى أن الموت أكثر يسراً من العيش في سبخة حياة لا سند للمؤمن فيها ولا عضد. حَسَبْتُها وفكرت: طالما أنني مشتاق للقاء وجه ربي، فلماذا أتأخر وأهدر الوقت في حياة كلها عذاب؟ تبرمتُ أمام الشيخ الجنزير، حدثته عما يفعله عزمي الوجيه، وبينت له ما يدور في رأسي، فأغلق عليّ كل المنافذ منهياً حديثه بقوله عد إلى رشدك يا بكر.

العقيد رشيد حميدات

حين وصلنا بيت رباح الوجيه، بعد ساعة من صلاة العشاء، طرقنا بوابته، فسمعنا نحنحة خشنة من النوع الذي يصدر عن المسنين بهدف الذود عن هيباتهم. فتحت البوابة، فرأيت عينين تلمعان في عتمة الدار، حتى إنني خلت الدار كلها كائناً أسود بعينين شبه آدميتين، وحين سلطت شعاع مصباحي اليدوي نحوه، رأيته متكئاً بكلتا يديه على عكازة معقوفة، شعره مغبر بنوع عجيب من الشيب الذي يمتد إلى حاجبيه وشاربيه ولحيته الكثة، كأنه خارج من قبر، أما قدمه فملفوفة بقالب من الجص.

***

أن ما بهرني حقاً، أنني رأيت بعد أسبوع من تلك الحادثة التي كادت تزلزل يقيني بسلامة عيني وعقلي، صورة عزمي الوجيه في واحدة من صحفنا المحلية، وهو يصافح مدير إحدى الجمعيات الخيرية الكبرى، ويسلمه شيكاً بمبلغ ثلاثين ألف دينار، تبرعاً للعائلات المستورة والمعوزين الذين ترعاهم تلك الجمعية! كان مبتسماً في الصورة ومغتبطاً.

قول آخر

في أروقة معرض لندن للكتاب

انعقد خلال الفترة الواقعة بين 19 و21 أبريل معرض لندن للكتاب، الذي يُعد واحداً من أهم المعارض في عالم النشر وصناعة الكتاب. وقد دار الحديث في الأيام القليلة التي سبقت انعقاده، حول ما إذا كانت إدارته تعتزم تأجيله بسبب تعطل حركة الطيران من وإلى أوروبا، تأثراً بالغبار البركاني الذي اجتاح جو القارة. إلا أن القرار أتى في النهاية بانعقاد المعرض في موعده. لكن أزمة الطيران استطاعت أن تفرض تأثيرها على المعرض بصورة أو بأخرى. إذ إنه رغم نجاح فعالياته بصورة إجمالية، إلا أن كثافة الحضور كانت أقل بكثير من العام الماضي، ولم يستطع عدد كبير من العارضين وممثلي دور النشر الحضور كما كان مخططاً.

وعبر أيام ثلاثة، توالت الندوات وورش العمل التي ناقشت العديد من قضايا صناعة الكتاب ونشره. وبطبيعة الحال، كان النشر الإلكتروني واحداً من أهم المحاور التي دار حولها الحديث. وتناولت الندوات مجموعة من الموضوعات المتعلقة بمستقبل صناعة النشر في ظل التغير الكبير الذي تجلبه «رقمنة» الكتب. ولأنه عالم جديد لم تستقر ثوابته بعد، دار نقاش موسع حول تسعير الكتاب الإلكتروني. فبعض الشركات رأت أن سعر الكتاب يجب أن يكون منخفضاً بصورة كبيرة حتى يقبل القرَّاء عليه. وفي هذه الحالة سيكون الربح مصدره كم المبيعات الكبير، وليس ثمن الكتاب نفسه. ومن جهة أخرى، رأى البعض أن هذه السياسة ستضر بصناعة الكتب، الورقية منها والرقمية، وأن التحرك بتأنٍ أكبر هو مفتاح عبور هذه المرحلة الانتقالية المهمة في تاريخ الكتب وصناعة نشرها.

يمثِّل معرض كتاب لندن فرصة تجارية هائلة، عبر (مركز الحقوق العالمي). الذي هو ملتقى يقام على هامش المعرض، يهدف إلى تكوين بيئة تجارية مناسبة، تفتح الباب لفرص التعاون بين الناشرين والوكالات الأدبية من جميع أنحاء العالم، سواء عن طريق شراء حقوق النشر والترجمة بين الجهات المختلفة، أو تبادل الأفكار والمقترحات لمشروعات مشتركة قادمة. وللعام الثاني على التوالي، يقام ضمن هذا الملتقى جناح خاص بالمهتمين بصناعة أفلام سينمائية أو مواد تليفزيونية تعتمد على كتب أو روايات سبق نشرها. والمتابع لهذا المجال يعرف كم كان هذا النوع من التعاون مثمراً في السنوات الأخيرة (يكفي أن نتذكر ما حققته أرباح سلسلتي أفلام هاري بوتر وتوايلايت!).

وفي إطار برنامج المعرض السنوي لتسليط الضوء على واحد من أسواق الكتاب والنشر في العالم، كانت دولة جنوب إفريقيا هي صاحبة العرض هذا العام. وبحضور العديد من الكتَّاب والناشرين وممثلي الجهات الثقافية بها، أقيمت سلسلة من الندوات للتعريف والاحتفاء بصناعة النشر في جنوب إفريقيا، وعرض فرص التعاون المتاحة أمام دور النشر العالمية بشراء حقوق الترجمة والنشر لكتب جنوب إفريقية. وتناولت الندوات موضوعات متعددة حول الكتابة الأدبية والفكرية في جنوب إفريقيا، وأدب الجريمة، وكتب الأطفال، والنشر الأكاديمي هناك. بالإضافة إلى ندوة بعنوان «الكتابة عن الرياضة»، ناقشت كيف يمكن لكأس العالم، الذي أقيم بجنوب إفريقيا، أن يؤثر على الكتابة والقراءة فيها. وتوضّح قدر الجهد المنظَّم الذي بذلته هذه الدولة والقائمون على تمثيلها في هذا الحدث الثقافي المهم، لتعريف العالم بنشاطها في مختلف مجالات النشر، وتوسيع محيط الاستفادة من هذه الفرصة الكبيرة. الأمر الذي يعيد إلى الأذهان التساؤل حول ما كان من الممكن أن تفعله الدول العربية، حين أتيحت لها هذه الفرصة المماثلة في العام 2008م، والتي ظهر وقتها أنها لم تقم بالاستفادة منها كما ينبغي.

ولمناسبة ذكر الحضور العربي، تقول المشاهدات إنه لم يكن هذا العام فعالاً أو مؤثراً. وبخلاف الإشادة الهادئة ببعض الأجنحة العربية، لم نجد أثراً لحركة مكثفة منظمة ومدروسة، تدعم صناعة النشر العربية وتدفعها إلى الأمام، في حدث يعرف جميع المهتمين بهذه الصناعة أنه أحد أهم معارضها وأكثرها تأثيراً.
لكن هذا حديث آخر.

أحمد أمل محمد

الرواية البوليسية



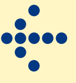
الرواية البوليسية لون خاص جداً من ألوان الأدب. تنتقل بالقارئ إلى عالم الجريمة المناقض بأحداثه وحركته لرتابة الحياة اليومية، وتعده بحتمية تحقيق العدالة في النهاية.

بطلاها اثنان: مجرم يوقظ فينا القلق مما يمكن للحياة الاجتماعية أن تحمله من مخاطر، وشرطي أو محقق يأوي قلقنا ويبدده بفعل قدرته على الانتصار للحق.

ومن غرائب هذا اللون الأدبي أنه في مقابل شغف العامة به وإقبالهم عليه، فقد واجه ولا يزال يواجه شيئاً من تعالي البعض عليه، خاصة من قبل العاملين في الألوان الأدبية الأخرى.

في هذا الملف الذي أعده الدكتور فكتور سحاب بمساهمة محدودة من فريق القافلة، عرض لنا لتاريخ الرواية البوليسية منذ نشأتها وحتى المسلسلات التلفزيونية المشتقة منها. وما بين هذه الصفحات نكتشف أن هذا اللون الأدبي لا يقل شأناً في الواقع عن باقي مذاهب الرواية في العصر الحديث. لا من حيث قيمته الأدبية، ولا من ناحية ارتباطه بالتحولات الاجتماعية والتعبير عنها.





لو لم يكن في النفس البشرية ذلك الشغف بالغوامض والأسرار، وبحب المغامرة حتى لو كان في الأمر جريمة، ولو لم يصل هذا الشغف إلى حد الهوس عند الأدباء، حتى انصرفوا عن كل أدب ليكتبوا في أسرار الجرائم، وأساليب المجرمين، ولو لم يبلغ هذا النوع من المشاعر بكثير من الناس إلى حد التشوق للخوف والتلذذ بالرعب، لما كانت لنا الرواية البوليسية، التي دخلت مع الداخلين في عصر السينما والتلفزة، بعدما مكثت قروناً بين دفتي كتاب.

فأقدم ما تركه لنا التاريخ من فن الرواية «البوليسية»، قصة التفاحات الثلاث، وهي إحدى القصص التي روتها شهرزاد للملك شهريار، في الليلتين التاسعة عشرة والعشرين من ألف ليلة وليلة. في هذه القصة العربية، يعثر صياد على صندوق كنز مقفل وثقيل، في نهر دجلة. ويشتري الصندوق منه الخليفة العباسي هارون الرشيد. ويأمر الرشيد بكسر الصندوق لفتحه، فيجد فيه جثة امرأة مقتولة ومقطعة. فيأمر الخليفة العباسي وزيره جعفر بن يحيى البرمكي أن يكشف له سر الجريمة والعثور على القاتل في غضون ثلاثة أيام، وإلا أمر بقتله.

ويدهشك في القصة أن فن التشويق فيها متقدم جداً، فيما تقود القارئ في تعرّج يخطف الأنفاس، وهو يلاحق خيوط الجريمة.

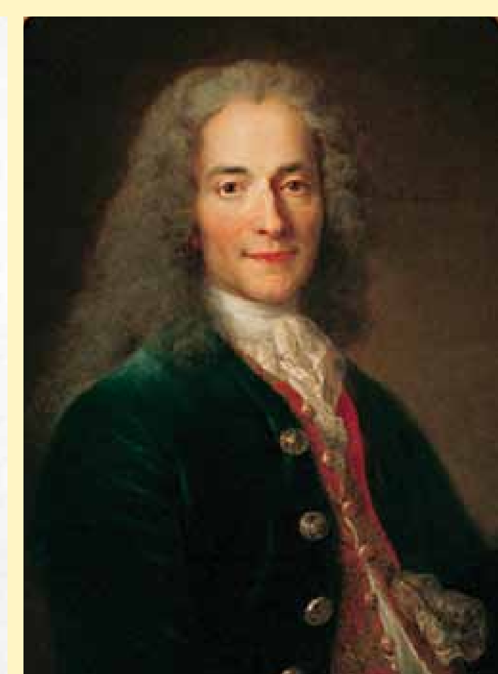
يختلف حافز جعفر عن حوافز المحققين في الروايات البوليسية التي قرأناها في الأدب الأوروبي، في العصور الحديثة، ذلك أن جعفراً لم يكن همُّه العثور على الجاني، مثلما نرى في روايات شرلوك هولمز أو هركول بوارو، بل إنقاذ حياته هو من الحكم بقتله إذا أخفق في كشف سر الجريمة واسم القاتل، وهو المؤتمن على سلامة الرعايا.

بعد ألف ليلة وليلة وتفاحاتها الثلاث، نقرأ في الأدب الصيني، قصصاً بوليسية، منها «باو جونج أن» في عهد أسرة منج المالكة، ثم قصة «دي جونج أن»، في القرن الثامن عشر. وقد تَرجم القصة الأخيرة إلى الإنجليزية، خبير الشؤون الصينية الهولندي روبرت فان جوليك. وتحكي القصص هذه منجزات القاضي باو كنجتيان، أو القاضي دي رنجي، وهما قاضيان حقيقيان في تاريخ الصين، مع أن القصص خيالية.

وتختلف هذه القصص عن الرواية البوليسية الغربية التقليدية في عدد من العناصر، أهمها أن المحقق فيها قاض، وأن المجرم معروف من بداية الرواية ودوافعه للجريمة أيضاً، وبذلك تكون العقدة مقلوبة، إذ إن الرواية البوليسية الغربية عموماً، تُبقي القاتل مجهولاً حتى آخرها. كذلك تحتوي الرواية البوليسية الصينية عناصر خارقة للطبيعة، مثل تدخل الأشباح وإخبارها البشر بمصيرهم أو مقتلهم الآتي، وحتى بكشف اسم القاتل لهم. ولا تخلو هذه القصص من المعاني الفلسفية، واحتشادها بكثير من الأشخاص الذين تربطهم علاقة بالقصة.

القصة البوليسية الأوروبية

ثمة من ينسب نشوء القصة البوليسية في الغرب إلى الكاتب الفرنسي فولتير (1694 – 1778م، واسمه الحقيقي فرانسوا ماري أرويه)، في روايته «زاديج»، التي صدرت سنة 1747م. ويظن بعض النقاد أن




فولتير

إدغار آلان بو



تشارلز ديكنز

قصة الكلب والحصان في الفصل الثالث من روايته هذه، تُعد من الأدب البوليسي الباكر. وفي الرواية محاولة حقيقية لتحليل جريمة ودوافعها. أما القصة الجنائية الدنماركية «عميد فايلباي» التي ألفها ستين ستينسن بلتشر (1782 – 1848م)، فصدرت سنة 1829م. ثم تلتها رواية جنائية نروجية، هي «اغتيال صانع المحركات رولفسن»، للأديب موريتس هانسن (1794 – 1842م)، سنة 1839م. لكن كل هذه القصص لا تُسمَّى «بوليسية» بالمعنى المعروف اليوم.

البداية: إدغار آلان بو

وقد تكون أول قصة بهذا المعنى، هي قصة ألمانية عنوانها «الآنسة فون سكوديري»، التي كتبها إي. تي. إيه. هوفمان (1776 – 1822م) سنة 1819م، وهي قصة تنتهي بثبوت براءة المشتبه به المفضّل لدى الشرطة الجنائية، في قضية قتل صائغ. وتُعد القصة هذه من أهم ما تأثر به إدجار ألان بو (1809 – 1849م)، في قصته البوليسية «جرائم شارع مورج». وهو الذي ينسب إليه المؤرخون إنشاء هذا النوع في الآداب الأوروبية بروايته تلك سنة 1841م، وهي رواية يظهر فيها أوغست دوبان، المحقق الجنائي اللامع والغريب الأطوار. فقد أسس ألان بو أصولاً للعقدة القصصية في الرواية البوليسية لا تزال معتمدة إلى الآن. وتوالت قصصه التي يتولى التحقيق في جرائمها أوغست دوبان، ومنها: «سر ماري روجيه» سنة 1843م، ثم «الرسالة المختلَسة» سنة 1844م.

أسس ألان بو روايته البوليسية على أن الغرض هو معرفة الحقيقة، وأن بلوغ هذا الغرض يقتضي مساراً شديد التعقيد، وعملاً سرياً، يجمع الحدس القوي إلى التحليل المنطقي والمراقبة الذكية والاستنتاج النفّاذ. وقد أجمعت الروايات البوليسية الأولى في ذلك العصر على أن تكون القصة من أولها إلى آخرها، متابعة مسيرة المحقق، بطل القصة الأوحد، في اقترابه من حل اللغز الجنائي. ويرى النقّاد أن ألان بو ابتعد عن الخيال في هذه الرواية لأنها مؤسسة على حادثة حقيقية حدثت لامرأة اسمها ماري سيسيليا روجرز.

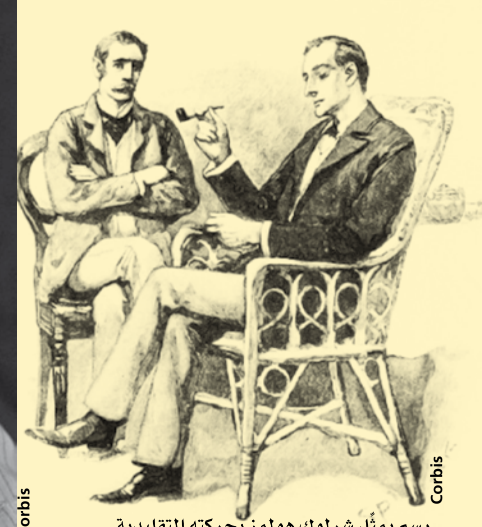
كان لتشارلز ديكنز (1812 – 1870م) إسهام باكر حين كتب روايته «البيت المنعزل»، سنة 1853م، وهي قصة محام متواطئ قُتل في مكتبه في ساعة متأخرة من الليل. وقد ظهر عدد من الأشخاص متخفّين على الدرج المؤدي إلى مكتب المحامي المقتول في تلك الليلة، وكان على المحقق أن يفك ألغاز الجريمة لمعرفة مَن مِن هؤلاء هو القاتل.

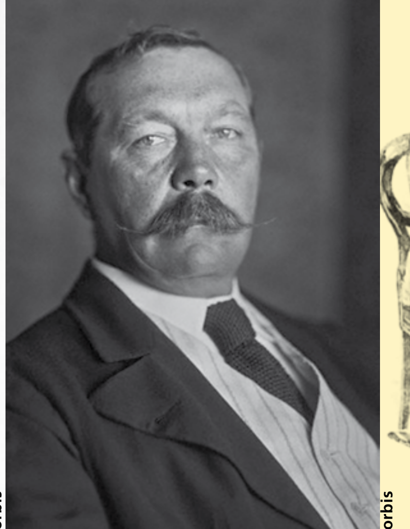
وكان ديكنز يرعى ولكي كولينز (1824 – 1889م) الذي يُعد مؤسس أدب الرواية البوليسية الخيالية الإنجليزية، بروايته «المرأة ذات الرداء الأبيض»، وقد وصف تي. إس. إليوت رواية كولينز «حجر القمر» سنة 1868م، بأنها أول وأطول وأفضل قصص المباحث الجنائية الإنجليزية الحديثة.

كونان دويل

ثم جاء عصر آرثر كونان دويل (1859 – 1930م)، الذي يعد، مع أغاثا كريستي أشهر من كتب في الرواية البوليسية على الإطلاق. فهو الذي ابتكر شخصية «شارلوك هولمز» سنة 1887م، أشهر محقق جنائي في أدب الرواية البوليسية. قال كونان دويل إن بطله هولمز، مستوحى من شخصية دكتور جوزف بل، الذي عمل معه دويل في مستوصف إدنبره الملكي. فقد كان بل، مثل هولمز، يُحسن استنتاج الكثير من أدق تفصيل.

أما شارلوك هولمز بطل روايات كونان دويل، فهو محقق لندني فذ، يمتلك ثقافة فكرية جبّارة، ومقدرة فائقة على الاستفادة من أدق تفصيل لاستنتاج الحقائق، وخبرة ممتازة في شأن الأدلة الجنائية


رسم يمثّل شرلوك هولمز بحركته التقليدية الشهيرة: التطلع إلى الساعة



سير آرثر كونان دويل


أغاثا كريستي

دوروثي إل. سايرز

تمكّنه من حل أعقد الألغاز الجرمية. وكتب كونان دويل أربع روايات و56 قصة قصيرة بطلها شرلوك هولمز.

العصر الذهبي

يفضل كثير من قراء الرواية البوليسية، في أدب ما سُمّي عصر الرواية البوليسية الذهبي، بين الحربين العالميتين، ألا يكون المحقق بطل الرواية شرطياً محترفاً، من السلك، بل أن يكون محققاً خاصاً أجيراً أو حتى هاوياً يهتم لسبب ما، بكشف سر الجريمة. لكنه في كل الأحوال لا بد من أن يكون موهوباً شديد الذكاء، وإن كانت بعض الروايات البوليسية السينمائية الفكاهية، أظهرت شخص المحقق الجنائي غبياً يرتكب أفدح الأخطاء، وهو يتصنّع الدهاء، مثلما ظهر المحقق كلوزو في سلسلة أفلام «الفهد الوردي» (The Pink Panther).

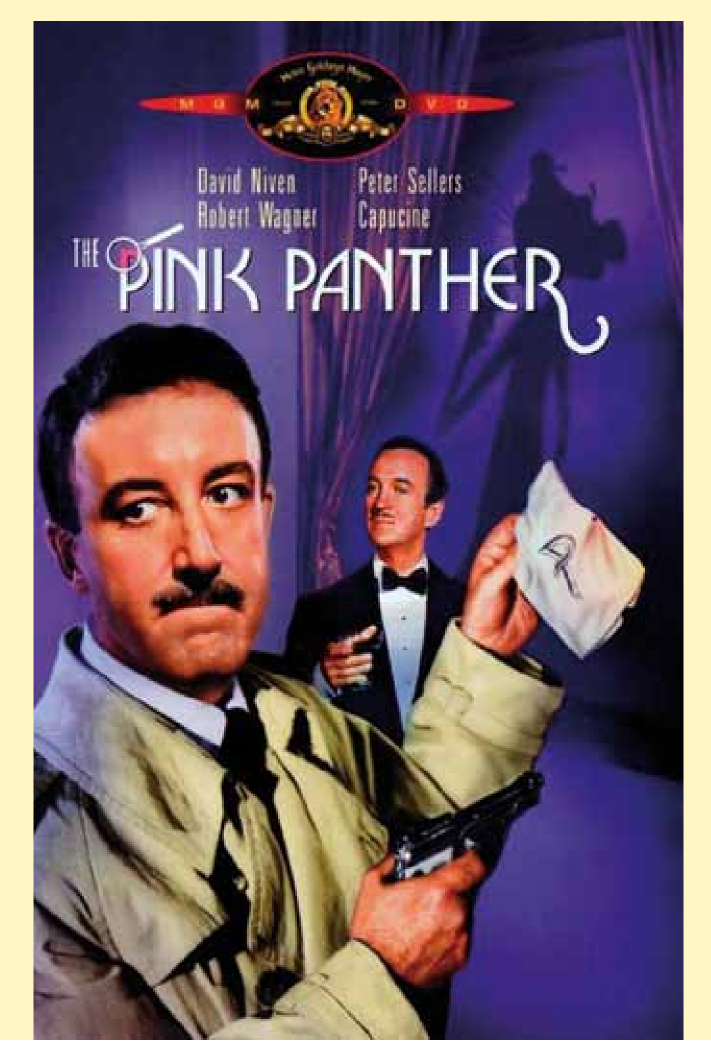
في هذه المرحلة، ظهرت قصص جنائية شديدة التعقيد، وكان لا بد من تحقيق يقرب من العبقرية لكشف القاتل. وتفنن كُتّاب هذا النمط، في إخفاء اسم القاتل حتى اللحظة الأخيرة، إمعاناً في التشويق. وفي ختام الرواية تظهر كل الحقيقة، ويُكشَف أسلوب المحقق الذي اتبعه في بلوغ هذه الحقيقة.

وقد اتسم عصر الرواية البوليسية الذهبي، بنمط المحقق الهاوي، الرفيع الأدب والكياسة، الذي يدس أنفه بلباقة وبراءة مصطنعة في جرائم المجتمعات الراقية والقصور والحدائق المترفة، والأرياف الرائعة، والقرى البعيدة. لقد صارت هذه البيئة هي المفضلة في روايات كتّاب هذا النوع، حتى أضحت له دُرجة، أدمن عليها القراء، وفضّلوها.

الفارسات الأربع

يُسمَّى عصر الرواية البوليسية الذهبي ذهبياً، لبروز أربع كاتبات لمعن بين الحربين العالميتين على الأخص، في هذا النوع من الأدب، هن: أغاثا كريستي (1890 - 1976م) ودوروثي إل. سايرز (1893 - 1957م) ونجايو مارش (1895 - 1982م) ومارجري ألنغهام (1904 - 1966م)، وجميعهن إنجليزيات عدا نجايو النيوزلندية. ويضيف بعض النقاد خامسة هي جوزفين تاي.

لكن أشهرهن وأغزرهن نتاجاً، هي بلا شك أغاثا كريستي التي كتبت سلسلة روايات، كان أبطالها المحققَين الجنائيَين هركيول بواريه، ومس



ملصق فلم: «الفهد الوردي» الساخر



أرسين لوبان اللص الفرنسي الظريف

وُلـد أرسين لوبان (Arsene Lupin)، في تموز 1905م، في رواية نشرهـا موريس لوبلان، الروائي الفرنسـي في مجلة «جو سيه تو» (أعـرِف كل شـيء). ثم عـاد لوبلان ونشـر قصـة أرسين لوبان هـذه فـي رواية: «أرسيـن لوبان النصّـاب الوسيم». ولعـل لوبان، وهـو الشخص الروائي الوهمي بالطبع، مـن أشهر أبطال الرواية البوليسيـة، على الإطلاق. وقـد كُتبت في شخصيتـه الدراسات، تحليلاً وتشريحاً.

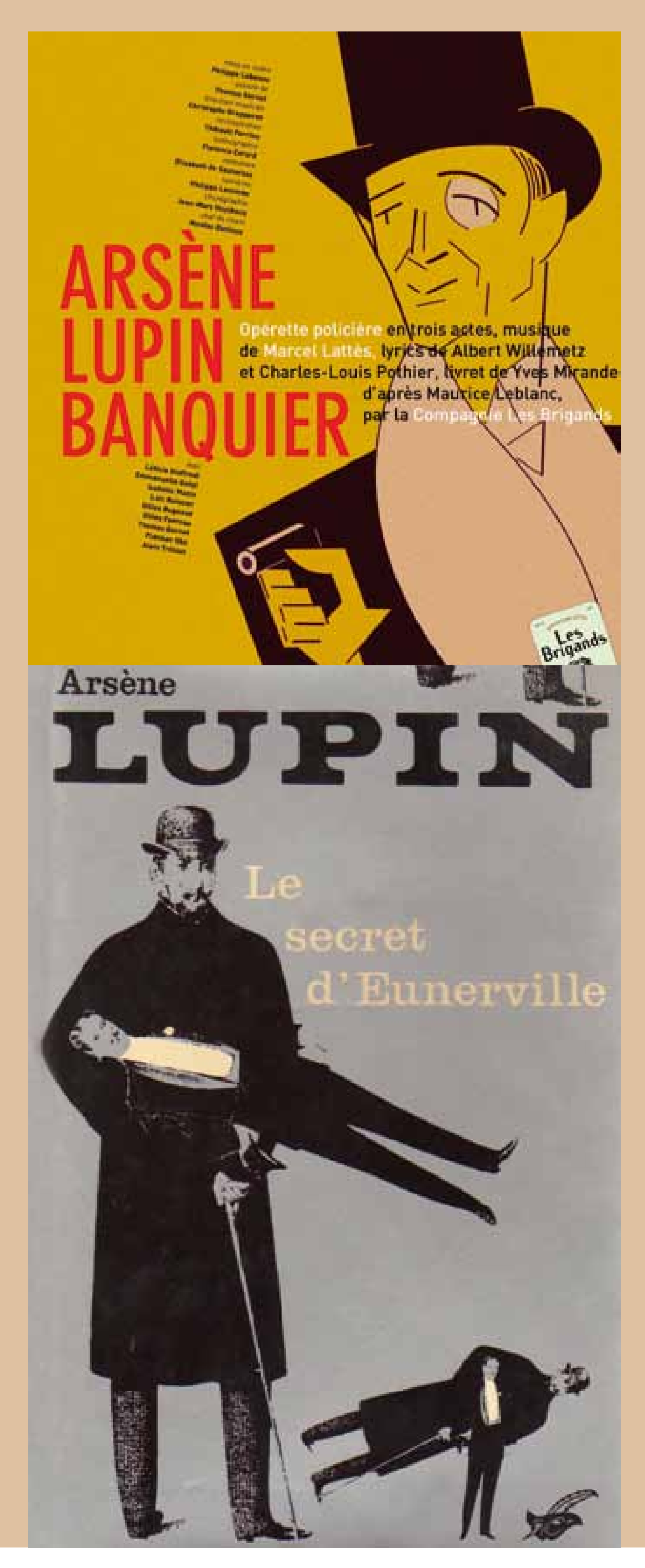
قدّر الدارسون أن لوبان، بطل روايات لوبلان، لا بد أنه ولد سنة 1874م، بسبـب تقدير سنّـه حسب الروايـة الأولى التـي كان فيهـا البطل. وقد انفصل والداه وهو لما يزل طفلاً في السادسة، فأثر ذلك الانفصال في نفسـه. وانتقاماً من ظلم الدنيا، بدأ أرسين لوبان مسلسل السرقات في روايات لوبلان، وأول ما سرقه عقد الملكة ماري أنطوانيت، زوجة الملك لويس السادس عشر، في رواية «عقد الملكة».

ولا يهمـل أرسيـن دراستـه، فيتخصص فـي القانون والطـب وفي علم الجلد وأمراضه، إضافة إلى اللاتينية واليونانية القديمة. ثم يدرس فن الحوايـة والشعوذة. وقد علّمه أبوه الملاكمة والسيف والترس والرياضة البدنيـة، ودرَّبه على فنون القتال، وبذلك تأهل ليكون ذلك اللص الأنيق الشهـم، المسلح بكل ضروب العلم والبراعة والقوة التي يحتاج إليها في مغامراته.

لقـد تفنـن أرسين لوبان فـي تخفّيه وتبديـل شكله، حتى بـات يستحيل تقريبـاً وصفه. لكن حقيقتـه التي تظهر من بين سطـور الروايات، هي أنـه رجل وسيم طويـل القامة، رشيق الجسم، لكن قوته في الوقت نفسه خارقة بفضل الرياضة التي تعلمها.

أمـا نفسيته فيختلط فيها شيء من الطفولـة والأرستقراطية المتعالية، والجاذبيـة القوية والغموض. ولعل هذا عامل فاعل في حب القرّاء لهذه الشخصية. وقد تمكن لوبلان من خلال حوادث رواياته والمجتمع الذي كان أرسيـن لوبـان يرتـاده، من وصـف المجتمع الفرنسي فـي الحقبة الجميلة، ثم في السنـوات المجنونة، أي في أوائل القرن العشرين، قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها.

ومع أن لوبان لص، فهو شهم وظريف. فهو يأنف القتل، ويحترم المرأة. ولذا أعاد بعض المصوغات المسروقة إلى صاحباتها الجميلات، حالما يحظـى بابتسامة. ومع هذا فسحـره وجاذبيته ليسا من صنف لا يقاوَم، وبذلك جعله لوبلان من لحم ودم، ولم يحاول أن يصوره إنساناً خارقاً لا يعصى عليه أمر. وهو فوق هذا وطني، أثبت وطنيته في الحرب العالمية الأولى، ببعض المبادرات الدبلوماسية لمصلحة بلاده، فرنسا.



أرسين لوبان: أشهر اللصوص في أدب القرن العشرين

الرواية البوليسية ومشتقاتها على الشاشتين

شكَّلت الرواية البوليسية جزءاً أساسياً من نسيج صناعة السينما ولاحقاً التلفزيون، بحيث يمكن القول إن الأفلام البوليسية تحتل المرتبة الثانية بعد الأفلام العاطفية في تاريخ السينما، وتتقدم من ناحية الكم على الأفلام التاريخية والكوميدية والسياسية، بحيث يستحيل تقديم كشف كامل بها. إذ لم تترك السينما لوناً من الألوان البوليسية إلا وصورته.

فإضافة إلى الأفلام التي ورد ذكرها سابقاً، والتي أصبحت من كلاسيكيات السينما، اشتق الفن السابع ألواناً من هذا الفن خاصة به، راجت وتروج بفعل «سينمائيتها»، أي من كون قيمتها الفنية نابعة أساساً من تصويرها وليس من النص المكتوب.

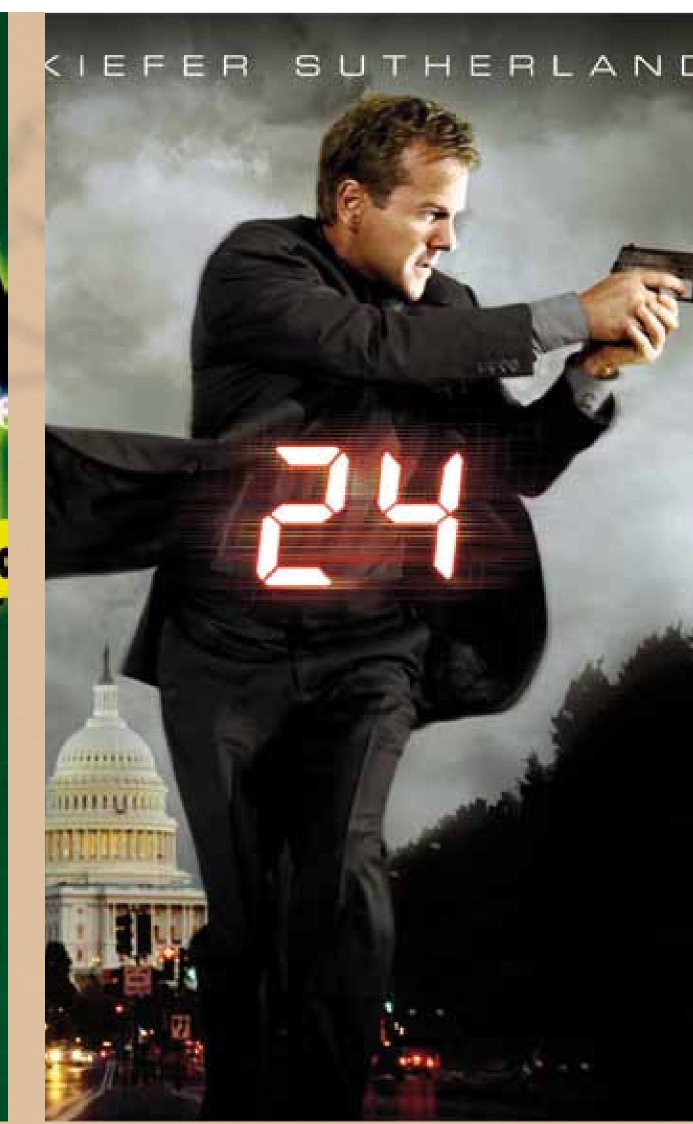
فبموازاة الأفلام البوليسية الكلاسيكية، ظهر نوع من الأفلام يقوم أساساً على الحركة (Action)، حيث المجرم معروف منذ البداية، يطارده شرطي أو جندي سابق خدم في الوحدات الخاصة.. أما مسار الفلم فهو صراع ما بين الطرفين ومطاردة ومواجهة شرسة تنتهي غالباً بمقتل المجرم بشكل عنيف، وليس بوضعه وراء القضبان كما في الروايات الإنجليزية الكلاسيكية. وهناك ممثلون يدينون بشهرتهم العالمية لهذا النوع من الأفلام مثل أرنولد شوارزينغر، وجان كلود فان دام، وبروس ويليس وغيرهم.

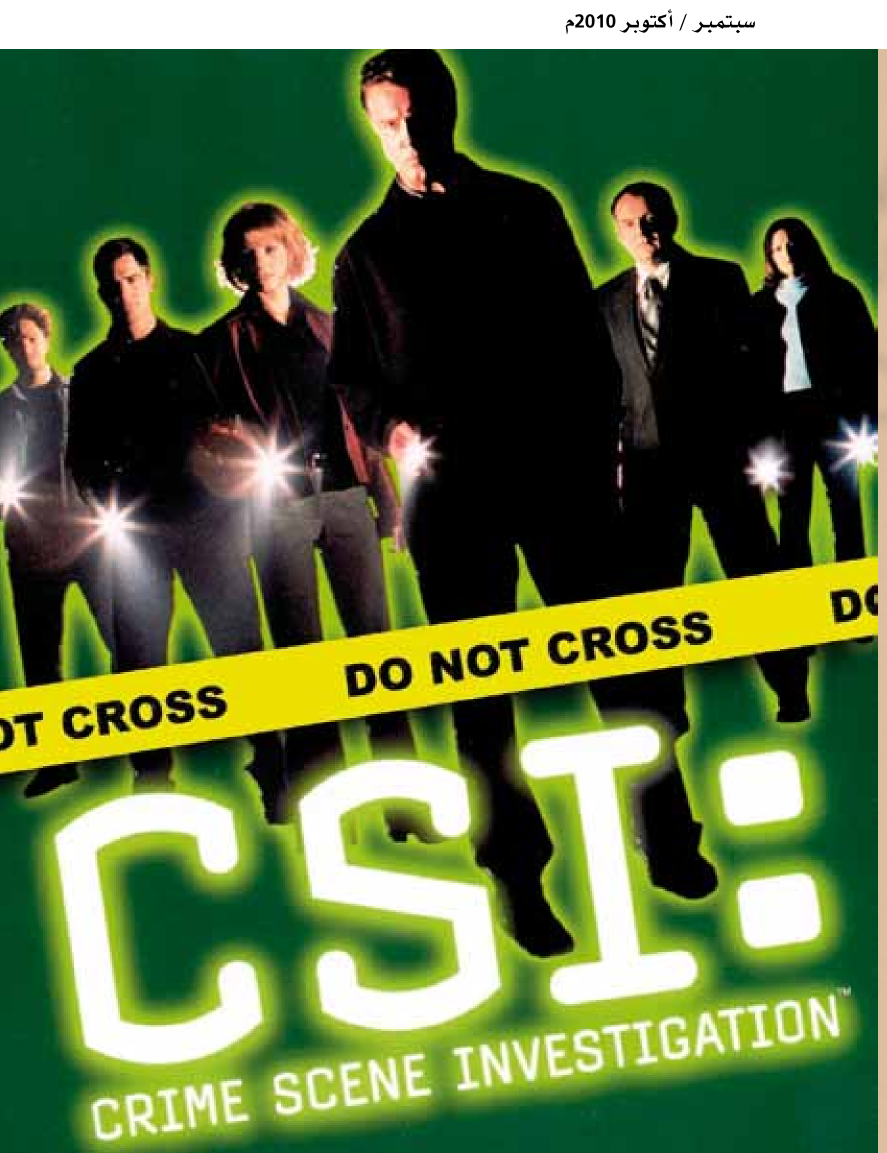


أفلام الحركة: اشتقاق سينمائي من الرواية البوليسية



«عقول إجرامية»، القصة البوليسية القائمة على علم نفس الجريمة





آخر مراحل انتصار القصة البوليسية: على شاشة التلفزيون

أمـا النوع الثاني الذي اشتقته السينما من الأفلام البوليسية، فهو بعض ما يندرج تحـت أفلام الرعب مثل سلسلة أفلام «هالوين» التي أخرجها السوري مصطفـى العقاد، وسلسلة أفلام «صـراخ» وغيرها.. وفي هذا النـوع مـن الأفلام، فـإن المحقق يكاد أن يكـون غائباً تمامـاً، إذ تدور القصص حول الشكل الذي تقـع فيه الجريمة، وهو عـادة شكل قبيح، يثيـر في المشاهد مشاعر الشفقة علـى الضحية والنقمة على غبائها.. ويمكـن في أحيان أن تتحقق العدالة فـي النهاية على يد ضحية محتملة فـي غياب شبـه كلي للمحقق ولرجال الشرطة الذيـن لا يظهرون إلا في نهاية الفلم.

وبسبب ضخامة تكاليف إنتاج الأفلام البوليسية الكبرى وأفلام الحركة، فإنهـا تنتج للسينمـا أولاً، ثم تعرض بعد فترة علـى شاشات التلفزيون. ولكـن بسبب انفتـاح الأدب البوليسي علـى أنماط متعـددة داخل اللون الأساسـي الواحد، وجدنـا التلفزيون ينتج أفلامـاً ومسلسلات بوليسية خاصـة به، لا تقل قدرة عـن الأفلام السينمائية علـى جذب المشاهد، وذات تكلفـة ماديـة أقل بكثيـر. فمقابل الأفـلام القليلة التـي صورتها السينما من روايـات أغاثا كريستي، نجد التلفزيـون الإنجليزي يعرض بشـكل شبه متواصـل مسلسلات مقتبسـة عن روايـات المؤلفة نفسها، لأن عقدتهـا ومادتهـا تعتمد أولاً على ذكاء المحقـق وليس على مشاهد تحطيم السيارات وتدمير الأبنية وتفجيرها.

واليـوم، تعرض الفضائيـات العربية مجموعة ضخمـة من المسلسلات البوليسيـة، منهـا علـى سبيل المثـال «C.S.I Miami» الـذي يدور حول أداء فريـق خاص بالتحقيق فـي موقع الجريمـة. والنجـاح الذي لقيه هـذا المسلسـل دفع إلى إنتـاج «C.S.I» خاص بأكثر مـن مدينة أمريكية مثـل نيويـورك ولوس أنجلس.. وهـذه المسلسلات التـي تتضمن معظم أساسيات القصص البوليسية، وتضيف إليها الاعتماد على التكنولوجيا المتطورة، لا تخلو من التغني ببعض القيم الاجتماعية مثل أهمية العمل ضمن فريق، والتفاؤل بحتمية ظهـور الحقيقة وإحقاق العدل والخضوع للقانون، حتى ولو تمكن المجرم من لي ذراع القانون لصالحه.

وأخيراً وليس آخراً، هناك مسلسل «عقلية إجرامية» الذي يلاقي نجاحاً عالمياً منذ بضع سنوات، وأبطاله هم فريق خاص في مكتب التحقيقات الفيدرالـي الأمريكي، يعمل علـى اكتشاف المجرمين بنـاءً على تحليل سلوكهم ونفسياتهم. ويقوم هذا المسلسل بالفعل على آخر ما توصل إليه علم النفس وعلم الجريمة، إضافة إلى بعض «الإكسسوارات» التقنية.


en.wikipedia.org

جرائم القتل التاريخية شكّلت واحداً من أبرز مذاهب الرواية البوليسية

الرواية البوليسية

أنماط وأنواع

كثيراً ما يكون أبطال الروايات البوليسية من سلك الشرطة الرسمية أنفسهم، وإن كان المحقق الخاص أو التحري المدني قد شاع جداً في النصف الثاني من القرن العشرين على الأخص. وقد تتخذ الرواية أنواعاً وأشكالاً روائية عديدة. لكن نسبة كبيرة من الكتّاب يحاولون أن يصوّروا بأدق تفصيل، العمل الرتيب اليومي الذي يعمله قسم الشرطة الجنائية في وظيفته لمتابعة عدد من القضايا، قبل أن «تدهمه» المهمة الطارئة، عند حدوث جريمة غامضة يكلَّف التحقيق فيها. معظم القصص يرمي إلى كشف مجرم. لكن في بعضها يكون المجرم معلوماً، فتتجه مهمة الشرطي المحقق إلى جمع الأدلة والقرائن.

التاريخية

وثمة فرع في الرواية البوليسية، يسمَّى الرواية البوليسية التاريخية، وفيها عادةً سر غامض هو العقدة الأساسية، ويتضمن جريمة، غالباً ما تكون اغتيالاً سياسياً، في حادثة تاريخية. وثمة نقاش يتناول عدداً من العناصر في هذا الفرع، منها: كم سنة يجب أن تمضي على الحدث قبل أن تستحق القصة الصفة التاريخية، أو: هل ينبغي أن تحتوي حقائق تاريخية، وكم من نسج الخيال يحق للمؤلف أن يضمِّن روايته لتبقى «تاريخية». وهل ينبغي أن تكون الضحية شخصاً حقيقياً من التاريخ مثل سقراط أو موتسارت، أم أن القصة التاريخية قد تتسع لرواية اغتيال شخص وهمي، لكن في بيئة زمنية واجتماعية تاريخية. وهل يكفي أن يكون التحري شخصاً تاريخياً فتحاك من حوله قصة غير حقيقية.

أول من كتب الرواية البوليسية التاريخية ملفيل دافيسون بوست (1869 – 1930م)، وآنا كاترين جرين (1846 – 1935م)، وإن كان جرجي زيدان اقترب في رواياته التاريخية من هذا النوع، مع أنه لم يعالج روايته من ناحية جنائية، وكان همّه وضع الحقائق التاريخية في إطار قصصي مشوّق. ثم ظهرت الأمريكية ليليان دي لاتور (1902 – 1993م، واسمها الحقيقي ليليان ماكيو)، وقد تخصصت في روايات يحوط عقدتها أسرار غامضة ومثيرة.

لكن النوع كان ينتظر اسماً بدأ يلمع في 1944م: أغاثا كريستي نفسها، بروايتها: «وفي النهاية يأتي الموت». وهي قصة بوليسية تاريخية، حدثت وقائعها في مصر القديمة، فيما تناول جون دكسون كار سنة 1950م، عصر نابليون بونابرت في روايته: «عروس نيوجيت». وهي في الوقت نفسه من فرع رواية التحري عن القاتل. ثم كتبت جوزفين تاي (1996 – 1952م، واسمها الحقيقي إليزابت ماكنتوش) سلسلة روايات من هذا النمط، يدخل في إحداها التحري المستشفى لكشف جريمة قتل الملك الإنجليزي رتشارد الثالث. وتوالت الأسماء منذ 1970م، فكانت إليس بيترز (1913 – 1995م، واسمها الحقيقي إديث ماري بارجيتر) التي أصدرت 21 قصة من يوميات الأخ كادفائيل، وتدور حوادث رواياتها البوليسية قبل ألف سنة. وموضوعها جرائم قتل تاريخية. وتعاظم الإقبال على الرواية البوليسية التاريخية في تسعينيات القرن الميلادي العشرين، بظهور روايات ليندسي ديفيس التي تدور حوادث الجرائم فيها في عهد الإمبراطور فسبازيان الروماني، ثم روايات الأمريكية إليزابت بيترز (واسمها الحقيقي بربرة ميرتس)، التي كتبت روايات بوليسية عن جرائم في مصر في عشرينيات القرن العشرين.


Corbis
الروائية آنة غرين

أنواع أخرى

درج كذلك في الرواية البوليسية نوع يميل إلى جريمة القطارات، ففي القطار لا يعرف الناس أحدهم الآخر عادة، ويضفي هذا الأمر سمة غموض على أية جريمة تحدث على قطار. وكان أول محقق في جريمة قطار ثورب هازل، بطل رواية القس الإنجليزي فكتور وايتشيرش (1868 - 1933م). ثم كرّت السبحة.

وثمة روايات بوليسية أقبلت عليها كاتبات في أواخر القرن العشرين، واتسمت بمعالجة قصص الحوادث الغامضة، البعيدة عن العنف، مثل أسرار صناعة الغذاء والأسرار المهنية الأخرى والتجسُّس فيها، وغلب فيها أن يكون المحقق امرأة.

لكن روايات الكُتَّاب الرجال جنحت في دُرْجَة جديدة، إلى روايات مجرمي القتل الجماعي المتسلسل، وكأنها تثأر من النوع البوليسي النسائي «السلمي» الخالي من فظائع العنف، بهذه الجرعة من العنف في أخبثه وأفظعه. وقد بدا للكتّاب ربما، أن هذا النمط من الرواية البوليسية يفيض نوعاً ما عن طاقة الشرطة الرسمية، ولا بد له من التحري الخاص، بتخفّيه وحنكته وتحرُّره من قيود الوظيفة الرسمية ودوامها. وكانت روايات من هذا النوع ظهرت في عشرينيات القرن العشرين، وكان «بطلها» مجرم مهووس بالقتل، هي رواية فيليب ماكدونالد (1900 - 1980م) «هرّ بأذناب كثيرة». غير أن رواية الجرائم المتسلسلة البوليسية لم تبلغ أشد الإقبال عليها إلا بعدما ظهرت في المحافل الأدبية عبارة: Serial Killer (القاتل المتسلسل)، في سبعينيات القرن العشرين، ولا سيما عند نشر رواية: «صمت الحملان» سنة 1988م. وهي رواية للأمريكي توماس هاريس، وظهرت في فلم، أخرجه جوناثان ديم، ومثّل أدوار البطولة فيه جودي فوستر وأنطوني هوبكنز، ونال الفلم جوائز أوسكار. ولعل ما في عبارة «القاتل المتسلسل» من عنصر غموض ورعب، هو الذي اجتذب محبي النوع، الذين يعشقون ذلك الإحساس فيما يقرأون ويشاهدون.

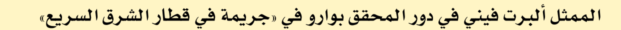


xpressshop.net

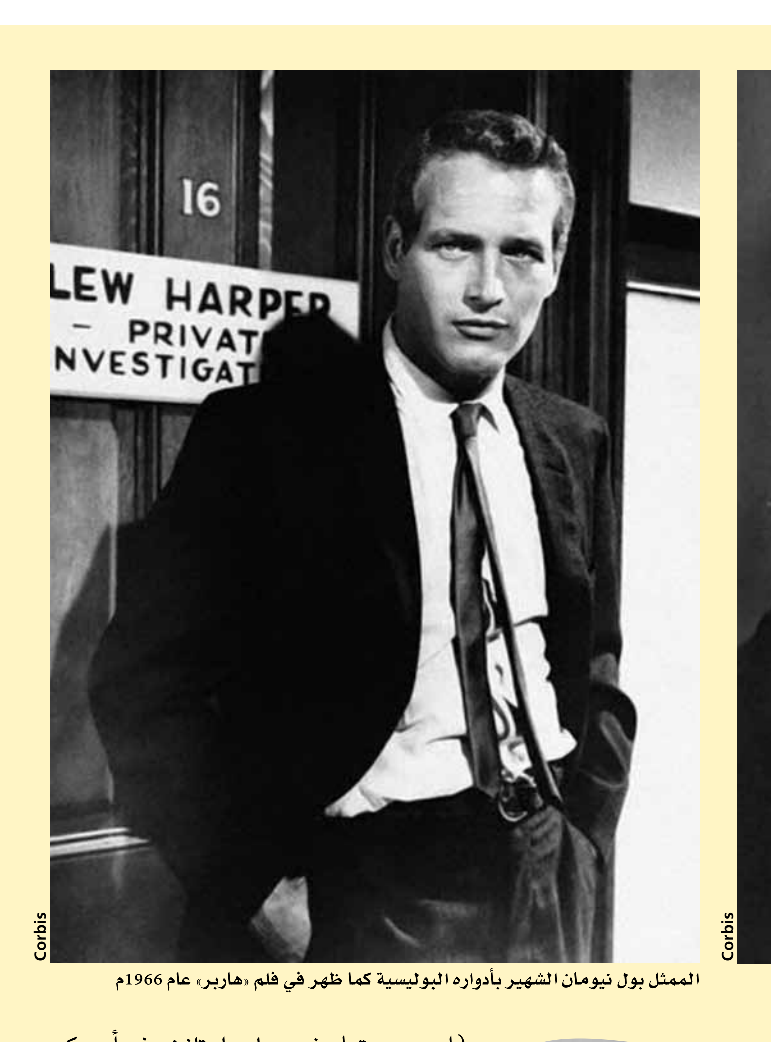

corusent.com
«صمت الحملان»: التشويق البوليسي على حافة الرعب

روايات التشويق

إذا كانت أنواع الروايات البوليسية تحتاج إلى كتمان سر العقدة حتى النهاية، حتى لا تضيع لذة القراءة على القارئ، (باستثناء النمط الصيني الذي يقلب مسار التحقيق، بدءاً من معرفة القاتل، وصولاً إلى وقوعه في قبضة العدالة)، فإن أشد أنواع الرواية البوليسية حاجة إلى هذا الكتمان هي روايات التشويق (Suspence). فهذا النوع يحبس نفس القارئ، بما فيه من تسلسل مفاجآت وانقلاب مواقف. ولذا يحرص النقاد على عدم كشف العقدة في مقالاتهم، فيما يحرص القارئ على عدم قراءة النقد عادة قبل قراءة الرواية نفسها. وقد صار معهوداً أن يلتزم كتم سر العقدة في الرواية المعلنون والأكاديميون في مقالاتهم، حماية لحق القارئ في شحنة التشويق التي تستحق له في قراءته. حتى أن مشاهدي فلم «شاهد ادعاء» (Witness for the Prosecution)، الذي ظهر سنة 1957م، نوشدوا في الإعلان بالفلم، ألا يبوحوا بسر العقدة، وهو مؤسس على قصة قصيرة ثم رواية «نحن المحلفين» لأغاثا كريستي، تدور أحداثها في قاعة محاكمة رجل متهم بالقتل، ولعب دور البطولة فيه تايرون باور ومارلين ديترتش وتشارلز لوتون، وأخرجه بيلي وايلدر.



الممثل ألبرت فيني في دور المحقق بوارو في «جريمة في قطار الشرق السريع»



الممثل بول نيومان الشهير بأدواره البوليسية كما ظهر في فلم «هاربر» عام 1966م

ماربل، وغيرهما. وتتسم رواية كريستي بالأحاجيّ التي تحيّر القارئ، وتقوده مرات كثيرة في غير طريق بلوغ الحقيقة. ومن أشهر رواياتها: «جريمة على قطار الشرق السريع» (1934م)، و«موت على النيل» (1937م)، و«ثم لم يعد هناك أحد» (1939م).

واستخدمت تقنية الأحاجيّ المعقدة جداً في الرواية البوليسية، بطريقة فذّة في عقدة روائية تبدو مستحيلة من قِبَل الكاتب جون ديكسون كار (1906 - 1977م)، وهو نفسه كارتر ديكسون، الذي يعدُّ ملك روايات ألغاز الغرف المقفلة، وسيسيل ستريت (1884 - 1965م)، الذي وقّع رواياته أيضاً باسم جون رود. وقد تخصّص دكتور بريستلي، المحقق في رواياته، في استخدام الأدوات التقنية المتطوّرة.

وبرز من الأمريكيين في كتابة الرواية الجنائية ركس ستاوت (1886 - 1975م) وإيليري كوين (اسم مستعار في مسلسل تلفزيوني أمريكي 1975 - 1976م) وآخرون.

التحرّي الخاص

لعل التحري مارتن هيويت، الذي كان بطل الكاتب البريطاني آرثر موريسون (1863 - 1945م)، أول نماذج التحري العصري في الرواية الخيالية البوليسية.

في عشرينيّات القرن الميلادي العشرين، لم يكن آل كابوني (1895 - 1947م) مصدر خوف ورعب فقط في شوارع شيكاغو وسائر المدن الأمريكية، بل كان كذلك مصدر فضول وتشوّق لدى هذا المجتمع لمعرفة خفايا عالم الجريمة أيضاً. وقد استثمرت مجلات أدب الخيال الإجرامي الأمريكية وكتّابه ذلك الفضول استثماراً ذكياً، مثل مجلة «بلاك ماسك» (القناع الأسود) والمؤلف كارول جون ديلي (1889 - 1958م)



جرائم العصابات في أمريكا.. محور آخر من محاور هذه الرواية

الذي ألّف قصص عنـف وتشويه وظلم، من عمل المجرمين. ولم يقصد ديلي أن تكون عقدة قصته لغزاً جنائياً غامضاً، بل اكتفى على الخصوص برواية حوادث عنف المجرمين، وحكم العدالة الذي يستحقّون.

وشاعـت في ثلاثينيـات القرن العشريـن روايات التحـري الخاص، مثل داشييـل هاميت وجوناثـان لاتيمر وإيـرل ستانلي جاردنـر، لفضح عالم الجريمـة السفلي العنيف، في الشارع الأمريكي. وفي أواخر الثلاثينيات، طوّر ريمونـد تشاندلر (1888 – 1959م) هذا النـوع الأدبي بفضل بطله التحـري فيليـب مارلو، الـذي أضفـى صفة حميمـة على عمـل المحقق الجنائي. ثم دخلـت شخصية مارلو في عدد مـن القصص التلفزيونية. وتابع جيمس هادلي تشيس (1906 – 1985م) أسلوب تشاندلر في رواياته البوليسيـة «قداس الشقراء الجنائزي» (1945م) و«إلقِ بها بين الزنابق»

prestitotto.it

(1950م)، و«احسبه لنفسك» (1950م). وزاد تطويراً في هذا الخط الذي يعتمد التحري الخاص، الكاتب روس ماكدونالد (1915 – 1983م) الذي كان بطله التحري الخاص لو آرتشر. وتميّز أسلوب ماكدونالد باستخدام علم النفس وجمال أسلوب الكتابة. ويُذكَر أن هوليوود أنتجت فلم «هاربر» سنة 1966م، ولعب فيه بول نيومان دور التحري لو آرتشر، والفلم مؤسَّس على رواية ماكدونالد «الهدف المتحرك». وقد أعاد نيومان الكرّة في فلم «حوض الغرق» في سنة 1976م.

ويرى النقّاد أن مايكل كولنز، واسمه الحقيقي دنيس ليندز (1924 – 2005م) أدخل هذا النوع الأدبي، أي رواية التحري الخاص البوليسية، في العصر الحاضر. ففيما واظب على تلك القصص التي تجعل التحري الخاص يواجه قوى أكبر من إمكاناته بما لا يقاس، مثلما فعل سابقوه، إلا أنه أضاف عنصر التحليل الاجتماعي على الرواية الجنائية البوليسية، وأثر مكانة البشر في هذا العالم السفلي، عالم الجريمة.

الروائيات يشاركن

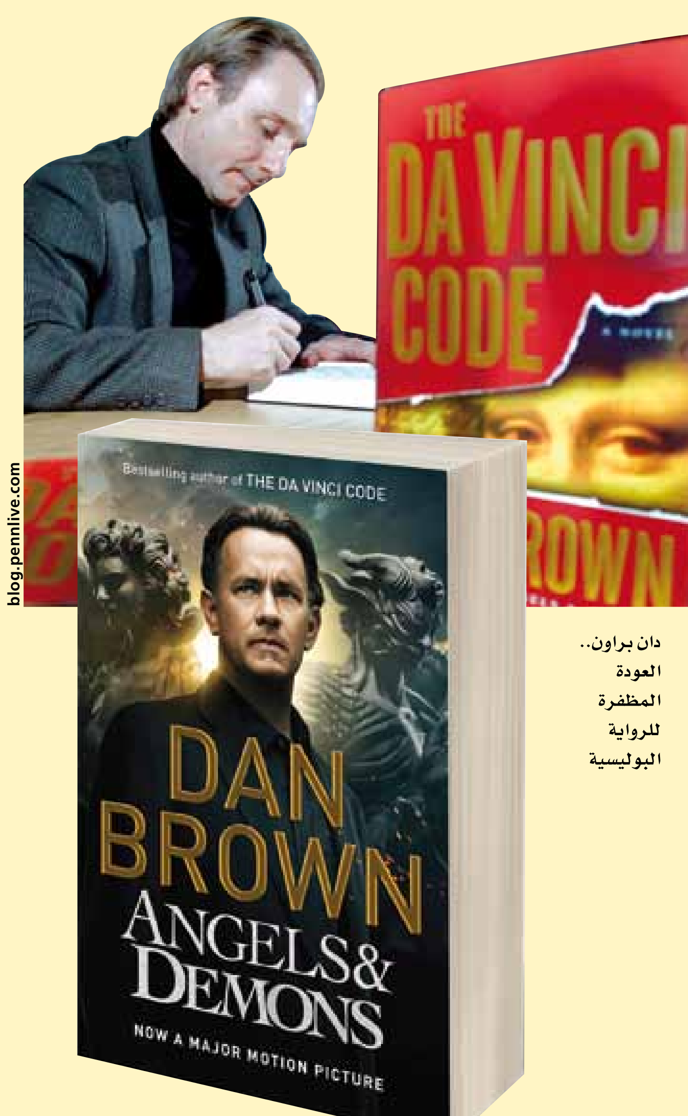
حتى ليندز، كانت رواية التحري الخاص ضمن أدب الرواية البوليسية، حكراً للمؤلفين الرجال، إلى أن ظهرت روايات الأمريكيتين مارسيا مولر، وسو جرافتون، في أواخر سبعينيات القرن الميلادي العشرين وأوائل ثمانينياته. وقد أدى نجاحهما إلى إقبال الناشرين على مؤلفات القصص البوليسية من النساء.

كبوة ثم نهضة

غير أن النصف الثاني من القرن العشرين، شهد طغيان اهتمامات هزت العالم بأسره، منها حرب فيتنام وثورة الشبيبة في الستينيات، والحرب الباردة بين الدولتين العظميين. ثم ظهور الهم البيئي الذي تبعه تطور تكنولوجي مدهش.. وكان من الطبيعي أن يفرض كل ذلك نفسه على عالم الأدب والفنون، فتراجعت مكانة الرواية البوليسية لتقبع مؤقتاً في ظل الرواية السياسية والاجتماعية. ومع ذلك، فإنها لم تنقرض تماماً. ففي ظل أدباء سياسيين أو مسيسين من أمثال ألكسندر سولجنتين (مؤلف «خليج الغولاك» الشهير)، كان هناك بعض الأسماء التي راحت تلمع بفضل رواياتها البوليسية، ومن أشهر هؤلاء على الإطلاق سيدني شيلدون، الذي كان عرَّاب أفضل الروايات البوليسية في العقد الأول من القرن الحالي.

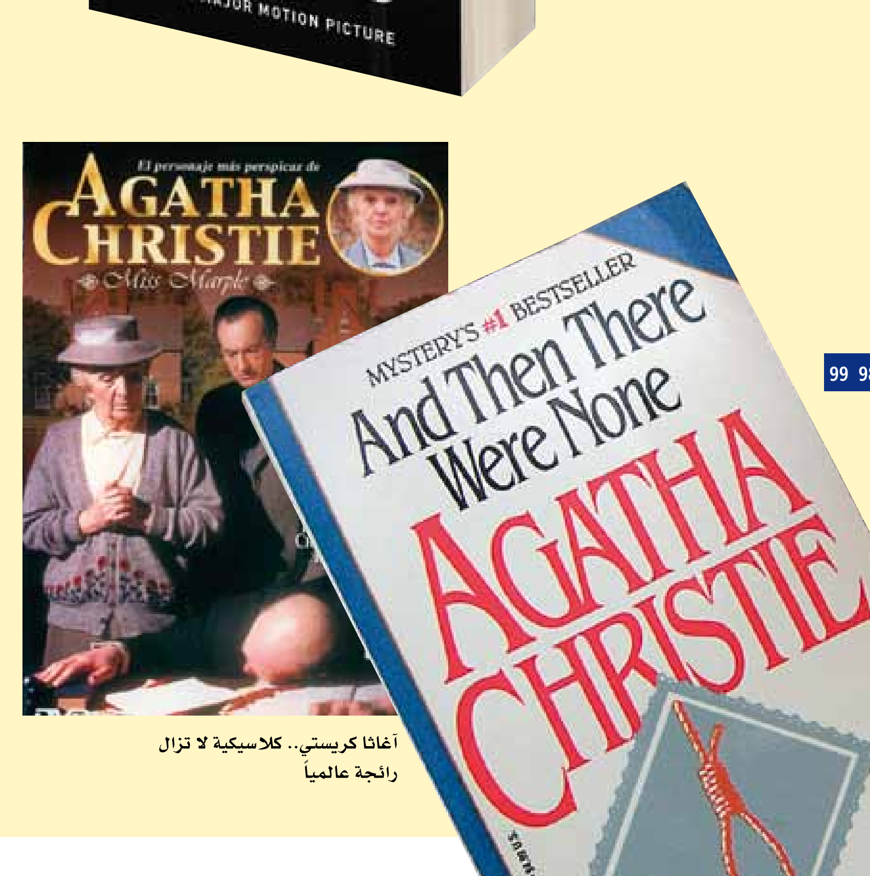
ففي التسعينيات، كان مؤلف الأغاني دان براون يمضي إجازته في الكاريبي عندما طالع إحدى روايات شيلدون التي أثرت فيه بعمق إلى درجة اتخاذه قرار التحول إلى كتابة الروايات البوليسية. وبالفعل، في العام 1998م، نشر دان براون روايته الأولى «الحصن الرقمي» التي أتبعها بروايتين أخريين هما «حقيقة الخديعة» و«ملائكة وشياطين»..

لم ينل براون نجاحاً تجارياً يستحق الذكر في بداية الأمر. إذ بلغ معدل ما بيع من كل من هذه الروايات نحو 10 آلاف نسخة. إلى أن نشر في العام 2003م روايته الشهيرة «شيفرة دافينشي» التي جعلت المجلات الأمريكية تصنفه كواحد من الشخصيات المئة الأكثر تأثيراً في العالم، بسبب الرواج الهائل الذي لقيته هذه الرواية. إذ طبع منها نحو 100



blog.pennlive.com

دان براون.. العودة المظفرة للرواية البوليسية



أغاثا كريستي.. كلاسيكية لا تزال رائجة عالمياً

مليـون نسمة، وبفضلها عادت رواياته السابقة إلـى الرواج، الأمر الذي أمَّن للمؤلف دخلاً سنوياً يقدَّر بنحو 75 مليون دولار.

تنـدرج روايـات دان براون في إطـار الروايـة البوليسية بالمعنـى الحرفي والتقليـدي للكلمة. فمعظمها يبدأ بجريمة قتـل غامضة، يتطلب حل لغزها عبقريـة محقق مثقف (مثل روبرت لانغدون الـذي كان بطل ثلاث من هذه الروايـات)، وهو أستاذ في جامعـة هارفرد وليس شرطياً عادياً. والسبب فـي اختيـار هذا النوع مـن الأبطال، هـو أن حل اللغز الغامض في روايات براون يجول بالقارئ على عالم المؤسسات الكبرى مثل الكنيسة الكالوثيكية ومؤسسـات الأمـن القومـي الأمريكي والجمعيـات السرية مثـل الماسونية و«الإيلومينـاتـي»، وزمنيـاً، يمكـن للمؤلـف أن يجـول بالقارئ مـا بين زمن الحروب الصليبية وعصرنا الحاضر بكل ما فيه من تقنيات لا تزال مجهولة أو قيـد الاختبار.. وهذا ما أضفى على رواياته نكهة خاصة لم يعهدها قرَّاء الروايات البوليسية من قبل، الأمر الذي أدى بدوره إلى تحول هذا النوع من الأدب البوليسي إلى مدرسة، بدأ الكثيرون ينسجون على منوالها.

ومـن أبرز المنتمين إلـى المدرسة «البراونية» هـذه، الروائي السعودي الدكتـور منـذر القباني، الذي كتب حتـى الآن روايتيـن بوليسيتين هما «حكومة الظل» و«عـودة الغائب»، وكلتاهما تدوران حول الصراع ما بين المحافل الماسونية من جهة و«العروة الوثقى» من جهة أخرى. والعقدة، كما هي عند براون، تبدأ بجريمة قتل، والبطل شخص مثقف يجد نفسه متورطاً في التحقيق سعياً إلى حل اللغز الغامض.


robertarood.wordpress.com

مارسيا مولر


writerswrite.com

سو غرافتون





روايتا الأديب السعودي منذر القباني



Corbis

الروائي الأمريكي سيدني شيلدون، الذي حافظ على الرواية البوليسية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين



التشابه والتباين بين روايتي كونان دويل وكريستي

يجد هــواة الرواية البوليسية في المكتبــات ألوف الروايات البوليسية التي تبدأ بحادثة غامضة ومثيرة. لكن كيف يمكن لــكل هذه الروايات أن تكون من نوع واحــد، وفي الوقت نفسه أن تكون مختلفة، واحدها عن الآخر؟

أفضل ما يشرح هذا التناقض، أن نقارن روايتي آرثر كونان دويـل: «كلب آل باسكرفيـل»، وأغاثا كريستـي: «جريمة علـى قطار الشرق السريـع». فـي كلا الكاتبين ينشئ الكاتب «جو غموض»، يضعهما فـي النوع الأدبي نفسه. لكن أسلوبي الكاتبين في خلقهما السر الغامض المثيـر لفضول القارئ يختلفان. ففيما يعتمـد دويل على غموض البيئة التي تحدث فيها الجريمــة، تختار كريستي أن يكون الغموض في سلوك الأشخاص وفي مفتاح اللغز.

في القصتين، يستفيد بطلا الرواية، شرلوك هولمز وهركول بوارو، من قدرتهمــا الجبارة على الاستنتــاج العقلي لحل لغـز الجريمة. وكلاهما يستخدم مساعداً متواضع المقــدرة، فيهزأ به ويحقّره. وكلا التحريين مثقف متكبّر. ويتسم هولمز بسمة العالِم، أما بوارو فهو ليس سوى رجل متفوّق في القدرة على الاستنتاج.

تجري روايات دويل في إنجلترا، فيما يسافر أبطال رواية كريستي حيثما تحدث الجريمــة. ذلك ما نقرؤه مثلاً في رواياتها الثلاث: «جريمة على قطار الشرق السريع»، و«جريمــة في وادي الرافدين»، و«جريمة على النيل».

ويشتــرك الكاتبــان في أنهمــا يبدآن عموماً عرض العقــدة بالعثـور علـى جثة، مثـل العثور فجـأة على جثة سير تشارلـز باسكرفيل، المرشح المحتمل لحزب الأحرار في الانتخابـات المقبلة. والعثور على جثة، عنصر قــوي في إثــارة فضول القارئ حــول سرٍ ما، وربمــا في إشاعة

Corbis

شـيء من الخوف وربما الرعب في بعض الحـالات. يُعثر على الجثة في كتـاب دويل في مستنقع معتم منعزل يلفه الضباب، لكن الجثة في كتاب كريستـي تُكتشَف في القطار فـي ظروف غامضة حيث لا يعرف الركاب أحدهـم الآخـر. صحيـح أن المكان مختلـف في طبيعتـه، لكن عنصر الغموض ضروري في كلا الحالين.

وفـي كثير من الروايـات نرى دويل يجعل الجريمة عنـد طرف غابة، أو فـي حدائق واسعة، لا تحتشد بالنـاس. ويجتهد دويل كثيراً في استخدام الكلمـات فـي الوصـف، من أجـل تكوين صـورة المكان بـأدق تفصيل، لإضفاء التشويق والغموض.

أمـا جثـث كريستي فهي «على سفـر» في مكان مـا، لأن كريستي نفسها زارت المشـرق العربـي ومكثت مدة فـي حلب والعـراق. صحيح أن كلا الكاتبيـن يستخدم عوامـل أخرى غير المكان، لإضفـاء الغموض وضخ عناصـر التشويق في الرواية، لكن اختيار المـكان هو العامل المشترك فـي كل رواياتهما. وتتميّز كريستي بأن التشويق عندها يعتمد كثيراً على شخصيـة الأبطال وعلى سـر العقدة في الجريمـة، ويعطيها هذا الأمر طابعـاً أقـل «شاعرية» من دويـل وأشد ميـلاً إلى الواقعيـة. فهي تمعن في تفصيل أسـرار عقدة القصة وعناصر الجريمـة، ودقائق شخصية أهم اللاعبين فـي الرواية. ففي بداية قصتها في كتاب «سر على قطار الشرق السريع»، وصـف لبوارو وكيف يجد عودي ثقاب مختلفي الشكل، ثـم ينحني ليلتقط مـن على الأرض قطعـة مطرزاً عليهـا حرف H، ثم مخـرزاً لتنظيف غليـون. ويتبين فيما بعد أن لهذيـن التفصيلين علاقة بعقدة القصة وسر الجريمة.

ونجـد عنـد كلا الكاتبيـن مجموعـة مـن المشتبـه بهـم، فـي ارتكاب الجريمة. وقلما تكون رواية بمشتبه به وحيد. ويشتد التشويق في الرواية حين يتساوى المشتبه بهم في قوة الشبهة، فلا يتركز الانتباه على واحد منهـم بل على اثنين أو أكثر، فتستبد الحيـرة بالقارئ. إنه أثر مقصود يتفنن الكاتب في إحداثه، بحبكة حسنة وغموض متصاعد.

وقد أمات كلا الكاتبين بطله المحقق، ثم كتب روايات تولى فيه التحقيق محقق آخر، مثل الآنسة ماربل، في روايات كريستي، فيما استوحى دويل مـن المحقق سـي أوغست دوبان، في رواية إدجـار ألان بو: «جريمة في شارع مورج».

أما في المحافل الأدبية فيرى النقاد أن دويل مؤلف كبير، فيما يرون في كريستي كاتبة ناجحة ورائجة في تجارة الكتب رواجاً واسعاً. لكن منهم من يفضل كريستي لا سيما بسبب وفرة اللاعبين الثانويين في رواياتها، فهي تفرد لهم دوراً لا يقتصر على إكمال المشهد، بل انهم يشاركون في تطور الرواية وعقدتها.

وفـي النهايـة لا بد فـي كل رواية، مـن الإيقاع بالقاتـل. ذلك هو غرض القصة البوليسية على كل حال. العناصر في هذا الفرع، منها: كم سنة يجب أن تمضي على الحدث قبـل أن تستحق القصة الصفة التاريخية، أو: هـل ينبغـي أن تحتوي حقائـق تاريخية، وكم من نسـج الخيال يحق للمؤلف أن يضمِّن روايته لتبقى «تاريخية». وهل ينبغي أن تكون الضحية شخصـاً حقيقياً من التاريخ مثـل سقراط أو موتسـارت، أم أن القصة التاريخيـة قد تتسع لروايـة اغتيال شخص وهمي، لكـن في بيئة زمنية واجتماعيـة تاريخيـة. وهـل يكفـي أن يكون التحـري شخصـاً تاريخياً فتحاك من حوله قصة غير حقيقية.



أشهر محققين ابتدعهما الخيال الأدبي: شرلوك هولمز وهركول بوارو.. المختلفين عن بعضهما

Corbis



كلمة بوليس وكلمة شرطة واسم الرواية البوليسية



كلمة «بوليس»، من اليونانية القديمة «بوليتِيا»، وتعني في الأصل إدارة المدينة. وهي تشمل مجموع القوانين والقواعد التي يلتزمها المواطن من أجل أن يسود النظام والطمأنينة والأمان، في المجتمع. وصارت الكلمة فيما بعد تعني مجموعة رجال منظمة مسلّحة مكلّفة أن تفرض احترام هذه النظم والقوانين. وكان نظام الشرطة متبعاً في مدن الفراعنة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة. وبين اسم الشرطة واسم المدينة في اليونانية القديمة علاقة، إذ كانوا يسمّون المدن: تريبوليس (طرابلس) أو أكروبوليس (الموقع الشهير في أثينا)، أو هليوبوليس (مدينة الشمس، في ضاحية القاهرة) وهكذا.

وفي العصور الحديثة، فقدت الكلمة معناها المتعلّق بالمدينة، سوى أن الشرطة في النظام الفرنسي والنظم العربية المستوحاة منه كذلك، لا تعمل عموماً إلا في المدن، فيما تُسمَّى قوى الأمن في خارج المدن: الدَّرَك.

وكان العرب اتَّبعوا إنشاء قوة شبه عسكرية لحفظ النظام في المدن سموها: الشرطة. وفي لسان العرب:
«أشرطَ فلانٌ نفسَه لكذا وكذا، أي ... أعدّها، ومنه سُمِّي الشُّرَط، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامةً يُعرَفون بها، الواحد شُرَطة وشُرَطيّ... ورجلٌ شُرَطيٌّ وشُرْطي: منسوب إلى الشرطة، والجمع: شُرَطٌ، سُمّوا بذلك لأنهم أعدّوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات».

وحين نقول في الصحف والإذاعات: رجال الشرطة، فلأننا قد لا نعرف أن جمع كلمة: شرطي، هو شُرَط. فعبارة: رجال الشرطة ليست عربية خالصة، بل انها ترجمة حرفية لعبارة: Police Men، الإنجليزية.

لقد تطور معنى كلمة «بوليس» الأوروبية، مع الزمن، وصارت تعني، في عبارة: القصة البوليسية، ذلك النوع من القصة أو الرواية التي تعالج قضية جنائية، يحاول التحقيق والأدلة الجنائية والمباحث أو المحقق الخاص (Private Detective)، أن يفكّوا أحاجيّها وعقدها الغامضة لإماطة اللثام عن المجرم المتخفي، الذي حاول أن يخفي جريمته، بما يقرب من الجريمة الكاملة.

وإذا كانت الرواية البوليسية قد تحدث في أرياف، أو في عدد من البلاد، لا في مدينة بالضرورة، إلا أن الغالب في هذا النوع من الأدب، أنه مدني المواقع في الإجمال. وحين تكون الحادثة أو الجريمة في الريف، فذلك لإضافة تشويق عليها، فالمكان ليس مقر إقامة المحقّق المعتاد، وفي ذهابه إلى الريف شيء من التزويق الروائي الجذاب، الذي يحيط القصة بغموض مشوّق ومثير.

ويلاحَظ أن تسمية الرواية البوليسية بالفرنسية Roman Policier، تختلف في معناها قليلاً عن التسمية الإنجليزية Detective Novel، التي تعني: رواية التحقيق الجنائي. إلا أن التسميتين تعنيان النوع الأدبي نفسه في الإجمال. وقد وُلدت في أدبيات النوع كلمة إنجليزية، هي: whodunit، وهي دمج لعبارة: Who had done it، أي: من فعلها؟ وقد صارت الكلمة اسماً لنمط خاص من الرواية البوليسية، لا يتناول سوى عقدة التحقيق فيمن ارتكب جريمة ما، والمبارزة التي تنشأ بين التحري والمجرم، أحدهما يحاول كشف الجريمة وفاعلها، والآخر يحاول إخفاءها أو تحويل النظر عن فاعلها إلى غيره.

خفّض استهلاكك من الملح في الطعام بنسبة 2/3

طبخ الطعام بملح أقل

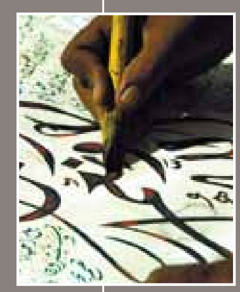
التقارير الصحيّة تجمع أنّ الملح مضرّ للصحة والقلب ويزيد الوزن



طاقة للعالم.. للوطن طاقات

www.saudiaramco.com





القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2010
المجلد 59 العدد 5

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com